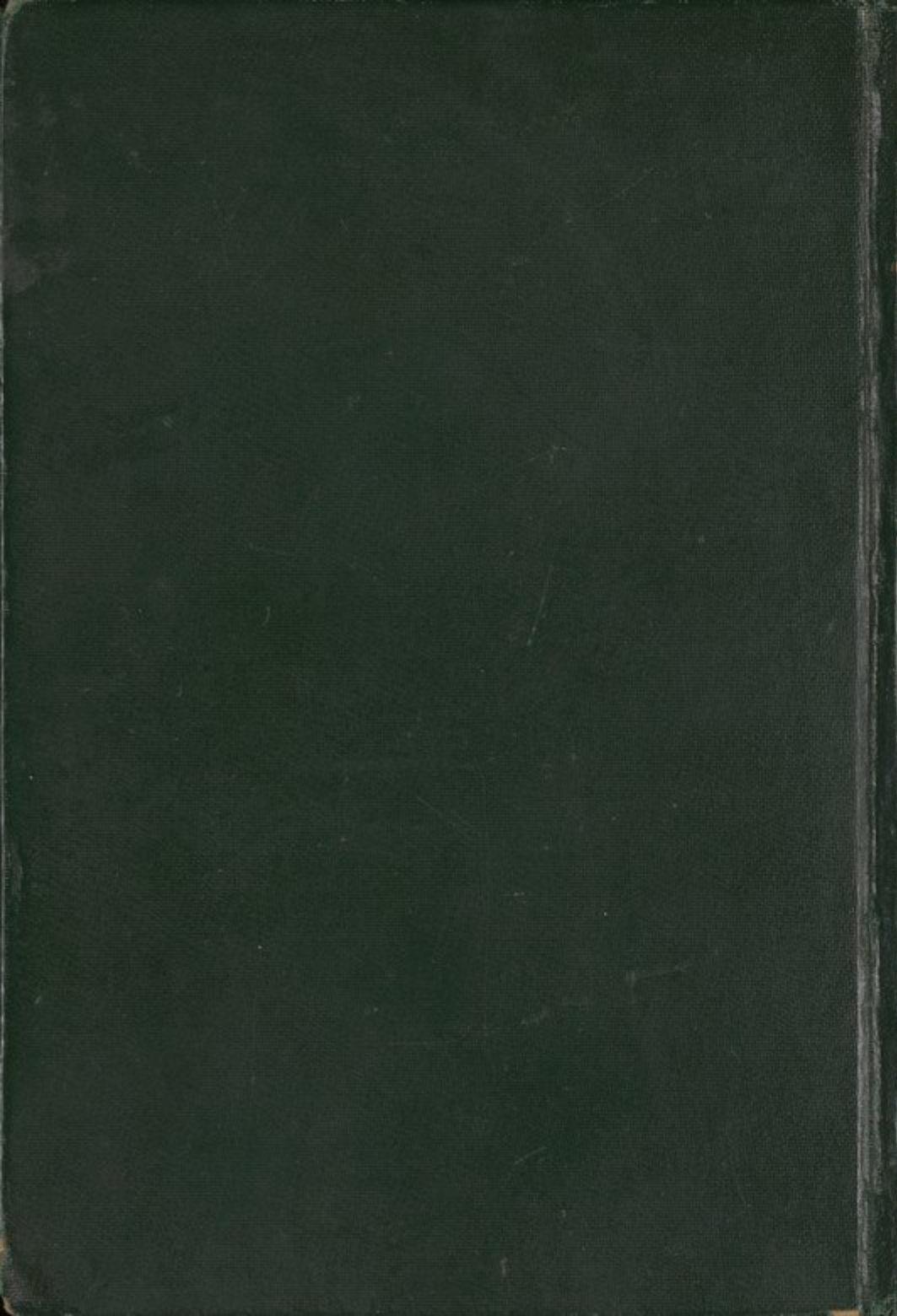
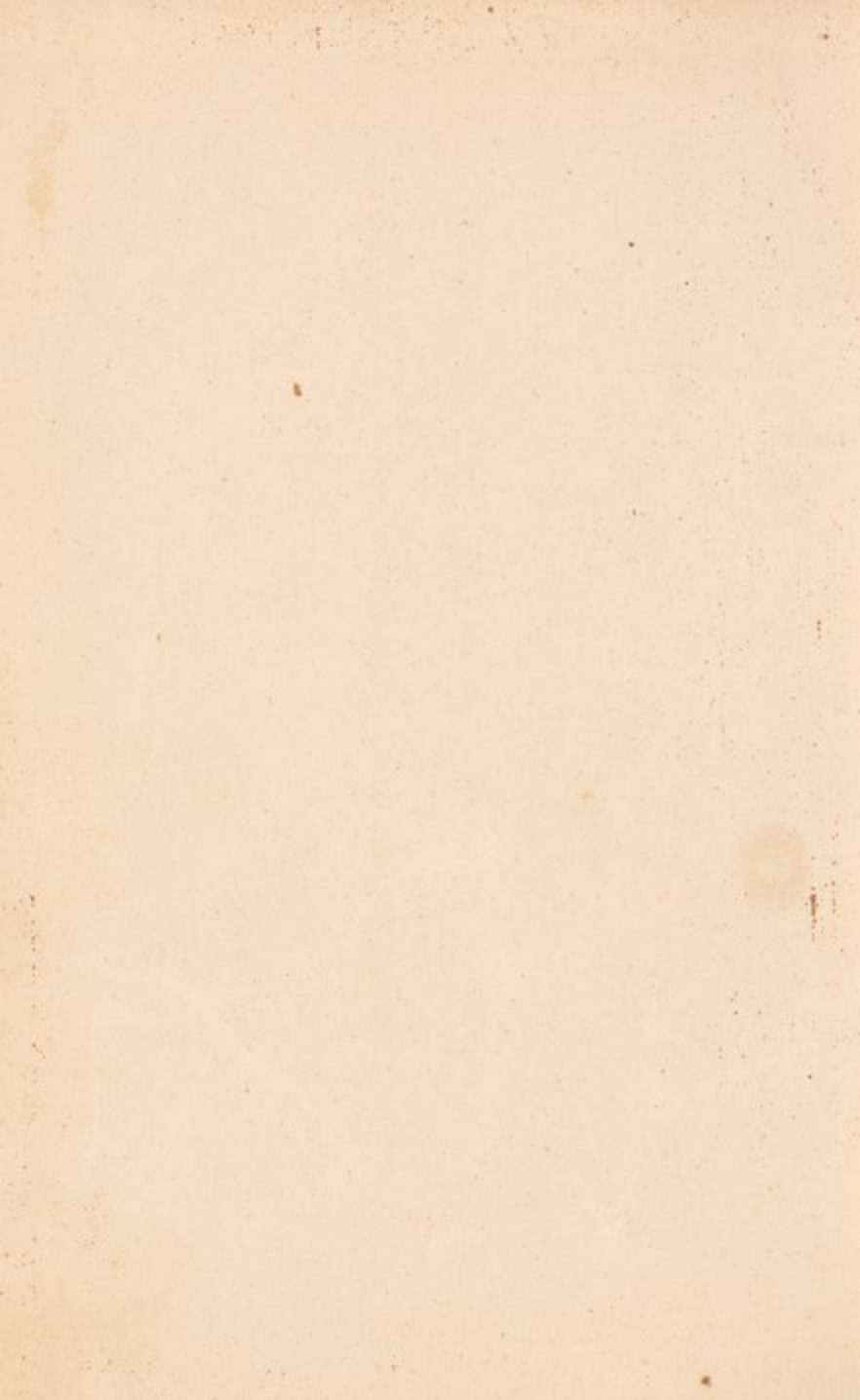








الآباء والبسبون

891.73

T936dA

تأليف

اشهر كتاب الروس في القرن التاسع عشر

ابن سى . ترجميف

تعريب

أكرم فاضل

فرالدور أيوب

عن ترجمة فرنسية
بقلم : ر . رودوف

عن ترجمة انكليزية
بقلم : س . ج . هوكارث

78187

مطبعة الرابطة

شركة الرابطة للطبع والنشر المحمدية - بغداد

١٩٥٠

Cat. Jan. 52



1861

آثار ذو النور أبوب

الدكتور ابراهيم	..	..	..	..	قصة كبيرة
اليد والارض والماء	..	..	..	..	قصة كبيرة

مجاميع قصصية كل منها تحوى ست قصص :

رسل الثقافة	..	..	..	المجموعة الاولى
الضحايا	..	..	..	» الثانية
صديقى	..	..	..	» الثالثة
وحى الفن	..	..	..	» الرابعة
برج بابل	..	..	..	» الخامسة
الكادحون	..	..	..	» السادسة
العقل فى محنته	..	..	..	» السابعة
حيات	..	..	..	» الثامنة
الكارثة الشاملة	..	..	..	» التاسعة
عظمة فارغة	..	..	..	» العاشرة
قلوب ظمأى	..	..	..	» الحادية عشرة

المجموعة التالية :

صور شتى	..	..	..	المجموعة الثانية عشرة
---------	----	----	----	-----------------------

آثار أكرم فاضل

صدرت	..	..	الكوميديا البشرية
تحت الطبع	..	..	في المقاهي والملاهي

كلمة المترجمين

يعتبر إيفان ترجنيف في طبعة الطبقة الأولى من الكتاب العالميين ، وهو عند الروس من عظماء كتابهم الخالدين . ويذهب كثير من النقاد الى اعتبار هذه القصة (الآباء والبنون) الأثر الممتاز بين مؤلفاته ، حتى أن أحد الزعماء السياسيين في القرن التاسع عشر اعتبره « كتاب القرن » والجدير بالذكر أن هذا الأثر يحلو عقلية أبناء ذلك القرن في روسيا بصورة فنية رائعة ، بقسميها الشيوخ المتزمتين المحافظين (الآباء) ، والشبان الثائرين المتمردين (البنون) ، صورة لما ما يماثلها في كل قرن ، وفي هذا القرن بصورة خاصة ، بل وفي بلادنا على الأخص .

ولا يتوهم القارىء بأن بطل هذه القصة شيعوي ، اذ هو في الحقيقة نهليستي . والنهليستيون في نظر الشيوعيين أناس متطرفون ، الى حد تخريب الطريق أمام التطور الشيوعي الطبيعي .

ومهما كان الأمر فهذه الأثر الأدبي النفيس ، أسمى من أن يكون دعاية لمذهب سياسي ، فما كان ترجنيف داعية سياسياً ، ولا شيعياً .

وقد حاولنا أن تكون الترجمة مطابقة للأصل جهداً لا يمكن ، ونعتقد أن بينها وبين الأصل ، من الفرق ، أقل مما بين التراجم المختلفة

لغة واحدة ، أو بين الترجمة الانكليزية والفرنسية . فقد استعنا بأكثر
من ترجمة واحدة الى الانكليزية ، وبترجمة فرنسية واحدة ، على
ضبط الأصل .

ونترك بقية الايضاح في تقدير قيمة هذا الكتاب وأهميته ، الى
الكتاب الأمريكي العظيم سنكلير لويس ، الذي قدم لترجمة كونستانس
بارنت (طبعة هيريتاج الأمريكية) ، والى جون وينترتش ، الذي
شرح ظروف مولد الكتاب شرحاً وافياً .

هذا ونرجو أن يكون عملنا هذا خدمة لرواد الأدب من شباب
الجيل الطالع المثقفين ، وتكميلاً لما تخرجه مطابع البلاد العربية الراقية ،
من عيون الأدب الغربي وآثاره الخالدة .

ولا يسعنا قبل نقض يدنا من كلمتنا هذه ، إلا أن نقدم جزيل
شكرنا الى الأديب اللامع الأستاذ نعيم بدوي ، الذي أشرف على إخراج
هذه الترجمة ، وأعانتنا على إصدارها بهذا الكمال ، وكذلك مطبعة الرابطة التي
بذلت كل ما في وسعها لنشر الترجمة بهذه الحلة القشينة والانتقان المحمود .

بغداد ١٥ ايلول ١٩٥٠

المترجمون

مقدمة طبعة هيريتاج الامريكية

بقلم نيكولاي بوش

عند شيوع آثار المؤلفين الروس الكلاسيكيين في هذه الأيام ، ذلك الشيوع الذي يرجع الفضل في قسم منه الى اعجابنا بما أنجزه اتحاد الجمهوريات السوفياتية من أعمال حربية ، كما يرجع بعضه الى رأي لا نرتاح اليه عن أدبنا القصصي ، ذلك هو أن أغلب هذا الأدب طلق ضحل . ان أدب تولستوى ودستوفسكي التكميري الجبار ، وتمثيلات تشيكوف ، قد قدمت سيراً للعالم لا تقل عن سير ترجميف عظيمة ، وتمثلها أهمية . لقد نُسي ترجميف بعض الشيء ، ولكنه سيعود كما عاد تولوب . ان رفته العظيمة أكبر من أن تستحق إهمالاً .

ان في أدب تولستوى ودستوفسكي رقة أيضاً ، ولكنها رقة أم ريفية نحو ابنها المريض . فمن شعاراتهما ، التي كتبت بحروف تقاوي الحياة : « اتنا غير مسرورين . » فهما يشعلان معاً بأن البشرية يجب أن تنقذ ، على الرغم من أنها لا تستحق الانقاذ ، وما اعتادا قط أن يعرضا رقة كركة ترجميف التي تسود أدبه . ذلك لأن الاخلاق المدنية

الراقية ، التي يسبغها ترجميف على تراجمه ، عندما يصور الشخصيات الروسية البارزة في قصصه ، تمدّها بقبس من نور يخفف من ظلمة الانحطاط والتأخر ، أو سطوع ضوء ، اشكف المربك ، الأمر الذي تجده عند بقية الأساتذة الروس . ففي مقدورنا نحن الأمريكان الغرباء عن الروس ، أن نفهم أبطال ترجميف ، ونحسهم ، ونبتسم لهم . اني أتعمم أن تعطي هذه الطبعة الأنيقة للقراء الجدد ، لمحات عن روسيا ، أكثر رقة وأوثق علاقة بالريف ، مما تعطيه أقبية كوركى ، ولكنها لا تقل عنها واقعية وأهمية .

ان بطل القصة بزاروف ، تلميذ الطب ، الذي يؤمن بأناييب الاختبار أكثر مما يؤمن بالمبادئ ، والأعلام ، هو مثال حيّ لكل المتطرفين ، وأهل البدع من الشبان في كل زمان ، بأماته الفجة ، وباحتقاره لكل المؤسسات القائمة على الاستغلال ، والتقاليد ، احتقار شاب مندفع ، وبخشونته ، واخلاصه لأصدقائه ، وأخير أسقوطه فريسة لتلك العواطف الرقيقة ، التي كان يظن بأنه أرقى منها .

ان مستر وينترتش ، حين يروي كيفية ولادة هذا الكتاب ، يرى أنه مقيد بزمان ، ولكنه في نظري ، لا يرتبط بالزمان أكثر من كتاب لاونيل ، أو هنكوي . ففي سنة ١٩٤٣ لمعت قصة بزاروف كما تلاتات سنة ١٨٦٢ ، حين نشرت لأول مرة ، ان بطلها شخصية انسانية معقدة ساحرة على الدوام .

يسمي بزاروف نفسه نهيلستياً ، ولك أن تسميه شيوعياً ، أو واقعياً

متطرفاً ، او طبيباً يدين بالعلم . اعطه سيكاره بدل السيكار ، وأركبه
سيارة سريعة بدل عربة السفر ، التي ينطلق بها لرؤية أهله وحبوبه قلبه
أنا سرجيننا ، وسترى أن ليس ثمة شيء في غير زمنه ، وأنه ليس غراً
في عواطفه القلبية ولا ثورته العقلية . ان اسمه من الاسماء القليلة التي قدر
لها الخلود ، مثل كيشو ومكاوبر وشارلوك هولمز ، بل هو أبرز شخصية ،
عدا تلك التي عاشت حقيقة . اذن فيجب أن يقدم هذا الاسم لقراء جدد
من وقت لآخر .

وليس في حب أبويه العظيم له ، وتديلهما اياه ، لما عاد من دراسته
الطويلة بعيداً عن أحضانها ، ما يسمى في غير زمنه . ان ظلم الآباء
للأبناء يعتبر الآن شيئاً سيديداً ، ولكن هنالك الكثير مما يحزن
ويستدر العطف ، في تلك الحالات النادرة ، حين يتوق الآباء الى الاحتفاظ
بصدقة أبنائهم ومحبتهم ، وما أشد ما يؤلم ويستدر العطف في الحالة التي
يعرضها ترجميف في هذا الكتاب !

ان بعض سكان أمريكا ، في أواسط الغرب ، ليجدون سحراً في
التعرف الى السهول التي يصفها ترجميف ، والى الحقول المترامية التي
تنخللها الغابات ، والجداول وأحراش البتولا ، والسماء المزدحمة
بالشحارير ، والى الحبوب من حنطة وشعير ، والى جموع العمال المتهادين ،
والى الاقنان ، وقد كان أشباههم عندنا عبيداً ، ثم تحولوا الى شركاء
في الغلة في الجنوب ، وكذلك الأحرار الشماليين الذين يتحدثون عن
تحرير العبيد ، كما يتحدث المستنيرون من ملاكي الأرض ، في قصة ترجميف .

ان قصة (الآباء والبنون) قصة عميقة رقيقة ، بطلاها شخصان طيبا القلب ، ولكنها أيضاً ، من قصص الحب الخيالية ، وفيها يتجلى ما يكتنف الروس من غموض ، بمرض الصداقة العميقة ، أكثر مما يتجلى بالعرض الهزلي التحليلي . ان هذا الكتاب ليس أكمل ولا أطول من فصل تام لتوماس وولف — روسي من شمالي كارولينا ، أو لتولستوي — الكارولائيني المزارع في روسيا — وسيكون عند القراء كافة شيئاً مقبولاً .

كيف ولم لهذا الكتاب

بقلم جوردن . وينتر بنش

قال صاموئيل جونسون مصرحاً ، في لحظة من لحظات حديثه :
« ليس هنالك من يكتب لغير الكسب ، سوى الأغبياء . »
وكل انسان يستطيع أن يتذكر استثناءات كثيرة ، بها يهدم هذا
التعميم الشامل ، الذي يبدو لأول وهلة ، في منطق هذا الرجل الأنيق ،
أمراً لا يقبل الخطأ . ان في الامكان ذكر مجموعات من الاستثناءات ،
لا أفراد ، فهناك من يكتب لمجرد الزهو والحيلة ، وهؤلاء يفوزون ،
عند الاختبار ، بأولية قائمة الأغبياء ، ولكنهم ليسوا أغبياء عموماً .
وهناك الوعاظ المسيحيون ، وليس هؤلاء أغبياء مطلقاً . وهنالك من
الرجال والنساء من يكتب لأن قلبه يسوقه الى الكتابة ، ورأسه يعلم
كيف يكتب .

إن ترجميف من هذا النوع الأخير ، وقد كان غنياً أيضاً . يقول
هنري جيمس : « ليس من غير اللائق أن يشير الانسان الى أن ترجميف
كان يملك ثروة طائلة ، وهذا أمر مهم في حياة رجل القلم . وأعتقد أن
أغلب صفاته الممتازة يرجع الى هذه الحقيقة . فهو يكتب حسبما يمليه

عليه ذقه ومزاجه ، دون أن تردعه أو تضغط عليه اعتبارات خارجة عما يدور في رأسه (هذا بغض النظر عن الرقابة الروسية) وما كان يخاف بدأ من أن يتأخر أو ينزل به الزمن . فلو اخذنا بنظر الاعتبار عدم وجود الحافز المالي عنده ، وطبيعة الكسل والتراخي المعقدة ، التي لا يستثنى منها من هم في مثل حالته المالية ، لوجدنا انتاجه مدهشاً .
إن كل هذه الحقائق تنطبق على جيمس نفسه ، وبغض القوة (عدا الرقابة الروسية) وتلك حقيقة لم يكذب يشعر بها وهو يقول ما قال . فهل كان بالامكان أن يغير الفقر أسلوب كل من جيمس وترجنيف ؟ هل كان بالإمكان أن يكتب أحدهما « صورة سيدة » والآخر « الآباء والبنون » تحت تأثير الرغبة في الربح ؟ أعتقد أنهما كانا يفعلان ، وأعتقد أنهما كانا يستعملان عين الكلمات في عين المواضيع ، وينتجان نفس الكتابين .

إن مهمما الحاجة قد خلق أغلب الفن في العالم ، على أنواعه ، وأناي أعرف صانعاً يدوياً ماهراً يعمل بالقلم والفرشاة ، كان بإمكانه أن يصبح مصوراً عظيماً ، لولا عمة قد أقنعته بالموارد الذي يكفي لسد ضرورياته . وكان المعاش قليلاً ، ولكن حاجاته كانت قليلة أيضاً ، وقد تكون مطامعه تافهة أيضاً ، فحاجته الى ذلك المعاش جعلته يرسم ويصور لقاء أقل ما يتطلبه العيش . وهذا تعريض كاف عن المطامع .

وربما كان الدكتور جونسون ، بعد كل هذا ، على شيء من الصواب . فن المؤكد أن تعميمه قد قسا لأن أغلبنا يعتقد حتماً ، دون حاجة الى

في لغة أمة أخرى ، لا تشبه روسيا من حيث التأخر ، وتبعد عنها ألوف
الأميال ، تلك هي قصة « مقارة العم توم »

لقد زرعت بذرة الآباء والبنون في صيف عام ١٨٦٠ حين التقى
ترجنيف صدفة في عربة قطار ، طبيباً ريفياً ، يتكلم بلهجة نارية حية .
فوجده رجلاً من الشعب ، قد جر نفسه بنفسه ، وارتفع عن وسطه
بمجهوده العنيف ، الى رتبة ذوي الاختصاص . وتلك ظاهرة عظيمة
في روسيا القيصرية . وما استطاع ترجنيف أن يجد شبيهاً له في القصة
الروسية .

وبعد شهرين شرع بكتابة القصة ، ولم يكملها إلا في تموز سنة ١٨٦١
وقد اختلف أصدقاؤه ، الذين قدمت القصة لهم ، في آرائهم حولها ،
فيخايل كتكوف ، صاحب البشير الروسية لم يعجبه ما سماه بالتضمين
المتطرف ، لكنه ، مع ذلك ، نشرها في مجلته خلال سنة ١٨٦٢ ،
وأعقبه نشرة الكتب على الفور . ويقول يارمولينسكي : « لقد قرأ القصة
كل الناس ، من الامبراطورة ، الى اولئك الذين لم يفتحوا كتاباً منذ
أيام الدراسة . »

لقد غضب الشبان الروس على ترجنيف غضباً شديداً ، فقد رأوا في
بزاروف صورة ساخرة لهم ، بدلاً من أن يجدوا فيه نموذجاً للجيل
الناهض ، كما يراه الكبار . فحملوا الى بابه اتهامهم اياه بالتقصير في تصوير
شخصيات قصصه . ولكنه كاد قد أجاد عمله ، وكتب يقول : « لقد
صفتني الأيدي التي كنت أظنها ستصفق لي ، واحتضنتني الأيدي التي

أهرب من لمسها الى آخر الأرض . »

تعتبر « الآباء والبنون » قصة قصيرة ، اذا ما قيست بالقصص الروسية التي تطول وتطول ، والقارىء الذي عرف الأدب الروسي عن طريق تولستوى ودستوفسكي ، لا يعتبرها أكثر من ملخص . أما من يقرأها ، آخذاً بنظر الاعتبار هذه السنين الثمانين التي مضت ، فباستطاعته أن يدرك كيف استطاع ترجيف أن يقدر روسيا الشرقية المترامية الأطراف الموجودة اليوم مثل هذا التقدير .





الفصل الأول

« إيه يا سيتر ألم ترهم حتى الآن ؟ » وجه هذا السؤال سيد يناهز الأربعين ، عاري الرأس ، يرتدي سترّة ترايية فوق سراويل من الصوف الانكليزي ، وهو يدخل شرفة محطة لعربات المسافرين في ٢٠ مايس سنة ١٨٥٩ . وكان المخاطب خادم السيد ، وهو شاب مستدير الحدين ، ذو عينين بليدين صغيرتين ، وذقن تزينا خصلة من الزغب فاتح اللون . أجاب الخادم ، وكان كل شيء فيه يدل على انه من الجيل العصري الناهض ، قرطاه الفيروزيان ، وشعره المصبوغ الملمع بالدهان ، ومشيته الأنيقة ، أجاب بلهجة متشاحخة ، وهو يتطلع الى الطريق العام :

« لا أيها السيد لا أستطيع أن أراهم . »

فتساءل السيد : « أهو كذلك ؟ »

فأجاب الخادم مؤكداً : « أجل . »

تهد السيد واقعد مسطبة . فلنتركة في جلسته طاوياً ركبتيه تحته ، وعيناه تنطلعان بكآبة يئمة ويسرة ، فلعل القاري يهتم بأن يكون أكثر معرفة بشخصيته .

اسمه نيقولاي بتروفيتش كيرسانوف ، يملك أرضاً صغيرة تستحق الاعتبار ، يعمل فيها حوالي المائتين من الأقنان ، وتقع على بعد خمسة عشر فرسخاً من تلك المحطة . وكان قد قسمها على فلاحيه وحوّلها الى مزرعة من الطراز الحديث ، ومساحة الأرض - حسب قوله - تنوف على الخمسة آلاف مشارة . أما أبوه ، وهو من جنرالات سنة ١٨١٢ ، فقد قضى معظم حياته في الخدمة العسكرية ، قائد لواء ، أولاً ، ثم قائد فرقة . وكان مقر خدمته في الأقاليم ، حيث مكنته رتبته من أن يزهر بنفسه ويختال علناً . أما نيقولاي بتروفيتش نفسه فقد ولد في جنوبي روسيا ، وكذلك أخوه الأكبر بول ، وقد بقي حتى ناهز الرابعة عشرة من عمره يتلقى تعليمه على عدد من المربيات القاسيات ، والخدم الطلقاء السهلي القياد ، وأنواع شتى من الضباط الملاحقين بالخدمة .

وتنحدر أمه من عائلة كولياجن ، وكانت تسمى ، وهي عذراء ، اكاثيا ، ومن ثم كاتوكليا كوزمينشنا كيرسانوفا . وكانت من ذلك النوع من السيدات العسكريات ، وأعني بذلك انها كانت ترتدي القبعات الفخمة التي لا ذوق فيها ، وتلبس الثياب الحريرية ذات الحفيف ، وكانت أول من يقبل الصليب في الكنيسة ، واذا تسكمت أسرع ورفعت صوتها ، وكانت تدرب ولديها على تقبيل يدها صباحاً ، ولم تقصر قط قسوه أن تباركهم مساء قبل ذهابهم الى الفراش . وبكلمة مختصرة انها كانت تحيا حياة تناسها . ولما كان نيقولاي بتروفيتش ابن ضابط ، فقد تحتم عليه أن يحذو حذو أخيه بول ، أي أن يدخل الكلية العسكرية ،

رغم انه لم يظهر شجاعة عمره ، بل وانه ليدو جباناً .

ويوم صدر الأمر بتعيينه في رتبة عسكرية ، كسرت ساقه ، وأدى ذلك الى أن لزم الفراش شهرين ، ثم نهض أعرج لسوء الحظ . وبعد أن ضرب أبوه يداً بأخرى أسفاً ، أرسله مضطراً لتلقي العلوم المدنية ، وكانت سن نيقولاي ثماني عشرة سنة حين وجد نفسه طالباً في كلية سانت بترسبورج . وفي نفس هذا الوقت تعين أخوه في رتبة ضابط في الحرس في نفس المدينة . وهكذا جمع الأب الشابين في مكان واحد ، ووضعهما تحت هيمنة خالهما اييليا كولياجن ، وكان هذا موظفاً خطيراً . ولما أتم الأب هذه المهمة ، رجع الى فرقته وزوجته ، وبقي بعيداً عنهما ، لا يرسلهما إلا نادراً ، واذا ما فعل خط لهما صفحات كبيرة من الورق الأشهب بخط زاه أنيق ، وأضاف اليها ، وسط أقواس من الزخرف المتكلف امضاء الفخم « الجنرال بتروفيتش » . ونال نيقولاي بتروفيتش درجته الجامعية سنة ١٨٣٥ ، وفي تلك السنة أحيل الجنرال كيرسانوف على التقاعد لتقصيره في عرض عسكري ، ولذلك قرر الانتقال الى سانت بترسبورج ، بينما كان على وشك استئجار دار بالقرب من حدائق تافريفسكي ، والالتقاء الى النادي الانكليزي ، وأنهت صدمة مرضية حياته لسوء الحظ ، وتبعته اكانوكليا كوزمينيشنا على الفور ، إذ لم تتمكن من اعتياد حياة العاصمة الحامية ، بل ظلت تذوب شوقاً الى الحياة القديمة في الأقاليم .

ووقع نيقولاي بتروفيتش في حب ابنة موظف مغمور اسمه

بريمولوفيتسكي هو صاحب الشقة التي كان يسكنها ، وكان ذلك في حياة والديه ، فاغاطهما ذلك غيظاً شديداً . ولما كانت الفتاة قد بادلت الحب ، بل وأكثر من ذلك كانت فتاة تقدمية ، أي انها تتبّع وتطالع بامعان مواضيع علمية تنشر بين حين وآخر في الصحف ، فقد تزوجها بعد انتهاء العزاء على الفور وترك وزارة المالية حيث كان قد عين في وظيفة فيها تحت تأثير نفوذ أبيه ، وبدأ حياة زوجية سعيدة في مغنى مجاور لمصلحة الغابات ، ثم انتقل الزوجان بعد حين الى شقة صغيرة ، غير انها نظيفة أنيقة جداً يستطيع المرء أن يتباهى بمراحضها اللامع وغرفة الاستقبال الباردة الى حد الانجهاذ . ومن ثم هاجرا الى الريف حيث استقرا نهائياً ، وهناك في موسم الندى ولدا ولدها اركادي . وكانت حياة الزوجين هادئة من ذلك النوع الذي يسمى ذا السعادة الكاملة . كان الزوجان لا يفرقان قط ، يقرآن معاً ، ويعزفان على البيان معاً ، وينشدان المقاطيع الشعرية الغنائية سوية . وكانت تعتنى بالحديقة وترية الدجاج . وكان هو يذهب الى الصيد ، او يراقب ادارة المقاطعة . وكان اركادي ينمو في وسط هادي مريح فيزداد صحة وسمنة . وعند بداية سنة ١٨٤٧ ، أي بعد مرور عشر سنين على هذه الحياة الرتيبة الثابتة لفظت الزوجة أنفاسها . وكانت الضربة أقوى من أن يحتملها الزوج ، حتى إن شعره شاب خلال أسابيع قليلة ، ورغم انه سافر باحثاً عن السلوى والعزاء ، إلا أنه وجد نفسه مجبراً على العودة بعد سنة ، وبعد عدة سنين قضاها في خمول ، حظى باهتمامه موضوع التطور الاقتصادي . وفي سنة ١٨٥٥ أرسل ابنه الى

كلية سنت بترسبرج وبسبب ذلك قضى ثلاثة أشتية في العاصمة ، حيث بقي
حبس المنزل تقريباً ، يقضي أغلب وقته في محاولة التقرب من الشبان
أصدقاء ابنه . وقد منعه ظروف عدة من قضاء الشتاء الرابع في سنت
بترسبورج ، وهكذا نجده في مايس سنة ١٨٥٩ بشعره الأشهب وسترته
التربة ، منحني الظهر قليلاً ، مع انه في منتصف عمره ، ينتظر عودة
ابنه بعد أن ارتفع هذا الابن الى مرتبة حملة الشهادات الجامعية كأبيه
نيقولاي .

تسلل الخادم من البوابة بدافع الشعور بالضعة ، او ربما هرباً من
حضرة سيده ، فأشعل غليوناً ومضى يدخن . أما نيقولاي بيتروفيتش
فقد ظل جالساً خافض الرأس ينظر الى درجات الشرفة القديمة حيث
كانت دجاجة ميمنة مرقطة تصعد مختالة تحملها ساقان صفراوان مقوسان .
وأثار اختياها قطة قدرة شرسة فأخذت تنظر اليها من أعلى الدرابزين
نظرة استهجان صريحة .

كانت الشمس تسكب اشعة حارة ، وانبعثت من هري قريب رائحة تبين
شوفان حار ، وغاص نيقولاي في شرود ذهني ، وظلت هذه العبارة
تروح وتغدو في ذهنه : « ابني اركادي قد اجيز » وقد حاول مراراً
ان يفكر بشيء آخر ولكن عبثاً كان يحاول ، حتى انتقل فجأة الى
ذكرى زوجته المتوفاة فحدث نفسه متألماً : « آه لو كانت على قيد
الحياة » وعندها تهاوت حمامة سمينة زرقاء ، وحطت في عرض الطريق
لتختطف جرعة ماء من بركة صغيرة قرب البئر . وفي تلك اللحظة

التقطت اذناه صوت عجلات عربية تقترب :

« انهم قادمون كما أظن » ، قال الخادم ذلك وهو يتقدم
مجتازاً البوابة .

ووثب نيقولاى بتروفيتش على قدميه وحقق في الطريق : أجل لقد
لاحظت للناظر عربية تجرها ثلاثة جياد ، وظهر منها قبعات مما يلبسه
الطلاب ، وتحت احداها ملاح وجهه جيب .

وصاح كيرسانوف وهو يركض ويحرك ذراعيه : « اركاشا
اركاشا » . وبعد بضع دقائق كان يضغط بشفتيه على خد طالب قد تخرج
حديثاً ، مترب مشمس حليق .

الفصل الثاني

قال اركادي بصوت صاف فيه عنفوان الشباب ، رغم ان السفر قد اخشنه قليلا : « يا أعز والد فلنتعاق أولا » ثم أضاف بسرور ، وهو يبادل أباه الضم والعناق : « أنظر كيف عفرتك بالتراب » .

فقال نيكولاى بيتروفيتش بابتسامة ودية صميمة وهو ينفض ياقة معطف ابنه الزرقاء وسترته أيضاً : « آه ليس في ذلك ضرر قط » وتخلص بعد ذلك من عنساق ولده برفق ، وأخذ يتقدم القادمين الى صحن الحان وهو يقول : « من هنا من هنا ، وستعد الحيل حالاً » . ويظهر ان انفعاله كان قد سرى الى ابنه أيضاً فصار يتمم ويهمهم مثله ، ويمجد نفسه أحياناً في حاجة الى كلمة تسعفه . وأوقف اركادي أباه وقال : « دعني أقدم لك يا بابا صديق الطبيب بزاروف ، وهو الصديق الذي كنت أكثر من ذكره في رسائلي ، والذي تكرم بأن قدم معي زائراً » .

فاستدار نيقولاى بيتروفيتش حالاً ، وتقدم من رجل طويل القامة ، يرتدي معطفاً طويلاً ، بمنطقة ذات ذوائب ، وكان قد نزل من العربة

توا ، قد له يده وضغط على اليد العارية الحمراء الممدودة إليه بشيء
من التردد .

ورحب نيقولاى بتروفيتش بالزائر بقوله : « حقاً انى سرور
برؤيتك ، واني ممتن لتكرمك بزيارتنا ... ومع الأسف ... أو مل
أن ... ولكن هل لي أن أسألك عن إسمك ؟ »

فأجاب المخاطب بلهجة فيها رجولة وهدوء ، وهو يقلب ياقة معطفه ،
ويظهر ما تبقى من وجهه : « ايفاجني فاسليف . »

كان الزائر طويلاً نحيفاً ذا جبين عال يلوح كأنه قد انبسط من أعلى
وضاق من جهة الانف ، له عينان خضراوان ، وشاربان طويلان
تربان ، وسرعان ما تألق ذلك الوجه بابتسامة فتجلت فيه امارات الذكاء
والثقة بالنفس .

وعاد نيقولاى بتروفيتش يقول : « يا حبيبي ايفاجني فاسليف انني
على ثقة بأنك ، وأنت معنا ، سوف لا تشعر بثقل وطأة الزمن . »
فلوى بزاروف شفتيه قليلا ولم ينعم عليه بجواب ، غير أنه رفع
قبعته ، وبذلك أبان الجزء الأعلى من حجمته مغطاة تماماً بشعر كثيف
يصعب تعيين لونه .

وأضاف نيقولاى قائلاً لابنه وهو مقبل عليه : « والآن يا اركادي
هل نسرج الحبول حالا ؟ أو نفضل ان تستريح قليلا . »

« فلنستريح في الدار يا أبي . لذا أرجو أن تأمر باعداد الحيل . »
فوافق ابوه بقوله : « سأفعل . يايتز . تمحرك أيها الرفيق الطيب . »

ولما كان بئر من الخدم المهذبين تهذيباً تاماً ، فانه لم يقترب من سيده الصغير ، ولا هز يده مصافحاً ، بل اكتفى باحناء رأسه عن بعد ثم اختفى وراء البوابة .

وقال نيقولاى بتروفيتش : « ورغم أي قد أتيت في الفيتون فقد أحضرت معي ثلاثة من الجياد لعربة السفر . »
وشرب أركادي جرعة ماء من قدح أصفر قدمه له صاحب المحل ، بينما كان بزاروف يولع غليونيه ويتقدم من السائس الذي كان مشغولاً بأسراج خيول العربة .

ومضى نيقولاى بتروفيتش يقول : « يسع الفيتون راكبين فقط ، لذلك أجد صعباً عليّ أن أعلم رغبة رفيقك . »
فقاطعه أركادي بقوله : « هو . يسره أن يركب عربة السفر ، وبهذه المناسبة أرجو أن تحمل الرسميات معه ، فعلاوة على انه شخص بديع ، فهو بسيط ايضاً ، وسترى ذلك بنفسك . »

وخرج سائق العربة يجري الخيول وراءه ، وقال بزاروف للسائس : « هيا تحرك يا ذا اللحية الكثة » وأضاف سائس آخر وهو يضع يديه في شقين أسودين في صدره : « لقد سماك السيد ذا اللحية الكثة . »
أسمعت ذلك يامتيوشا ؟ انك حقاً ذو لحية كثة .

ولم يجب متيوشا بل آمال قبعته جانباً وسحب الاغصنة عن ظهر الحصان المبلل بالعرق .

وصاح نيقولاى بتروفيتش بالخدم : « اسرعوا يا رفاق ، مدوا

أيديكم جميعاً ولكل منكم كأس من الفودكا . »

ولم يمض وقت طويل بالطبع حتى أسرجت الخيول ، وجلس الأب
وابنه في الفيتون واعتلى يتر صندوق القيادة ، ودخل بزاروف عربة
السفر ، وأراح رأسه فوق حشيتها الخلفية .
وأخيراً تحرك الموكب .

الفصل الثالث

قال نيقولاى بترفيتش وهو يربت على ركبة أركادي تارة وعلى كتفه أخرى : « إني لأسر كلما تذكرت بأنك قد أنهيت دراستك وعدت الى الدار . وها هو ذا أنت . »

فسأله أركادي : « وكيف عمي ؟ أهو بصحة جيدة ؟ » وكان مبعث السؤال أنه شعر بسرور صياني ، وبسعادة مفرطة لأوبته ، وشعر أيضاً بدافع يدفعه الى أن يحول الحديث من الأمور العاطفية الى الأشياء الاعتيادية المألوفة .

« أجل ان عمك بصحة جيدة ، وقد أراد في الحقيقة أن يأتي لاستقبالك ، ولكنه غير عزمه في آخر لحظة . »
ومضى اركادي يسأل : « هل انتظرتنا طويلاً ؟ »
« مدة خمس ساعات تقريباً »

فهتف اركادي : « يالك من أب عزيز » ثم مال على أبيه وطبع قبلة صميمة فوق خده ، فابتسم نيقولاى بترفيتش بهدوء . وأعقب الأب بقوله : « لقد أعددت لك حصاناً بديعاً وستراه قريباً ، وقد أبدلنا

ورق غرفتك بأجمعه . »

« وهل لديكم غرفة ليزاروف أيضاً ؟ »

« سنهني له واحدة . »

« أجل . أرجو أن تكرمه بكل ما تستطيع ، إذ لا أقدر أن أعبر

لك عن مقدار تقديري لصداقته . »

« ولكنك لم تعرفه منذ أمد طويل أليس كذلك ؟ »

« لا ليس من مدة طويلة . »

« هكذا ظننت لأنني لم أراه في سانت بطرسبرج في الشتاء الماضي .

وما هي هوايته ؟ »

« العلوم الطبيعية في الدرجة الأولى ، ولكن لو توخينا الحقيقة

لوجدناه يعرف كل شيء ، وسيكون دكتوراً في السنة التالية . »

« آه فهو إذن في كلية الطب ؟ » أبدى نيقولاى بتروفيتش هذه

الملاحظة ثم ساد السكون فترة من الزمن ، ومضي نيقولاى يقول وهو

يشير يده : « يا بيتر هل أولئك الفلاحون من فلاحينا ؟ »

فنظر بيتر الى الجهة المشار اليها ، ورأى بضع عربات تسير في طريق

ضيقة ، وكانت خيولها دون أعنة ، وفي كل عربة إثنان أو ثلاثة من

الموجيك يرتدون أقمصه غير مزررة ، فأجاب بيتر : « أجل إنهم من

فلاحينا . أين تراهم يقصدون ؟ المدينة ؟ » ثم أضاف باحتقار « أجل

وربما الى الحانة . » ثم غمز السائق بعينه لينال تأييده وتحبيذه ، ولما

كان الأخير من اتساع المدرسة القديمة ، وممن لم يشتركوا في الحركات

الحديث ، فانه لم يحرك عضلة واحدة في وجهه .

ومضى نيقولاى بتروفيتش يقول لابنه : « لقد حشد الفلاحون لي هذه السنة عدداً كبيراً من المتعبات ، فهم يصرون على عدم دفع أعشارهم . وماذا يمكن أن يصنع الانسان معهم ؟ »
« وهل أنت راضٍ عن عمالك المأجورين ؟ »

فتمتم نيقولاى بتروفيتش : « لست راضياً عنهم جميعاً . لقد فسدوا وهذا ما يؤسف له كثيراً ، ويظهر أن نشاطهم قد فارقهم كلية ، فلم يكتبوا بتخريب آلاتي ، بل تركوا الأرض غير محروثة أيضاً . أيعجبك هذا الحديث عن شؤون إدارة المزرعة ؟ »

فلاحظ أركادى بلهجة المتسائل : « إن ما نحتاج اليه هنا الآن هو الظل . »

« آه ولكننا قد أضفنا مظلة الى الشرفة الجنوبية بحيث تستطيع تناول الغداء في الهواء الطلق . »

« إن ذلك سيعطي السكان هيئة مغنى أليس كذلك ؟ .. ان ما اتبعته من اصلاحات في المزرعة أمر غير مجد مطلقاً . ولكن الهواء هنا ، آه ما أجمل رائحته . أجل ففي رأيي ليس ثمة رائحة تشبه هذه في مكان آخر . آه يا للسماء . »

وتوقف اركادى فجأة ملقياً نظره ناحية عربة السفر ، وعاد الى الصمت .

وقال نيقولاى بتروفيتش : « وافقك انك ترى ان السبب في

حبك للمكان هو أنك ولدت فيه . فالمسكان قين بأن يكون له عندك
معنى خاص . »

« آه ليس نعمة معنى من هذا النوع مهما كان : »

فطلع اليه نيقولاى بتروفيتش ، وظلت العربى تسير نصف فرسخ
دون أن يعودا الى الحديث ، وأخيراً أبدى نيقولاى بتروفيتش
ملاحظة بقوله :

« لا أتذكر فيما اذا كنت قد كتبت لك بأن مرييتك العجوز
اسكوروفنا قد ماتت ؟ »

« ماتت ؟ يا للمرأة المسكينة العجوز . وبروكوفيتش هل هو حي ؟ »
« أجل ولم يطرأ عليه تغيير ما . أعني أنه لا زال كثير التذمر كعادته
والحقيقة أنك سوف لا تجد أي تغيير مهم قد حل في ماريانو . »

« وهل احتفظت بنفس الوكيل السابق ؟ »

« لا . لقد عينت آخر جديداً . لأنني قد توصلت أخيراً الى أنه
لا يمكن ابقاء رجل متحرر في هذا المركز . أعني أنني لا أستطيع أن
أثق بأمثال هؤلاء وهم في مركز ذي مسؤولية . »

فغمز اركادى ناحية بيتر بعينه ، فخفض نيقولاى صوته قليلاً وقال
بالفرنسية : « انه خادمى الخاص . كما ترى وهو منهم ! » ثم عاد الى
الروسية فقال : « أما بخصوص الوكيل فقد عينت أحد الباعة المحليين
براتب ٢٥٠ روبلاً سنوياً وهو يسدو قديراً نوعاً ما ولكن . »
وعندها حك جيبه ، وهذا ما يفعله كلما اتتبه انفعال داخلي ، وعاد

يقول : « أريد بأنني أخبرتك بعدم وجود تغيير في مارينو ، والامر ليس كذلك تماماً ، وأرى من واجبي أن أحيطك علماً بأن .. بأن . »
وتردد قليلاً ثم أضاف بالفرنسية : « ربما عدت صراحتي عند المزمعين شيئاً سمجاً . ومع ذلك فسوف لا أخفي عنك أمراً . وسوف تتأكد مما أقول . أن لدي آراء خاصة حول العلاقات التي يجب أن تبقى مصونة بين الأب والابن . ولا أعني بهذا إنه لا حق لك في الحكم على سلوكي . فالأحرى بمن كان في مثل سني .. حسناً لأجل أن نكون صرحاء تماماً فإن الفتاة التي ستجدني أتحدث عنها .. »

فقال أركادي « أعني مينجكا ! »

فاحمر وجهه ويقولاي بتروفيتش وقال ناصحاً : « لا تتكلم عنها بصوت مرتفع . أجل أنها تعيش معنا . لقد قبلتها لوجود غرفتين زائدتين عندنا ، ولكن الامر يجب أن يتغير الآن طبعاً . »

« ولماذا يا بابا ؟ »

« لأن صديقك هذا قد أتى معك ، وأيضاً لأن الوضع قد يبدو

سمجاً غير مستحب . »

« لا تتعب نفسك بسبب بزاروف فهو فوق هذه التوافه . »

« أجل كما تريد ، ولكن المحذور مسبب عن صغر جناح السكفي . »

فاعترض اركادي بقوله : « بابا . بابا . يكاد الانسان يظن بأنك تعتبر

نفسك ملوماً على شيء . وليس لديك في الحقيقة ما تلوم نفسك عليه . »

فأجاب يقولاي بتروفيتش وقد ازداد وجهه احمراراً : « ولكن

لديّ ما ألام عليه . »

فكرر اركادي قوله بابتسامة ودية : « لا ليس لديك شيء من ذلك مطلقاً » . وأضاف لنفسه وهو يشعر شعوراً رقيقاً نحو والده الطيب الشفوق : « ترى لماذا يقدم هذه الاعتذارات » وشعر أيضاً بشيء من التعالي ، ثم أضاف بلهجة يمازجها ابتهاج غير اختياري في كونه قد بلغ السن التي يحسب له فيها حساب : « أرجوك ألا تزيد شيئاً آخر . » وعندئذ نظر اليه نيقولاوي بتروفيتش من تحت اصبعه التي كانت لا تزال تمسح جبينه ، وشعر في تلك اللحظة بطعنة في فؤاده ووبخه عقله على ما بدر منه .

وقال بعد وجوم : « من هنا تبدأ حقولنا . »

فوافقه اركادي : « أجل وتلك غابتنا على ما أظن . »

« أجل . ولكنني بعثها وستقطع هذه السنة . »

« ولماذا بعثها ؟ »

« لأنني بحاجة الى ثمنها ، ولأن أرضها يجب أن توزع على الفلاحين . »

« ماذا ؟ على الفلاحين الذين لا يدفعون الأعشار ؟ »

« ربما . ولكنهم سيدفعون يوماً . »

فقال اركادي : « إني لأسف لفقد الغاية » ثم عاد يسرح نظره في

الأرض المنبسطة .

وكان منظر الأرض التي يقطعونها نما لا يصح أن يسمى جيلاً ، فلم

تسكن تلك الأرض سوى حقول بعد حقول يعتورها قليل من التموج ،

تمتد حتى الأفق . حقاً لقد كان ثمة بقع من الادغال ، ولكن الحنادق وما يحدها من نجوم متفرقة ، تذكر الانسان بمنظر الأراضي المنقرضة من زمن الملوك كاترين ، وكذلك الجداول المحصورة بين شطوط ضيقة وعرة ، وقرى أكواخها قيئة قد تشققت سقوفها السوداء ، وهي متلاصقة يعلو بعضها بعضاً ، تتخللها عرائش للطحن ، مضحكة ، من الصفصاف الجدول ، وفسح للدرس مسطحة خالية ، ذات بوابات مائلة متداعية ، ووسط المدافن الخربة كنائس مشادة من الحشب أو الطابوق قد كشط ملاط جدرانها وهددت صلبانها بالانهيار . وانقبض فؤاد أركادي وهو يستعرض هذا المنظر . وعلاوة على ذلك فقد كان الفلاحون ، الذين يصادفونهم في الطريق ، صعاليك يمتطون جياداً صغيرة هزيلة . أما أشجار الزينة المغروسة على جانبي الطريق ، كصفوف من الشحاذين ، فقد تهطل لحاؤها وتشققت جذوعها . وأخيراً بدت الأبقار القذرة وهي ترعى العشب في الحنادق ، تبدو عظامها من تحت جلودها ، وكأنها قد انقذت توأ من وحش ضار . وإذا ما تملى المرء بمنظر هذه الحيوانات الضعيفة المسكينة ، تصور شبح الشتاء الشاحب ينبعث وسط الربيع الجميل ، بزوابعه وجليده وجمده .

وقال أركادي لنفسه : « ليست هذه مقاطعة غنية ، وهي لا تعطي المرء صورة عن الرفاه والعمل الجدي . وعلى كل فهل يستساغ أن تترك على حالها ؟ لا . إن ما تحتاجه هو التعليم . ولكن كيف يوفر هذا التعليم ؟ وكيف يبدأ به ؟ »

ورغم حالة أركادي هذه ، وما دار في رأسه من أفكار سوداء ،
فقد بدا الربيع متبوءاً عرش مملكته ، فبدا كل شيء حوله اخضر
زاهياً ذهبياً ، وأخذت الأشجار والنجوم والأعشاب تنموج وتتألق
بفعل أنفاس الربيع ، ذلك النسيم الدافئ . وشرعت القنابر تسكب
أرواحها الحائناً رنانة متصلة لانهاية لطولها ، وكانت السنونو تدور
عالياً ، ثم تطلق صرخاتها وتنقض على برك الماء ، ثم تطير قريبة من
أوجه التلال وهي صامتة . وكانت الغربان السوداء الجميلة منتصبية بين
الزروع .

ومضى أركادي يحدق ويحدق ، وبهذا صارت أفكاره السابقة
تزداد انطماساً حتى اختفت . فرمى معطف السفر عن كتفه ونظر الى
وجه أبيه طرباً وقد تملكه فرح صبياني ، مما جعل أباه يضمه ضمة
أخرى .

وقال نيقولاى بتروفيتش ملاحظاً : « لم يبق إلا القليل من
الطريق ، وعندما نصعد ذلك المرتفع ستبدو المنازل للعيان ، ويا له من
وقت سنقضيه معاً يا أركاشا ! ستساعدني على إدارة المزرعة اذا راقك
ذلك . وسيزداد كل منا قرباً من الآخر ، وسنعرف بعضنا أكثر فأكثر . »
فهتف أركادي : « أجل سنفعل . ويا له من ظرف طيب لكلينا ! »
« أجل . خصوصاً وان قدومك صادف الربيع بجماله وروعته .
ومع ذلك فلست على يقين بأنني لا أتفق مع بشكن حيث يقول في
(يوجين اونيجين) :

ياربيع الحب يافصل النماء أي حزن هاجني لما أتيت !

وصاح بزاروف من عربته : « أركادي . إرسل لي من فضلك عوداً او عودين من الثقاب ، إذ ليس لدي ما أولع به غليونني » . فسكت نيقولاي بتروفيتش عن إلقاء الشعر على الفور . أما أركادي الذي كان يصغي الى أبيه بتعجب شديد ، وبحماس غير قليل ، فقد أسرع وأخرج من جيبه علبة ثقاب فضية أعطاها الى يتر الذي قام بمهمة نقلها .

وصاح بزاروف : « هل لك بسيكار عوض ثقابك ؟ »

فأجاب أركادي : « أجل . »

وهكذا عاد يتر الى العربية لا بالعلبة وحدها ، بل ومعها سيكار أسود غليظ أولعه أركادي بسرور ، وأخذ ينشر حوله دخاناً ذا رائحة نفاذة كريهة حتى ان نيقولاي ، وهو من كارهي التدخين منذ الولادة ، وجد أن لا مناص له من تحويل أنفه ، ولكنه فعل ذلك سرّاً لكيلا يكدر ابنه .

وبعد ربع ساعة وقفت العربية بجانب سلم صغير جديد من الخشب يؤدي الى منزل مصبوغ باللون الرمادي ، مسقف بصفائح حمراء من الحديد . وكان هذا القصر هو مارينو أو نوفايا سلوبودا^(١) أو بوييلي جوتور^(٢) ، كما يسميه الفلاحون .

(١) الفتيلة الجديدة باللغة الروسية .

(٢) مزرعة الفقر باللغة الروسية .

الفصل الرابع

لم تظهر لاستقبال القادمين ثلة من الخدم ، بل فتاة ذات اثني عشر ربيعاً ، يرافقها شاب يشبه بيتر ، ولكنه يرتدي بزة خادم رمادية اللون ، ذات منطقة فضية كثيرة الوشي بارزته . وكان هذا خادم بول كيرسانوف الخاص ، فتقدم وفتح باب العربة صامتاً ، ثم حل أبازيم عربة المسافرين ، فترجل السادة الثلاثة ودخلوا الدار عبر قاعة مظلمة عارية ، وطالهم لحظة من الزمن ، وجه شابة من وراء باب ، ثم دخلوا غرفة استقبال مؤثثة على آخر طراز .

وقال نيقولاي بتروفيتش وهو ينزع قبعته ويدفع شعره الى الوراء :
« وهكذا عدنا الى البيت . إذن فلننتعش أولاً ثم نذهب الى الرقاد . »
فقال بزاروف ملاحظاً وهو يقتعد أريكة : « لاشك أن شيئاً يؤكل أمر يرحب به . »

« هكذا تماماً . سأوصي باعداد العشاء على الفور . » قال ذلك نيقولاي بتروفيتش وهو يرقص على قدميه لسبب خفي . وأضاف :
« ها قد أتى بروكوفيتش » ودخل أتماء ذلك رجل يناهز الستين ،

أيض اللثة ، خشن الملامح ، يرتدي سترة فراك بنية اللون ذات أزرار نحاسية وياقة حمراء ، وابتسم مسروراً وهو يقترب من أركادي ليصافحه ، ثم تقهقر ناحية الباب بعد أن انحنى للزائر ، وعقد يديه وراء ظهره .

فقال نيقولاي بتروفيتش : « وهكذا ترى السيد الصغير عندنا يا بروكوفيتش . لقد عاد الى الدار أخيراً . كيف تراه يبدو ؟ »

فقال المعجوز مبتسماً ايضاً : « إنه في صحة جيدة جداً . جيدة جداً . » وبعد لحظة عقد حاجبيه وقال مقترحاً : « هل أعد المائدة ؟ »

« أجل من فضلك » ثم التفت نيقولاي الى بزاروف وقال : « هل تحب الذهاب الى غرفتك قبل تناول العشاء ؟ »

« شكراً ، لا أحب ذلك ، ولكن هل لكم في حمل حقبيتي الى هناك ، ومعها هذا الوشاح ؟ » قال ذلك وهو ينزع معطفه .

« بكل تأكيد . يا بروكوفيتش خذ معطف السيد . » فتناول الخادم المعطف برفق وبكلتا يديه وغادر الغرفة على رؤوس أصابعه .

وعاد نيقولاي بتروفيتش يقول : « وأنت يا أركادي هل تريد الذهاب الى غرفتك ؟ »

وكان جواب أركادي وهو يتجه نحو الباب : « أجل . وإني لاكون شاكراً لو اغتسلت . » وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل منه رجل متوسط القامة يرتدي بذلة انكليزية غامقة اللون ، وياقة بيضاء منشأة من آخر طراز ، وزوجاً من الأحذية الجلدية الممتازة . كان هذا

هو بول يتروفيتش كيرسانوف ، ومع انه في سن الخامسة والحسين ، فقد كان شعره مقصوداً بعناية فائقة ، فكأنه فضة لامعة . وكان وجهه المصفر الحالي من الغضون ، المنتظم التقاطيع ، الواضح الملامح ، قد نحت بأزميل دقيق . كان الوجه لا يزال محتفظاً بآثار جمال فائق ، وأما عيناه اللوزيتان السوداوان فتحويان جاذبية خاصة . وكل ما يتعلق به من شكل او سلوك ، يعطي صورة للشباب في عنفوانه ، أي مظهر الشعور بالتفوق على بقية المخلوقات ، وذلك ما يختفي من أخلاق المرء عادة اذا ما تجاوز العشرين .

وأخرج من جيبه يداً نحيلة طويلة ذات أطراف وردية ، وبانت مع تلك اليد رشاقة كم القميص المكوي وبياضه الناصع وأزراره البيضوية الكبيرة . مد كل ذلك الى ابن أخيه ، وبعد أن صاحفه مرحباً على الطريقة الأوربية ، قبله ثلاثاً على الطريقة الروسية ، أي أنه مسح خده بشاربه المعطر ، وهو يقول : « إني لأهنتك . »

وقدم نيقولايتش يتروفيتش اليه بزاروف ، فاحنى بول يتروفيتش قامته المرنة مع ابتسامة خفيفة ، ولم يقدم يده هذه المرة ، بل على العكس أعادها الى جيبه .

وقال وهو يرفع كتفيه برشاقة ، ويظهر أنياباً بيضاء جميلة : « لقد كدت أظن أنك سوف لا تصل . ما الذي حدث لك ؟ »
فأجاب أركادي : « لا شيء . عدا أننا ابطأنا قليلاً ، ولهذا السبب فنحن جياع كالذئاب . لذا أرجوك يا بابا أن تستحث بروكوفيتش ،

وسأعود بعد لحظة . »

فأضاف بزاروف وهو ينهض عن الأريكة : « انتظر فسأصحبك . »
وترك الشابان الغرفة معاً .

وتساءل بول بتروفيتش : « من ضيفك هذا ؟ »

« إنه صديق لأركادي . وبناءً على تعريف أركادي ، فهو رجل
ذو ذكاء . »

« وهل سيبقى هنا ؟ »

« أجل . »

« شخص مهمل الشعر كهذا ؟ »

« بالتأكيد . »

ولم يقل بول بتروفيتش ذلك ، غير أنه أضاف أخيراً بالفرنسية وهو
ينقر المائدة بأصابعه : « أرى أن صاحبنا أركادي يحتاج الى صقل (ثم
بالروسية) وعلى كل فاني مسرور بعودته . »

وقليل ما قيل أثناء العشاء ، وخصوصاً بزاروف ، إذ ندر أن تكلم
رغم أنه أكل بشهية تامة ، وبرهن نيقولاي بتروفيتش على أنه المهذار
الوحيد ، فكان يروي حوادث كثيرة عما أسماه حياته الزراعية ، وأخباراً
عن المشاريع المقبلة ، وعن الجمعيات وقضية التوكل ، وعن الحاجة الى
استخدام الآلات وغير ذلك من المواضيع ، وأما بول بتروفيتش فلم
يتناول طعاماً قط ، بل احتسى كأساً من الخمر الأحمر ، وبقي يندرع
الغرفة جيئة وذهاباً ، وكان يخرج بعض الأصوات بين الفينة والفينة مثل

« آه » أو « أوه » أو « همم » .

وانحصر حديث أركادي بحوادث سنت بترسبورج القليلة النافهة ، رغم ان المتكلم كان يشعر شعوراً مبهماً بذلك النوع من التكلف الذي يشعر به الشاب ، وهو يروي حوادث صباه ، بعد أن يكون قد شب عن الطوق ، فكان يلوك العبارات ويلقيها دون ضرورة ، متجنباً برشاقة لفظية (باباشا) الصبانية ، وقد وصلت به الحال الى استعمال كلمة (اوتيقي)^(١) رغم انه لفظها بصعوبة . وأخيراً ، وتحت تأثير رغبته المفرطة في أن يزيل اضطرابه ، شرب من الخمرة اكثر مما يطيق ، فذاق كل انواعها ، بينما كان بروكوفيتش يعض شفته دون أن يرفع عينيه عن سيده الصغير . وانهى العشاء وتفرق الجمع .

وقال بزاروف لأركادي ، بعد أن ارتدى معطف النوم وجلس على حافة فراش صديقه : « إن عمك هذا رجل غريب ، ما أبعد أن يتصور الانسان امكان وجود مثل هذه الاناقة في الريف . إنه ليستحق جائزة على عنايته بأظافر يديه . »

فقال أركادي : « إنك لما تتعرف به . لقد كان في شبابه أسداً مغواراً ، وساقص عليك تاريخ حياته يوماً . أجل ، فكم امرأة قد أضاعت صوابها في سبيل الحظوة بحسن روائه ؟ »

فقال بزاروف ملاحظاً : « إذن فهو يعيش الآن على الذكريات كما أظن . وعلى كل حال فليس هنا من يستطيع أن يستأسره . لقد أمعنت

(١) أبي بلغة السكبار البالغين عند الروس .

النظر فيه هذه الليلة ، ولم أشاهد كل حياتي ياقة ثوب بمثل ذلك
النصوع ، وذقناً كاملة الحلاقة كذقنه ، ومع ذلك فإن أموراً كهذه
جديرة بأن تبدو مضحكة الآن . أليس كذلك ؟ »

« أجل ، قد تبدو كما تقول ، ولكنه شخص ممتاز بذاته . »
« آه بكل تأكيد . إنه شخص ملائكي ، وأبوك رجل بديع أيضاً .
فرغم كونه يروي شعراً سخيفاً ، ورغم آرائه المضحكة عن الاقتصاد
فإن قلبه طيب جداً . »

« إن له قلباً من ذهب . »

« ومع ذلك ألم تر أنه كان في حالة عصبية هذه الليلة ؟ »
فهز أركادي رأسه موافقاً ، وكأن هذا الضعف الذي أظهره أبوه
بدا غريباً حتى له .

وقال بزاروف شارحاً : « هذا غريب حقاً . آه منكم أيها الخيالون .
إنكم تجهدون أعصابكم حتى يختل جهازكم العصبي . والآن أسعدت
مساء . إن في غرفتي مفصلة انكليزية ، والباب مفتوح . إن أشياء كهذه
يجب أن تشجع ، فهي بشير التقدم . »

وخرج بزاروف ، واستسلم أركادي الى الشعور بالراحة . كم هو
لذيذ أن يغرق الانسان في النوم في داره المريحة ، وفي فراشه المألوف ،
وتحت أغطية معروفة حاكها أيدٍ حبيبة ، ربما كانت يدي مرييته
العجوز الرحيمة الطيبة التي لا تسكل ولا تمل . وعندما تذكر ايكوروفنا
تنهد ، وصلى على روحها لترضى عنها قوى السماء ، ولكنه لم يصل لنفسه .

وسرعان ما استسلما هو و بزاروف للرقاد . ولكن آخرين من أعضاء ذلك المنزل ظلوا ساهرين ، وخصوصاً نيقولاى بتروفيتش ، إذ كان مهتماً فرحاً جداً لرجوع ابنه ، ومع انه أوى الى فراشه ، فقد ترك الشمعة مولعة ، وأراح نفسه بأن وضع رأسه على يده ، وتمدد غارقاً في أفكار عميقة .

وكذلك أخوه ، فقد بقي في مكتبه الى منتصف الليل تقريباً ، جالساً بين ذراعي كرسي واسع ، أمام موقد في زاوية من الغرفة يتلظى الجمر فيه ، ولم يغير من لباسه سوى أنه أبدل حذاءه الجلدي اللامع بخفين أحمرين من الفلين ، وأمسك بيده عدداً من جريدة « كاليكناني » دون أن يقرأه ، فقد كانت عيناه تحدقان في الموقد ، مستقرتين على لهب أزرق يعلو بين الحين والحين . أما أين كانت تجول أفكاره فالله وحده يعلم . ولكنها لم تكن قد عرجت على الماضي ، ودليل ذلك ما يبدو على مخياها من تقطيب ووجوم ، وليست تلك حالة من تشغل أفكاره الذكريات الحلوة دون غيرها .

وآخرهم الفتاة نينجكا ، وكانت جالسة على أريكة في غرفة خلفية ، مرتدية سترة زرقاء ، وقد ألفت فوق شعرها الفاحم قطعة بيضاء من الشاش ، وكانت ترهف السمع وتحد البصر نحو باب مفتوح تطل منه ألبسة طفل صغير ، وتسمع أصوات تنفس ذلك الطفل النائم .

الفصل الخامس

كان بزاروف أول من استيقظ في اليوم الثاني ، فخرج من الدار .
وقال لنفسه متمتماً وهو ينظر حواليه : « آه ليس هذا المكان مما
يستهي النظر . »

لقد وجد نيقولاي بتروفيتش ، عند توزيع أراضيهِ على الفلاحين ،
أنه مضطر الى استبقاء قطعة قفراء ، تبلغ مساحتها أربعة فراسخ من
مزرعته الجديدة ، حيث بنى داره ، وألحق بها أقساماً لسكنى الخدم
ولبقية المرافق الحيوانية . وقد اختط حديقة وشاد بركة وحفر بئرين .
فتمت الأشجار في الحديقة نمواً ضعيفاً ، ولم تكتسب البركة إلا قليلاً
من الماء ، وأعطت البئران ماءً أجاجاً ، وكان كل ما في الحديقة من النبات
النامي نمواً طيباً ، بضعة أشجار من الليلاك والأكاشيا . وتحت ظلال
هذه الأشجار المجتمعمة المتكاثفة ، اعتاد سكان الدار أن يتناولوا
فطورهم ، أو يشربوا شايمهم .

وقطع بزاروف ممشي الحديقة في لحظات ، واكتسب ود خادمين
صغيرين ، التقى بهما صدقة ، وانطلق معهما لاصطياد الضفادع من

مستنقع يبعد فرسخاً عن الدار .

وسأله أحد الصبيين : « ما حاجتك الى الضفادع أيها السيد ؟ »

فأجاب بزاروف ، وكان يملك موهبة خاصة ، بها يحوز ثقة من هم أدنى منه ، رغم انه لا يخدمهم مطلقاً ، بل يعاملهم كأنداد : « إني أجعل منها أشياء مفيدة . إني أفتح بطونها ، وأرى ما تحويه أجوافها . إتنا نحن البشر ضفادع أيضاً ، غير أننا نمشي على قدمينا الخلفيتين . وهذه العملية أعرف ما تحويه أجوافنا ايضاً . »

« وما فائدة ذلك ؟ »

« فائدته هو أنه عندما تمرض ، وأريد أن أعالج مرضك ، أستطيع

أن أجتنب بعض الخطأ . »

« إذن فأنت طبيب ؟ »

« أجل . »

« إصغ الى ما يقوله السيد يا فاسيلكا . انه يقول : اتنا أنا وأنت

ضفدعان . »

« لا أحب الضفادع » هكذا أجاب فاسيلكا ، وهو صبي يناهز

السابعة ، ذو شعر أبيض كندف القطن ، وتتكون ملابسه من صدرية

ضيقة رمادية وياقة ضيقة صلبة .

فسأله بزاروف : « ولماذا لا تحبها ؟ أظنها تعضك ؟ لا . هيا الى

الماء أيها الفياسوف الصغير . »

وترك نيقولاي بتروفيتش فراشه ايضاً ، ولما ذهب لرؤية أركادي ،

وجده قد أكمل ارتداء ملائسه ، وعندها يمم الأب والابن شطر الشرفة الى المظلة ، وسط أغصان الليلاك ، ووجدوا ابريق الشاي يفور فوق المنضدة الملاصقة للدرابزين . وظهرت في الشرفة ايضاً تلك الفتاة التي استقبلت القادمين مساء البارحة ، وأعلنت بصوتها الحاد : « ان ثيودوسيا نيقولايفنا ليست على ما يرام هذا الصباح ، وهي لا تستطيع أن تشارككم في الفطور ، ولذا فقد طلبت مني أن أسألكم ، هل تخدمون أنفسكم او ترسل لكم دنياشا ؟ »

فأجاب نيقولاي بتروفيتش بشيء من العجلة : « سأدير الشاي بنفسي ، فهل تريده بالليمون يا أركادي أم بالقشطة ؟ »

فأجاب : « بالقشطة » ، وبعد أن وجم قليلاً قال : « يا باشا . »

فنظر نيقولاي بتروفيتش اليه مرتبكاً وقال : « نعم . »

فغض أركادي من بصره وقال مفتحاً : « سامحني اذا ظهر لك سؤال في غير محله . ولكن صراحتك البارحة قد شجعتني على أن أكون صريحاً ايضاً ، سوف لا تسكدر مني أليس كذلك ؟ »

« لا . استمر من فضلك . »

« إذن فأنا أجراً أن أسألك هل وجودي هنا هو الذي جعلها

لا تشترك معنا في الفطور ؟ أعني ثينجكا . »

فأدار نيقولاي بتروفيتش وجهه قليلاً .

وتساءل أركادي : « ولكن لماذا هذا الحجل من علاقتك بها ؟

انك تعرف آرائي . » وكان يطلق الكلام في سرور غير قليل . « وثانياً ،

لا يمكنك أن تشك مطلقاً في عدم رغبتى بالتدخل في شؤونك الخاصة
ورغباتك قيد شعرة . لا . اننى على يقين بأنك تحسن الاختيار . فاذا
كنت قد طلبت من هذه الفتاة أن تحتضى تحت سقفك ، فهذا يعني أنها
جديرة بذلك كل الجدارة ، وعلاوة على هذا فليس من حق الابن أن
يحكم على أبيه ، هذا من جهتي ، وخصوصاً أنا الذي له أب مثلك ، أب
لم يحدد أبداً حرية ابنه في تصرفاته الخاصة . »

ارتجف صوت أركادي عند أول الحديث ، لا لأنه شعر بأنه يقوم
بدور شريف فحسب ، بل لأنه أدرك أيضاً أنه يلقي ما يشبه المحاضرة على
أبيه . ونتيجة لما يتطلب من متكلم ينشد التأثير على كائن مثله ، قوي
صوت أركادي أخيراً وضم تعابير شديدة بعض الشدة .

وأجاب نيقولاى بتروفتش بصوت خافت : « شكراً لك يا أركادي »
ومضت أنامله تجول في جبهته كالعادة « ولم يخطئ ، حدسك فلو أن هذه
الفتاة لا تستأهل العيش معي لما دعوتها الى ذلك . وبكلمة أخرى ،
لم آوها عندي لرغبة في العبث الباطل ، ولم يخف عليك ذلك كما قلت ،
وما كنت لأتكلم في هذا الموضوع لولا رغبتى بأن تعلم بأنه من المحتمل
أن الفتاة قد شعرت ببعض الارتباك ، فلم تظهر لاستقبالك عند
قدومك . »

فصاح أركادي بלהجة تدل على شرف النفس مرة أخرى : « إذن
دعني أذهب انا للقائها » ووثب عن كرسيه ومضى يقول : « أجل
فلاذهب بنفسى لأشرح لها لماذا يجب عليها ألا تحتجبني . »

ونهض نيقولاى بتروفيتش وشرع يقول : « اركادى أرجو أن
تسمح لي . . إذ أنى لم أعلن لك حتى الآن . . »

ولكن اركادى مرق من الشرفة دون أن يصغي اليه ، وصدق
نيقولاى بتروفيتش وراءه مدة دقيقة او دقيقتين ، ثم غلبه الارتباك
فعاد الى كرسيه وقلبه يخفق بسرعة . فهل تراه حسب أن علاقته بابنه
ستسوء عقب ذلك ؟ أكان يتصور أن ابنه لو امتنع عن التدخل في هذا
الموضوع لكان من المحتمل أن يزداد احتراماً له ؟ او أنه كان يلوم
نفسه على ما أبدى من ضعف ؟ من يحزر مجرى أفكاره ؟ وربما كانت
أفكاره تحوي مزيجاً مما ذكرنا مع شيء من الخوف . ومهما كان
الامر فان تلك المخاوف لم تكن عميقة الجذور ، ودليل ذلك عدم تغير
لون وجهه ، رغم سرعة خفقان فؤاده .

وسرعان ما سمعت أصوات خطى تقترب ، وظهر اركادى في الشرفة
مرة أخرى .

وصاح بلهجة انتصار وبصوت رحيم مرح : « لقد تعرفت بها . ان
ثيودوسيا نيقولايفنا ليست على ما يرام فعلاً ، ولكنها ستأتى حتماً بعد
قليل ، ولكن لماذا لم تقل بأن لي أخاً صغيراً ؟ إذن لكنت ذهبت لأقبله
قبلة المساء الباردة ، ولو أنى تداركت ذلك الآن . »

وحاول نيقولاى بتروفيتش أن يقول شيئاً ، او يسطر ايضاحاً ،
ولكن اركادى قطع عليه ذلك بأن أكب على عنقه .

وقال بول بتروفيتش من وراءهما : « ما هذا ؟ أعناق من جديد ؟ »

ولم يبد على الأب والابن في الحقيقة كدر لظهور بول المفاجي ،
إذ مهما كانت العواطف المتبادلة بينهما رقيقة حساسة ، فإن المرء مبال ،
في تلك الحالات ، الى ما يخلصه منها .

وقال نيقولاى بتروفيتش بسرور : « وما الذي أثار استغرابك ؟
تذكر بأنني لم أر كاشا عدة قرون . وعلى كل فاني لم أره منذ البارحة . »
فقال بول بتروفيتش : « آه . إني غير مستغرب ، بل على العكس
إني لا أمانع في عناقه شخصياً . »

ولما اقترب أركادي من عمه شعر بلمسة الشارب المعطر مرة أخرى .
وجلس بول بتروفيتش الى المائدة ، وكان يرتدي بذلة صباح انكليزية
أنيقة جيدة التفصيل ، وقد اتى فوق رأسه طربوشاً ، القاء مهمللاً جعل
زر الطربوش ينتشر بدون نظام بشكل يرمنز الى الانطلاق في حياة
الريف . وكانت ياقة قميصه صلبة ايضاً ، ولكنها مخططة لا بيضاء ، مما
يناسب ذلك الهندام الصحي ، واستندت الى الياقة القوية الصارمة ذقن
حليقة نظيفة .

وقال بول : « ايه يا أركادي . أين صديقك الجديد ؟ »
« في محل ما في الخارج . إذ نادراً ما يتخلى عن رياضته المفضلة في
الصباح الباكر ، ولكن المهم الآن أنهم به كثيراً ، فهو يكره كل انواع
القيود والمجاملات . »

« هذا ما لاحظته » قال ذلك بول بتروفيتش وهو يضع الزبدة على
قطعة من الخبز بتو ، دته المعروفة « ولكن هل سيقم هنا مدة طويلة ؟ »

في الفراغ المطلق ، في خلاء لا هواء فيه ؟ دق الجرس يا أخي نيقولاي
من فضلك ، فقد حان الوقت لأن أتناول الكوكاؤ . »

فلبى نيقولاي بتروفيتش الطلب ، وصاح منادياً دنياشا ، ولكن
أنت ثينجكا بدلاً منها ، شابة في سن الثالثة والعشرين ، شاحبة اللون
رقيقة المظهر ، عيناها سوداوان وشعرها فاحم ، وشفتاها حمراوان
ملمومتان كشفتني طفل ، ويدها ناعمتان . كانت ترتدي لباساً نظيفاً من
القطن ، وألقت على كتفها المستديرين منديلاً أزرق جديداً ، إلقاء
سهلاً ، وكانت تحمل بيدها كوباً كبيراً من الكوكاؤ ، وضعت به بخجل
أمام بول بتروفيتش ، وتدفق تيار من الدم الوردي الدافئ ، فصبغ بشرة
وجها اللطيف ، وظلت واقفة حذاء المائدة وعيناها مسبلتان ،
وأطراف أناملها تلامس المنضدة . ومع أنها كانت متضايقة من قدومها
كما يبدو ، فقد بان عليها مظهر من يعتقد أن من حقه أن يكون هناك .
فاكفهر وجه بول بتروفيتش ، واضطرب نيقولاي بتروفيتش .

وقال الثاني : « صباح الخير يا ثينجكا . »

فأجابت بصوت ناعس رائق : « صباح الخير . »

ثم نظرت متسائلة الى أركادي فابتسم لها ابتسامة ودية . وأخيراً
عادت بخطى هادئة ، دون أن تبالي بشيء ، والصفة الأخيرة من خواصها .
وساد الشرفة صمت ، وظل بول بتروفيتش يحسو الكوكاؤ لحظة ،
ثم رفع رأسه فجأة وتمتم : « ان السيد النيهيلستي على وشك أن يشرفنا
بوجوده . »

حقاً لقد بان للناسظر بزاروف يخطو فوق أخص الزهور ، وعلى
سترته السكتانية طبقة كثيفة من الوحل ، وفوق قبعته المستديرة العتيقة
وسق من نبات المستنقع ، وفي يده حقيبة صغيرة في داخلها شيء يتحرك
حركة من به حياة . ولما اقترب من الشرفة بخطاه الواسعة أوما برأسه
للجماعة وقال :

« صباح الخير ياسادة . عذراً عن تأخري . سأعود حالاً ، فصيدي
لا بد أن يحفظ أولاً . »

فسأله بول بتروفيتش : « وما صيدك هذا ؟ أهو علق ؟ »

« لا ، بل ضفادع . »

« أتناكلها أم تربيها ؟ »

فأجاب بزاروف دون اكتراث وهو يلج الدار : « اصطادها لغرض
التجربة . »

فقال بول بتروفيتش شارحاً : « أي أنه يشرحها . وبكلمة أخرى
إنه يؤمن بالصفدع اكثر مما يؤمن بالمبادي . »

فرمى أركادي عمه بنظرة تأنيب . وحقى نيقولاي بتروفيتش ، فقد
هو كتفيه استنكاراً . ف شعر بول بتروفيتش بأنه قد اشتط ، فأسرع
بقلب الموضوع الى المقاطعة والوكيل الجديد .

الفصل السادس

عاد بزاروف ، وجلس الى المائدة ، وانكب يشرب الشاي . وظل
الأخوان ينظران اليه صامتين ، ونظر أركادي الى عمه فأبىه ، ثم
العكس . وأخيراً سأله نيقولاي بتروفيتش : « هل سرت بعيداً هذا
الصباح ؟ »

« الى مستنقع بجانب أجمة من شجر الحور ، وبهذه المناسبة ، لقد
أثرت يا أركادي أربعاً من دجاج الأرض من مكانها ، فلكمك ترغيب في
اصطيادها ؟ »

« إذن فأنت نفسك لست من هواة الصيد ؟ »

« لا . »

« هذا يعني أنك تفضل العلوم الطبيعية على أي شيء آخر . » وكان
بول بتروفيتش هو المتكلم .

« أجل إنني أفضل العلوم الطبيعية ، والحقيقة علوم التاريخ الطبيعي
بصورة خاصة ، أفضلها على كل شيء . »

« حسناً . لقد نبئت بأن الجرمانيين قد خطوا خطوات عظيمة في
هذا المضمار . » وقد استعمل بول بتروفيتش كلمة جرمانيين بدلاً من

الألمان بغية السخرية ، دون أن ينتبه أحدهم الى ذلك .

فأجاب بزاروف دون اكتراث : « حقاً ان الألمان هم أساتذتنا في هذا المضمار . »

« انك تقدر الألمان كثيراً . » وحملت لهجة بول بتروفيتش طابع الجد والأدب المتكلف . فقد بدأ يشعر بالضيق من الرجل ، فان طبيعته الارستقراطية لم تهظم عدم احتفال بزاروف بالرسميات . وكان ابن الدكتور هذا ، فضلاً عن تجاهله السلطان والسيطرة ، يجيب اجابات سليطة ، ويحمل حديثه عبارات خشنة تكاد تكون وقحة .

فرد بزاروف : « ان العلماء الاعلام في ذلك الجزء من الارض ذوو نشاط . »

« هكذا تماماً . ورأيك في العلماء الاعلام الروس ؟ ربما كان جيداً ، ولكنه أقل اطراءً ؟ »

« إنه لكذلك اذا سمحت . »

فقال بول بتروفيتش ملاحظاً ، وهو ينصب قامته ويدفع برأسه الى الخلف : « ان هذا يدل على تواضع جدير بالمدح من ناحيتك . ولكن كيف حدث أن أخبرنا أركادي بأنك لا تعترف بأية سيطرة مهما كان نوعها ؟ ألا تتق بسلطان ما ؟ »

« ولماذا أمتق بشيء ؟ أئمة في الدنيا ما يستحق الثقة ؟ من المؤكد أنني أقبل الحقائق اذا عرضت لي وهذا كل ما هنالك . »

« آه . إذا فالألمان قد حصروا أنفسهم ضمن نطاق الحقائق ؟ »

واكتسى وجه بول بتروفيتش تلك اللحظة بصرامة عسكرية ، كأنه قد
جرّ فجأة الى أعلى مركز من مراكز الجيش العليا .

فأجاب بزاروف بتناؤب عابر : « لا . ليس كل الألمان » وكان
واضحاً أنه غير راغب في استمرار ذلك الجدل . ونظر بول بتروفيتش
الى أركادي كأنه يقول له « سلم جدلاً بأن صديقك هذا ذو أطوار
غريبة . »

وعاد بول يقول بتكلف وهو يتباهى بنفسه : « أما من جهتي ، وأنا
إنسان معرض للخطأ ، فلست أحب الألمان ، ولا أدخل طبعاً في هذا
النطاق ، الألمان الروس الذين هم كما نعلم طيور رحل . إن ألمان ألمانيا
هم أولئك الذين لا أحتملهم . لقد أنجبوا مرة رجالاً كشيلر وذلك ..
ما اسمه ؟ كوتيه ؟ .. ولكلا المؤلفين مقام رفيع عند أخي ، ولكن
الامة الألمانية الآن تتألف من كيميائيين وماديين فقط . »

فقال بزاروف ملاحظاً : « إن كيميائياً بارعاً يشمن بعشرين من
شعرائك . »

فقال بول بتروفيتش ، وهو يرفع جفنيه متناقلاً كمن أوشك أن
ينام : « لقد أنبتت بأنك لا تعترف بقيمة الفن ، بل تؤمن بالعلم فقط . »
« لقد أنبتك بأنني لا أؤمن بشيء ، على الاطلاق . وما هو العلم
بالاجمال ؟ أعني العلم بصورة عامة ؟ إن العلم الخاص يبقى يبقا الصناعة
والاختصاص ، ولكن العلم كشيء كلي ليس شيئاً مذكوراً . »

« جيد جداً ، ولكنك تتخذ نفس الموقف السلبي حيال الفروض

المتعارف عليها لاستمرار البشر في الحياة وصيانة مصالحهم .
فاعترض بزاروف قائلاً : « ما هذا ؟ أهو امتحان في العقائد ؟ »
فشحب وجه بول بتروفيتش ، ورأى نيقولاى بتروفيتش أن الوضع
يتطلب منه أن يتدخل في الجدل .

فقال : « لا . سنتناقش فيما بعد . وعندئذٍ ستستقر آراؤنا ، بعد
فهم آرائك ، يا الحفي الطيب . إنني شخصياً مسرور باهتمامك بالعلوم
الطبيعية ، فقد علمت مثلاً أن لبيك^(١) قد اكتشف أشياء مذهشة في
موضوع تحسين التربة . إذن ففي استطاعتك أن تساعدني في زراعتي
بأن تقدم لي بعض الإرشادات الثمينة . »

فأجاب بزاروف : « إنني في خدمتك دائماً يا نيقولاى بتروفيتش .
ولكن ما علاقة لبيك بنا ؟ علينا أن نتعلم الحروف الهجائية قبل أن
نحاول قراءة الكتب . إننا لما نصل الى حرف الألف . »

فقال نيقولاى بتروفيتش لنفسه : « انك نهيليسي . هذا واضح
جداً » ثم رفع صوته « ومع ذلك فدعني أطلب مساعدتك بين الفينة
والفينة . يا أخي بول أرى أن الوقت قد حان لأن نتباحث في أمور
الوكيل الجديد . »

فقام بول بتروفيتش عن كرسيه ، وهو يقول دون أن ينظر الى
أحد : « نعم . من المزعج حقاً أن يعيش الانسان في الأرياف خمس

(١) جوستوس فريهر فون لبيك (١٨٠٣ - ١٨٧٣) الكيميائي
الألماني الكبير ، وهو الذي أسس الكيمياء الزراعية على الأخص .

سنين ، ويبقى في معزل عن الثقافة العالية ، وحتى لو كان الانسان مجنوناً
فانه سيدرك ، بأن المرء ، مهما حاول أن يحتفظ بما تعلمه ، فان وحيماً
سينزل عليه لينبئه بأن كل ما تعلمه سابقاً سخيف ، وأن من كان يظنهم
رجال الحجي قد أصبحوا لا شيء ، وأنه قد تخلف كثيراً وراء الزمن .
ولكن ماذا يستطيع المرء أن يفعل في حالة كهذه ؟ من الواضح أنكم
أتم أبناء الجيل الطالع تعرفون أكثر منا . »

وبعد أن فرغ من كلامه استدار بطيئاً على عقبه وابتعد بصوته
الشاكي ، وحذا نيقولايتش بتروفيتش حذوه .

ولما سد الاخوان باب الغرفة عليهما سأل بزاروف : « أقيم بول
بتروفيتش دائماً هنا ؟ »

« نعم . ولكن إصغ إلي يا أجنبي . لقد استعملت اسلوباً حاداً مع
عمي فأساءت اليه . »

« ماذا ؟ وهل علي أن أداهن هذا الأرستقراطي العتيق رغم مخبره
الدال على التدليس والخضوع للتقاليد ؟ وما دام كذلك فقد كان من
الأفضل له أن يبقى في مركزه في سنت بترسبورج . وعلى كل فلنتركه
وشأنه . هل تعلم بأني قد عثرت على نموذج بديع لحنافس الماء المسماة
(دايا لسكوس ماركيناتوس) أتعرفها ؟ سأريكها . »

فقال أركادي ملاحظاً : « ألم أعدك بأني سأروي لك تاريخه ؟ »

« تاريخ من ؟ خنفسة الماء ؟ »

« لا ، بل تاريخ عمي . وسرى بعد ذلك بأنه خلاف ما ظننت . انه

يستحق الشفقة لا الهزؤ . »

« لا أجادل في ذلك ، ولكن ما الذي يجعلك تخلص في الدفاع عنه

الى هذا الحد ؟ »

« على الانسان أن يكون منصفاً دائماً . »

« لست أرى علاقة لذلك بالموضوع . »

« إذن فاصنع إلي . »

وعندها روى أركادي لصديقه القصة التي تجدها في الفصل التالي .

الفصل السابع

تلقى بول بتروفيتش كيرسانوف ، كأخيه ، تعليمه الابتدائي في البيت ، ثم دخل الكلية العسكرية الخاصة بالحاشية الأشراف . وقد امتاز منذ صباه بالوسامة علاوة على الثقة بالنفس . وكان ميالاً الى الهزل ، ذا أسلوب ساخر مفرح ، لا يخيب قط في ادخال السرور على نفوس سامعيه . ولهذا فلم يكذب يأخذ شهادته ويصبح ضابطاً حتى صال في المجتمع وجال ، مجارياً أنداده في اللهو والمغامرات الغرامية والتبذير . وقد تلاءمت هذه الصفات مع شخصيته . فترامت النساء عليه بمجنون . أما الرجال فسموه الحظ في العلانية وكرهوه في السر . وفي ذلك الوقت استأجر شقة مع أخيه الذي كان يحمل له ودأ عميقاً ، رغم اختلافه عنه . وهذا الاختلاف بين الأخوين يتناول أموراً كثيرة ، فبينما كان نيقولا ي أعرج ذا وجه صغير رحيم سوداوي السحنة ، ميالاً الى قراءة كل ما يقع في يده من الكتب ، يكره الحركة وتزعجه المراسيم الاجتماعية ، كان بول بتروفيتش لا يقضي ليلة واحدة في البيت ، مشهوراً برشاقته وقوة بدنه (فهو الذي أهاج الحماس ، بين الشبيبة النضرة المعاصرة ، للألعاب الرياضية) ولم يقرأ أكثر من خمس أو ست من الروايات الفرنسية ،

وقد وصل الى رتبة كابتن عندما أدرك السنة الثانية والعشرين من عمره . وقد ظهر أن المستقبل أمامه لامع بسام ، ولكن أحواله كلها انقلبت فجأة ، كما سأقص عليك فيما يلي :

كانت من شخصيات المجتمع في سنت بترسبورج آنذاك ، أميرة اعتادت أن تظهر في ذلك المجتمع وتختفي ، ولسمها الأميرة (ل) ما زالت ذكرها حية حتى الآن . ومع انها تزوجت رجلاً بارز الشخصية رفيع المقام ، ذا مركز مهم في المجتمع ، رغم انه سخييف بعض السخف ، فان عقمها جعلها تقضي وقتها في تدير رحلات مفاجئة الى الخارج ، والعودة بصورة مفاجئة ايضاً . ولا أطيل عليك ، لقد كانت هذه الأميرة تحيا حياة غريبة ، فقد كرس وقتها لسكل نوع مسر من اللهو ، فكانت ترقص في الحفلات حتى تسكل ، وتضحك او تمزح مع الشبان الذين تستقبلهم في غرفة استقبلها المنارة بأضواء مربية معتمة . ومن النريب جداً أنها كانت بعد أن تقضي في اللهو أغلب الليل ، تنهافت على نفسها ، فنبكي وتصلي وتضرب كفيها أسفاً ، ولا تستقر على حال ، بل تذرغ الغرفة حتى انبثاق الفجر . او تخلو بنفسها فتقرأ المزامير وهي مضطربة شاحبة باردة . ولكن سرعان ما تعود عند انبثاق نور اليوم الثاني فترجع امرأة دنيا ، فسوق مركبتها للترهة بنفسها ، وتضحك وتثرثر ، وتترامى على كل ما يشم منه رائحة العبث واللهو . وكان سحرها غير اعتيادي ايضاً ، رغم ان أحداً لم يصفها بالجمال (فالشيء الجميل في وجهها هو عيناها ، وحتى هاتان العينان الرماديتان الصغيرتان ، لم تكونا

هما بالذات سرّ جاذبيتهما ، بل النظرات التي ترسلها) وقد كان شعرها كالذهب لوناً ووزناً ، يسترسل حتى ركبتيها .

وكانت نظراتها الساحرة لا تحتفل بشيء ، حولها ، فتراها تغيب في سهوم عميق ، كأنها تفكر تفكيراً عميقاً ، أو أنها مصابة بالنورستانيا ، نظرات تظل غامضة حتى عندما يدور لسانها في فمها يقذف سخفاً وهذياناً ، فانهما تبرقان بشكل غير اعتيادي لا يمكن التكهن به . وأخيراً فقد كانت أنيقة في ملابسها ، راقية في ذوقها .

التقى بول بروفيتش بهذه المرأة فرقص معها المازوركا . ومع أنها لم تتبادل معه كلمة جدية واحدة ، خلال الرقص ، فقد سقط في شرك غرامها على الفور ، ولما كان رجلاً قد اعتاد النصر ، فقد حازه هذه المرة أيضاً . ومع ذلك فمن الغريب ان سهولة هذا الانتصار لم تبرد حرارة غرامه ، بل استهوته تدريجياً حتى أصبح شديد الكلف بها . فقد بقيت هذه المرأة لغزاً غامضاً في ناحية ما ، وحتى بعد أن استسلمت له استسلاماً مطلقاً . غموض دائمٍ محير ، كأنه عقدة أبدية قوية ، تحجب أسراراً ليس في استطاعة بشر هنك أستارها ، فالله وحده يعلم أسرار تلك النفس . وأغلب الظن أنها كانت خاضعة لقوى مجهولة ، حتى عنها نفسها ، وهذه القوى تعبت بها ، ولا يستطيع عقابها أن يتغلب على ما تسبب لها من أوهام .

وكان سلوكها في كل حوادثها انحرافية مجموعة متناقضات ، وحتى تلك الرسائل القليلة التي كتبها لبول بروفيتش - تلك التي لا شك أنها تثير

غيرة الزوج لو رآها - كانت وكأنها مرسلّة الى رجل غريب عنها تماماً . وحل الوقت الذي انقلب فيه غرامها الى نوبات من اليأس ، فأمسكت عن الابتسام والمزاح مع الرجل الذي اختارته ، وصارت تنظر اليه وتصغي الى حديثه بنفور ، وقد كانت في الحقيقة ثمة فترات - وعلى الغالب لحظات مفاجئة - ينقلب فيها ذلك النفور الى رعب يثلج الجسم ، فيكتسي وجهها قناع الأموات ، فتحبس نفسها في مخدعها ، حيث تستمع خادمتها ، التي تلتصق أذنيها بثقب القفل ، أصوات انتحاب يأس مكتوم . وكثيراً ما يجد بول بتروفيتش ، بعد أن يعود الى داره ، أثر حديث رقيق معها ، أن لا شيء ، يعمر صدره غير المرارة اللاذعة بعد فشل نهائي لا مردّ له ، فيسائل نفسه في حيرة : « ما الذي أريده منها أكثر مما حصلت ؟ » ومع ذلك فإن قلبه يذوب ويتفطر .

وحدث مرة أن أهداها خاتماً قد نحت فصه على شكل أبي الهول فسألته قائلة : « ماذا ؟ أتهديني أبا الهول ؟ » فأجاب : « أجل . انك أنت أبو الهول . »

ففساءلت وهي تفتح عينها الغامضتين : « انك تتملقني دون شك ؟ » ولاحظت على وجهها ابتسامة . أما عيناها فقد وصلتا الى منتهى الغموض . لقد أصبح في حالة غير طبيعية حتى يوم كانت الأميرة تحبه ، أما حين يرد ذلك الحب الذي لم يدم طويلاً ، فقد أوشك أن يفقد عقله ، فأتعبها بالملاحقة تحت تأثير الغيرة حتى الجأها ، بعد أن ضجرت من عرض حبه المردود ، وملاحقته المضنية ، الى القيام بسفرة الى الخارج ، ولم يصنع

بول بروفيتش الى رجا، أصدقائه ولا الى نصيحة رؤسائه ، رغم كل ما حدث ، بل قدم استقالته من الخدمة وتعقب آثارها . وبقي يطاردها دون جدوى أربع سنوات ، ومع أنه كان يشعر بالحجل من سلوكه وانحطاط قيمته ، فان كل ذلك لم يجده نفعاً ، إذ أن خياله الخلاب الساحر الذي خيب آماله ، ذلك الحيال الجذاب الذي ظل أبداً يحوم حول ناظريه ، قد تغلغل عميقاً في شغاف قلبه . وأخيراً التقى الاثنان . وكان ذلك في بادن .

ورغم ما ظهر عليها من أنها ما أحبته قبلاً كما أحبته الآن ، فلم ينقض شهر حتى حل الشقاق مرة أخرى ، وكان نهائياً هذه المرة . فقد انطلقا اللهب تماماً بعد أن خفق خفقته الأخيرة ، حقاً لقد علم مقدماً بأن الفراق أمر محتم ، ولكنه قنع بصداقتها ، وكأن الصداقة شيء ممكن مع امرأة كهذه . لقد تركت بادن دون ضجة ، ومن ثم تجنبت به باصرار وحزم ، فحيت آماله نهائياً ، فعاد الى روسيا ، وحاول أن يرجع الى سابق عهده ، ولكنه لم يستعد حيويته السابقة بكل ما حاول من وسائل ، فصار يتجول هنا وهناك كأنه قد تسمم . لقد أكثر من النزء ، وتعاطى كل ما يبيحه له مجتمعه . أجل انه ليتباهى بانتصارين من انتصاراته في ميادين الغرام ، ولكن لا فان ما ينشده لا يمكن إدراكه لا بنفسه ولا بواسطة الآخرين ، بعد أن فقد قوة المبادأة وبدأ الشيب يدب في رأسه . وصار همه الوحيد أن يتردد على ناديه فيغرق نفسه بالأخذ والرد ، ويلهو بجدل العزاب الذي يسره ، ومثل هذا اللهو يبشر بأسوأ النتائج كما

لا يخفى . ولم تدفعه تلك الحالة الى التفكير بالزواج للتخلص مما هو فيه .
هكذا انقضت عشر سنوات في مطاردة فاشلة و حياة لا لون لها .
ورغم ذلك فقد وجد بول ان الزمن يمر سراعاً ، بل وبسرعة عجيبة ،
إذ أنه يسير في روسيا بمثل هذه السرعة اكثر مما يسير في بقية العالم ،
عدا السجن ، فانه هناك يسير أسرع ، حتى كان يوماً في ناديه كعادته
يتعشى ، فسمع أن الأميرة قد ماتت ، وأنها ماتت في باريس وهي في حالة
من أشرف على الجنون . فنهض عن المائدة ومضى يندرع غرف النادي ،
وفور وصوله الى البيت سلمت اليه رزمة تحوي الخاتم الذي أهدها
للأميرة . ووجد على أبي الهول علامة الصليب ، ومع الخاتم رسالة تقول
فيها بأن الصليب قد حل اللغز .

حدث كل ذلك في أوائل سنة ٤٨ حينما فقد نيقولاى بتروفيتش
زوجته ، ومن غرائب الصدف أن زواج نيقولاى بتروفيتش يتفق مع
أوائل أيام تعارف بول بتروفيتش بالأميرة ، فلم ير بول أخاه منذ أن
استقر في الريف . حقاً لقد زار بول أخاه عند رجوعه من سفرته ،
راغباً أن يبقى معه شهرين ، مؤدياً واجب التهنئة على سعادة أخيه ،
ولكن الزيارة انتهت بعد أسبوع واحد فالفرق بين الأخوين كان
عظيماً جداً ، وحتى الآن رغم ان الاختلاف قد زال قليلاً ، إذ أن
نيقولاى بتروفيتش قد فقد زوجته ، وبول بتروفيتش ذكرياته ،
وشرع يحاول النسيان بصورة جدية بعد موت الأميرة ، حتى الآن
ما زال بعض الاختلاف بينهما ، فبينما يستطيع نيقولاى بتروفيتش أن



ينظر الى الوراء الى حياة سعيدة وأنشودة ترفعه الى مصاف الرجال ،
فان بول بتروفيتش ما برح أعزب ، وعلاوة على ذلك فهو يدخل الدور
المظلم الكدر من أدوار الحياة ، حيث يحل الأسف محل الأمل ، والشباب
قد طار ، والشيخوخة تتقدم بسرعة . إن هذا الحين مؤلم حقاً لأمثال
بول بتروفيتش ، الذي فقد ماضيه ففقد بذلك كل حياته .

وهكذا قال نيقولاى لأخيه : « سوف لا أتجاسر فأدعوك الى
الاقامة في مارينو . فحتى في حياة زوجتي كنت ترى المكان مملاً . أما
الآن فانه حري بأن يقتلك . »

فأجاب بول بتروفيتش : « لقد كنت آنذاك شاباً مجنوناً ، ممتلئاً
كبرياء ، ومع اني لم أزد عقلًا الآن ، فأنا أكثر هدوءاً على الأقل ،
فاذا أردت أن أكون معك ، فاني سأتي اليك وأجعل دارك مقري
الدائم . »

واحتضنه نيقولاى بتروفيتش بدلاً من أن يجيبه ، وبقي في القرية
ولم يتركها من ذلك الحين الذي قرّر قراره فيه على أن يسكن الريف ،
وكان ذلك بعد مرور سنة ونصف على تلك المحادثة ، وبقي فيها حتى
خلال الأشتية الثلاثة التي قضاها نيقولاى في سنت بترسبورج مع ابنه .
وصار يقرأ الكتب ، وخصوصاً الانكليزية منها ، ونظم حياته على
الطريقة الانكليزية بصورة عامة ، ونذر أن دعا أحداً من جيرانه الى
حفلة او زيارة منزلية . واقتصرت سفراته القصيرة ، في الأغلب ، على
الاشتراك في الاجتماعات الانتخابية ، وقد أخذ على نفسه أن يمسك لسانه

خلالها عن الكلام ، ولكنه كان يسلي نفسه بعض الأحيان باغضاب
رجال الجيل القديم من ملاكي الأرض ، وتخويفهم بأرائه الحرة
المهاجمة لمصالحهم ، وتجنب بول ممثلي الجيل الحديث كبرياءاً ، ومع ذلك
فقد احترمه أعضاء كلا الحزبين ، رغم تسميته بالمتكبر ، وقد احترموه
لعاداته الأرستقراطية المؤدبة ، ولما سمعوه عن انتصاراته الماضية ، ولأنه
كان يلبس بمنتهى الأناقة ، ولأنه كان ينزل في أحسن الشقق في أحسن
الفنادق ، ولأنه يتعشى عشاءً فاخراً كل يوم ، ولأنه قد تعشى يوماً مع
دوق ولنكدن في بلاط لويس فليب ، ولأنه يصطحب معه دائماً كل
لوازمه الفضية وحمامه السفري أتماً تنقلاته ، ولأنه يتعطر بعطور
نادرة ، ولأنه لاعب ورق من الدرجة الأولى ، وله شهرة في ذلك ،
ولذمته التي لا غبار عليها . وكان النساء أيضاً ينظرن إليه نظرتهم إلى
رجل يملك سحراً جنونياً ، ولكنه كان قد أمسك عن التعامل معهم
من زمن طويل .

واستمر أركادي وهو يلف في الحديث : « أنت ترى إذاً يا أيفجني
أنك لم تحكم على عمي بانصاف ، وفوق ذلك فقد نسيت أن أخبرك بأنه
قد أنقذ أبي عدة مرات من الإفلاس بتقديم كل ما يملك من النقود له ،
مع أنهما لا يشتركان في المزرعة ، وهو على استعداد لمعونة كل الناس ،
وهو يقف في صف الفلاحين باصرار ، رغم أنه يزور عنهم بوجهه عند
الكلام ، ويتعطر قبل أن يواجههم بالكلولونيا . »

فلاحظ بزاروف بقوله : « كلنا يعرف علام تدل مثل هذه الأعصاب . »

« ربما ولكن قلبه في الموقع الصحيح ، وليس هو بمنجنون بأية حالة ، أما من جهتي فقد أفادني بنصائح كثيرة نافعة ، وخصوصاً في موضوع المرأة . »

« آه . ها . الكلب المزجور يخاف الإشارة . كلنا نعلم ذلك . »
واستمر أركادي يقول : « وبالاختصار فهو إنسان يائس بئس ويجب ألا يحتقر . »

فتساءل بزاروف : « من احتقره ؟ كل ما فهمت منك أنه رجل أوقف حياته على حب النساء ، ولما أضاع الهدف إنقلب فظاً ، وترك نفسه ينحدر الى أن أصبح عديم النفع . أقول ان رجلاً كهذا ليس برجل ، بل هو حيوان ذكر ليس إلا . إنه شقي كما تقول ، وأنت تعرفه أكثر مني دون شك ، ولكن من الواضح أنه لم يحاول أن يتخلص من السخف . وبكلمة أخرى إني لا أشك بأنه يتصور نفسه رجل عمل حقيقي ، لأنه يقرأ أحياناً جريدة كالسكناني ، ولأنه أنقذ فلاحاً من المقرعة باعفائه من دين . »

فلاحظ أركادي بقوله : « ولكن خذ بنظر الاعتبار ثقافته الأرستقراطية ، والعصر الذي عاش فيه . »

فاعترض بزاروف : « لماذا يعلو الانسان بنفسه ؟ على الانسان أن يتثقف بنفسه كما فعلت أنا ، وأما بخصوص العصر ، فلماذا أعتمد أنا او أي إنسان آخر على العصر ؟ بينما يجب علينا أن نجعل العصر يعتمد علينا ؟ لا لا يا صديقي ان الحساسية والطيش وأمثالهما هي الأغلاط

بالذات . خبرني مم تتكون العلاقة التي تسمى سرية بين الرجل والمرأة ؟
إننا نحن - الفزيولوجيين - نعلم مم تتكون . خذ تركيب العين فأني شيء
فيها يسبب تلك النظرات الغامضة التي تكلمت عنها . إن هذا كله شيء
خيالي وهو سخييف مصطنع ، فلنذهب لندرس الحنفساء . »
وذهب الصديقان الى غرفة بزاروف ، وكان الأخير قد نجح تمام
النجاح في تكوين مختبر صغير امتزجت فيه رائحة العقاقير برائحة الطباقي
الرخيص .

الفصل الثامن

ترك بول بتروفيتش عادة حضور المداولة بين أخيه وبين الوكيل ، وكان هذا الأخير نحيفاً طويلاً القامة ذا عيينين حركتين ، يجيب على كل ما يطلب منه سيده بعبارة « حسناً جداً إذا كان هذا يرضيك . » يقول ذلك بصوت مدهن عذب . لقد نظمت إدارة المزرعة على أساس جديد ، وكانت هذه الإدارة تفرقع كما تفرقع عربة صديئة المحاور ، أو قطعة من الأثاث قد صنعت من خشب غير مناسب لتصميمها ، ولذلك كان نيقولا بتروفيتش كثير الهم والتنهيد ، ولو أنه لم يصل إلى حدود اليأس . إن مصالحه لا يمكن أن تثمر بدون نقود ، وإن ما لديه من النقود قد نفذ . لقد ذكر أركادي لصديقه كما علمنا ، أن بول بتروفيتش قد تقدم لمساعدة أخيه عدة مرات ، لقد فعل ذلك حقيقة ، لقد اندفع مراراً ، متأثراً بحيرة أخيه ، إلى أن يتمم بالفرنسية « ولكنني سأقرضك الدراهم . » يقول ذلك وهو يقترب من النافذة يبطئ ، واضعاً يده في جيب سرواله ، ثم ينفذ ما وعد به . ولكن لم يبق عنده في الأيام الأخيرة مال مدخر ، ولهذا فضل الانتقال إلى محل آخر . لقد كانت مشاكل إدارة المزرعة المحزنة تنعبه ، فقد كان شديد الثقة بأن أخاه

لم يستطع بكل ما لديه من غيرة واجتهاد ، أن ينظم أموره تنظيمًا حسنًا ،
ورغم أنه ما كان يستطيع أن يشير الى موضع الخطأ عند أخيه ، فقد
كان يقنع نفسه بقوله إن أخاه غير عملي ، وذلك يكفي لأن يجعل المحيطين
به يغشونه يمنة ويسرة . وكان لدى نيقولاى من الجهة الأخرى ثقة
كبيرة بمقدرة أخيه العملية . فكان ينشد مشورته دائماً بقوله « إنني
ضعف سهل القياد ، فقد قضيت كل حياتي متقاعدًا ، أما أنت فلم تقض
حياتك عبثًا . أنت تعرف ذلك ، إن لك عين نسر لا تخطئ . » فكان
بول لا يجيبه على هذا الاطراء ، بل يدير رأسه ، دون أن يحاول
تصحيح خطئه .

ترك بول بتروفيتش أخاه في مكتبه وقطع الممشى الذي يفصل بين
الجناحين الخلفي والقبلي ، وعندما وصل باباً منخفضاً وقف لحظة من
الزمن متردداً ، عابثاً بشاربه ، ثم قرع درفة الباب بمفصل أصبعه .
فأجابت ثينيجكا من الداخل : « من هناك ؟ أدخل من فضلك . »
فقال بول بتروفيتش وهو يفتح الباب : « إنه أنا . »

فوثبت عن الكرسي الذي كانت جالسة عليه ، وناولت ابنها للمربية
الصبية ، فأخذته هذه وخرجت فوراً . وأسرعت ثينيجكا بترتيب هندامها .
فقال بول بتروفيتش وهو ينظر اليها : « لقد أزعجتك فأرجو أن
تسامحني ، أردت بمجيئي أن أطلب منك أن تشتري لي قليلاً من الشاي
الأخضر لاستعمالى الشخصي ، إذ علمت بأنك سترسلين خادماً الى المدينة
اليوم . »

فأجابت مينجكا : « سأفعل . فكم تريد أن أودعي بشرائه ؟ »
« نصف باون كمية كافية على ما أظن . » ثم أدار عينيه في الغرفة
مستوعباً كل ما فيها حتى جسم مينجكا نفسها وقال : « ياله من تغيير ! »
ثم أوضح بعد أن رأى أنها خابت في فهم ما يرمي إليه « إني أعني تلك
الستائر . »

« أجل . لقد أعطانيها نيقولاي بتروفيتش ، وقد علقها منذ زمن
طويل . »

« ولكن تذكرني بأني لم أزرك من زمن طويل . إن الغرفة تبدو
مريحة أليس كذلك ؟ »

فهمست : « أجل ، وشكراً لنيقولاي بتروفيتش لما يبدي من
عطف . »

وأضاف بول بتروفيتش وعلى وجهه ظل ابتسامة : « أترين الإقامة
هنا أحسن من محلك السابق الصغير ؟ »

« أجل . »

« ومن أقام مكانك في ذلك المحل ؟ »

« الفسالة . »

« آه . »

وغرق بول بتروفيتش بالصمت ، وقالت مينجكا لنفسها : « أظنه
سيذهب الآن . »

ولكن بول بتروفيتش كان بعيداً عن تحقيق هذا الظن ، فقد ظل

حيث كان ، وظلت هي أمامه تجمع أصابعها وتفرقها بحركة عصبية .
وسألها بول : « لماذا أبعدت الطفل ؟ إني أحب الأطفال . أرنيه من
فضلك . »

فاحمر وجهه ثم نجكا إرتبا كأ وسروراً . لقد اعتادت أن ترتبك أمام
بول وتضطرب فكيف وهو يتكلم معها .

وصاحت : « دنياشا » وكانت تخاطب الفتاة كما يخاطبها أهل الدار
جميعاً ، بصفة المخاطب المجموع للاحترام : « هاتي ميتيا الى هنا
واسرعي . ولكن ألبسيه ملابسه أولاً . » ثم يمت ناحية الباب .
فقال بول بتروفيتش : « لا بأس لا بأس . »
فقالت وهي خارجة : « سأعود حالاً . »

نظر بول بتروفيتش في انحاء الغرفة ، لما اصبح وحيداً ، بانتباه .
كانت الغرفة الصغيرة الواطئة التي تضمه نظيفة مريحة عبقة برائحة البابونج
والريحان والدهان الذي يضاف الى طلاء الأثاث . والتصق بالحائط
كرسي قيثاري الشكل ، كان الجنرال المرحوم قد اشتراه أيام الحملة
البولونية ، وفي زاوية من الغرفة قام سرير للنوم تحت كلة من الموسلين ،
وبجانبه تماماً صندوق ذو مفصلات حديدية ، محدب الغطاء ، مغلف
بصفائح التنك ، وفي الزاوية المقابلة مصباح يضيء صورة قديس كبيرة
مسودة بالدخان ، صورة القديس نيقولاي صانع المعجزات ، وتدل من
هالة القديس الذهبية شريط أحمر يحمل بيضة من الصيني قد استقرت
على صدره ، وعلى عتبات النوافذ صفت بعض الجرار المحتومة بعناية ،

مملوءة بمربي من أثمار السنة المنصرمة ، فكان الضوء يتحول خلالها الى أخضر ، وعلى أغلفتها عناوين بخط ثينجكا ، ذي الأحرف الكبيرة (توت الأوز) وهو ما يحبه بول بتروفيتش بصورة خاصة . وعلق بالسقف قفص صغير يتدلى من جبل طويل ، فيه شحورور قصير الذيل ، كان يوتوت ويقفز بصورة مستمرة ، فكان قفصه يهتز يمنة ويسرة وهو يغرد ، فتندثر منه بذور القنب ممزوجة بالقش فوق بلاط الغرفة ، وحذاء الحائط فوق دولاب ذي أدراج ، وضعت صور غامضة لنيقولايتش بتروفيتش في أوضاع مختلفة ، من تصوير مصور متجول ، وبجانبا صورة غير متقنة لثينجكا نفسها ، هي عبارة عن وجه لا عينين فيه ، يطل من اطار معتم ، وفوق هذا صورة لأيرمولوف بمعطفه الواسع وعبوسه الذي ينذر بالسوء ، ينظر الى سلسلة من جبال القفقاس البعيدة ، وعلقت فوق جبهة هذه الصورة وسادة صغيرة من الحرير تستخدم لشك الدبابيس ، بشكل حذاء .

كانت تسمع من خارج الغرفة وشوشة استمرت ما يقرب من خمس دقائق ، وتناول بول بتروفيتش من فوق الدولاب مجلداً ملوئاً بالزيت لكتاب ماسيلسكي (الفارس) وقلب بعض صحائفه ، وفتح الباب فجأة ودخلت ثينجكا حاملة ميتيا ، مزداناً برداء أحمر وياقة ذات أزرار ، وقد مشط رأسه الصغير وغسل وجهه . ومع أنه كان يتنفس تنفساً قوياً مسموعاً ، ويحرك يديه وجسمه حركات تدل على أنه طفل مكتمل الصحة ، فقد كان للرداء الجليل أثره ، لقد كان وجهه يشع سروراً .

وكانت ثينجكا أيضاً قد رتبت شعرها وأصلحت هندامها ، ولو أن ذلك لم يظهر أثره فيها ، وليس في الدنيا أجل من منظر أمّ شابة جميلة تحمل بين ذراعيها طفلاً مكتمل الصحة .

قال بول بتروفيتش بسرور وهو يداعب ذقن الطفل المزدوجة بطرف أصبعه : « ياله من طفل جميل . » فثبت الطفل نظره في الشحرور الصغير وابتسم .

وقالت ثينجكا وهي تنحني فوق الطفل وتهزه برفق : « هذا عمك . » وكانت دنياشا حينذاك تضع شمعة موقدة على حافة النافذة فوق قطعة نقود من فئة الكوبكين لطرد الأرواح الشريرة .

وسأل بول بتروفيتش : « كم عمره ؟ »

« ستة أشهر ، وفي الحادي عشر من هذا الشهر سيبلغ السبعة . »

فصححت دنياشا بلطف : « لا بل ثمانية . أليس كذلك يا نيو دوسيا

نيكولايفنا ؟ »

« لا بل سبعة . »

وعندها صاح الطفل ، وحول نظره الى الصندوق الموضوع في زاوية الغرفة ، وأطبق فجأة أصابع يده الخمس وراحته فوق فم أمه وأنفها . فقالت دون أن تحاول أن تخلص وجهها من قبضته : « يالك من طفل شقي . »

فقال بول بتروفيتش معللاً : « إنه يشبه أخي تماماً . »

ففكرت ثينجكا ملياً ثم قالت : « ومن تراه يشبه غيره ؟ »

وعاد يقول : « إني أرى الشبه واضحاً دون شك . » ونظر الى تلك الأم بامعان يكاد يكون رثاء .

وعادت تقول للطفل : « هذا عمك . » ولكنها قالتها هذه المرة بصوت خافت .

وصاح نيقولاي بتروفيتش من وراءهما : « آه أنت هنا يا بول ؟ » وأدار بول بتروفيتش وجهه مقطباً ، ولكن أخاه كان ينظر الى الثلاثة مسروراً ، وبهيئة شاكر ممتن ، حتى أن بول لم يجد مناصاً من أن يقابله بابتسامة .

وقال الأخ الأكبر ملاحظاً : « إن ابنك هذا طفل بديع . » ثم نظر الى ساعته وأضاف : « لقد أتيت الى هنا لأدبر قضية شراء شاي لي . » قال ذلك دون مبالاة وترك الغرفة .

وكان أول سؤال بدر من نيقولاي بتروفيتش : « لقد أتى مختاراً أليس كذلك ؟ »

فأجابت الفتاة : « أجل باختياره . لقد نقر على الباب ودخل . »

« وماذا عن أركاشا ؟ أياًتي لرؤيتك ايضاً ؟ »

« لا . وبهذه المناسبة هل لي أن أعود الى غرفتي يا نيقولاي

بتروفيتش ؟ »

« ولماذا تريد ذلك ؟ »

« أظنها تناسبني أكثر من هذه . »

فقال نيقولاي بتروفيتش وهو يفرك جبهته مضطرباً متردداً : « لا أظن

ذلك . لقد كان علينا أن نفعل ذلك قبل الآن . لقد فات الأوان .
وتقدم من الطفل متودداً ، وقبل خده قائلاً : « صباح الخير أيها الشقي
الصغير . » ثم انحنى قليلاً وضغط بشفتيه على يد ثينجكا التي بان بياضها
ناصعاً فوق الرداء الأحمر .

فتمتعت وعيناها مسبلتان : « لم تفعل ذلك يا نيقولاي بتروفيتش ؟ »
ثم رفعتها ونظرت من تحت أهدابها نظرة ساحرة حائرة واحمرت
وجنتاها وابتسمت ابتسامة لطيفة يمازجها شيء من السخف .
ولكي يفهم الظروف التي أدت الى اجتماع نيقولاي بتروفيتش
بثينجكا نقص ما يلي :

قبل ثلاث سنين قدر الحظ لنيقولاي أن يقضي ليلة في نزل في مدينة
ثائية من المدن الريفية ، فأدهشته نظافة الغرفة التي بات فيها ، وأناقة
أغطية الفراش ، فقال لنفسه : « لا بد أن تكون مديرة النزل امرأة
ألمانية . » ولكنه وجد عند التحقيق أنها غير ألمانية ، بل امرأة روسية
تناهز الحسين ، نظيفة الملابس ، ذات وجه لطيف تبدو عليه مخائل
الذكاء ، والأخلاق الممتازة ، وعند الفطور خاض معها في حديث عميق
طويل خرج منه وهو يحمل لها وداً عميقاً . وشاء الحظ أن يلتقي
بهذه المرأة عند انتقاله الى الريف لادارة مزرعته الجديدة .
ونظراً لنفوره من استخدام الأقنان فقد قرر أن يستخدم الخدم
المستأجرين . أما من ناحيتها فقد كان اليأس قد خامرها لقساوة
الظروف ، فقد أصبح عدد زوار المدينة قليلاً جداً ، لذا اقترح عليها

نيقولاي أن تذهب معه الى الريف لتكون مديرة منزله هناك ، ولما كانت أرملة وليس لها سوى ابنة صغيرة تسمى ثينجكا فقد قبلت ما عرض عليها .

وبناء على ما مرّ فقد انتقلت أرينا سافشنا مع طفلتها بعد اسبوعين الى مارينو ، واحتلت جناحاً في المنزل الريفي الجديد . ولم يمض عليها وقت طويل حتى وضعت كل شيء في محله . ولم تتعرض لذكر ابنتها ثينجكا التي كانت تناهز السادس عشرة أمام أحد ، وقليلاً ما كان الناس يرون هذه الفتاة . . وهكذا كانت الفتاة تحيا حياة متواضعة في معزل عن الناس ، حتى أن نيقولاي بتروفيتش نفسه ما كان يرى وجهها اللطيف إلا أيام الآحاد في فناء الكنيسة . ومضى على ذلك اكثر من سنة . وفي أحد الايام دخلت أرينا عليه مكتبه ، وانحنت له مسلمة كما اعتادت ، ورجته أن يعينها على العناية بابنتها التي أصابت عينها شرارة من الموقد . ومن حسن الحظ أن نيقولاي بتروفيتش كان عنده مجموعة طبية من الأدوية ، لا بل أنه أسس صيدلية تحتوي على الكثير من الأدوية التي يحتاجها الانسان في الاسعافات الأولية المستعجلة ، شأن الذين يعتزلون في بيوتهم ، ولهذا طلب من أرينا أن تسرع في إحضار المريضة . ولما سمعت ثينجكا بأن السيد يطلبها اضطربت ، ولكنها أطاعت أمها تلبية للواجب ، فقادها نيقولاي بتروفيتش الى النافذة وأخذ رأسها بين يديه ، وبعد أن فحص العين المحمرة الملتهبة ، كتب وصفة محلول وركب المحلول بنفسه ، ومزق منديله وأخذ يعلمها كيفية غسل العين غسلًا جيداً ،

وكانت مينجكا قد لازمت الصمت ، وحاولت أن تترك الغرفة . فصاحت
بها أرينسا « إن ترك الغرفة دون تقبيل يد السيد أمر قبيح . » وشعر
نيقولاي بالارتباك وهو يمد لها يده ، ولم يلبث أن قبل رأسها المنحني في
مفرق الشعر . وشفيت عين مينجكا سريعاً ، ولكن تأثيرها على نيقولاي
بتروفيتش لم يذهب بنفس السرعة ، لقد أصبح يطوف في خياله وجه تقي
رقيق مرفوع نحوه ، ويشعر بلمس خصل من الشعر الناعم . ويتخيل
دائماً شفتين بريئتين مفتوحتين قليلاً ، تظهر من خلالها أسنان براءة
تعكس الضوء كالمرآة . وصار بنتيجة ذلك يطيل النظر الى الفتاة في
الكنيسة ، ويحاول أن يحادثها ، وكان حياؤها المفرط يمنعها عن مقابلته
بالمثل . والتقت به مرة في ممر ضيق في حقل الشوفان ، فتجنبته مخفية
في كتلة من النبات المرتفع هو عبارة عن خليط من السنابل ، وقرنبيط
قد طاولها في النمو ، وبعض الشجيرات . ورغم محاولتها الاختفاء فقد
لمح رأسها في خصلة من السنابل الذهبية المتفرقة . فناداها ، ولما رآها
تتطلع نحوه بعينين مستوحشتين قال لها متحجباً :

« صباح الخير يا مينجكا . لا تخافي فاني لا أؤذيك . »

فهممت ترد التحية دون أن تترك المحل الذي التجأت اليه : « صباح

الخير يا سيدي . »

وصارت تألفه شيئاً فشيئاً بمرور الوقت وعندما أخذ حياؤها منه
يزايلها ماتت أمها بالكوليرا . ووقع السيد في حيرة عظيمة ، فما الذي
يصنع بالفتاة مينجكا التي ورثت عن أمها حب النظافة والأدب الجم

والتصرف المعقول الحسن ، وفوق ذلك فقد كانت الفتاة وحيدة* ، وكان نيقولا يبتروفيتش رقيقاً طيب القلب متواضعاً ، لكل هذه الأسباب سلك الطريق الذي لا يمكن أن يسلك سواه ، ونحن في غنى عن بقية التفاصيل .

وتساءل نيقولا يكرة أخرى : « إذن فان أخي قد زارك . إنك تقولين أنه طرق على الباب ودخل ؟ »

« أجل . لم يفعل أكثر من أن طرق الباب ودخل . »

« حسن جداً . والآن أعطني ميتياً . »

وراح نيقولا يلاعب الطفل ، يرميه نحو السقف ويتلقفه بيديه ، عملية يرتاح لها الطفل كثيراً ، ولكنها تقلق الأم أكثر ، فتراها تمد يديها بحركة لا شعورية كلما رمي الطفل نحو السقف .

ورجع بول بترفيتش الى مكتبه ، وهذا المكتب عبارة عن غرفة قد غطيت جدرانها بورق قد رسمت عليه زهور برية كبيرة ، وعلقت فوقها الأسلحة ، وفرشت أرضها بسجاد إيراني مخطط . أما أثاث الغرفة فعبارة عن مكتبة من البلوط القديم الأسود تضم كتباً حديثة ، ومكتب جميل ، وبضعة تماثيل من البرونز ، وموقد يتكون معظمه من خشب البندق ، مكسو بقطيفة غامقة اللون . فتمدد فوق أريكة وعقد يديه وراء رأسه وحلق في السقف . إن الأفكار التي كانت تدور برأسه آنذاك يجب ألا تبدو حق للجدران ، ولذلك نهض وأطلق الأستار من عقدها ، فغطت النوافذ ، ثم رجع الى الأريكة .

الفصل التاسع

وشهد نفس اليوم بزاروف يتعرف بثينجكا ، وكان ذلك عندما كان يتمشى مع أركادي في الحديقة ، يتحدث معه عن سبب ازدهار بعض الأشجار فيها ، وخصوصاً البلوط المتوفرة له شروط النماء . فقال بزاروف : « عليكم أن تكثرُوا من زراعة أشجار الحور الفضي ، مع الصنوبر النرويجي ، وأشجار الليمون أيضاً ، هذا بعد أن تضيفوا إلى الحديقة كمية طيبة من السماد . إن السبب في ازدهار أشجار هذه الحديقة هو أنها تتكون من الليلاك والأكاسيا ، وهما نوعان متوافقان . ولكن هالو ... من أولئك الجالسون هناك ؟ »

وكان الجالسون في الحديقة ثينجكا ودياشا وميتيا الصغير . فتوقف عندهم بزاروف ، وأومأ لهم أركادي بإيماءة صديق قديم ، ثم سار الاثنان في طريقهما ، وسأل بزاروف صديقه :

« من تلك ؟ »

« من تعني ؟ »

« إنك تعرف من أعني . حقاً أنها جميلة . »

فعرفه أركادي وهو متلجلج بهوية ثينجكا .

فقال بزاروف ملاحظاً : « آه . حقاً ان أباك حسن الذوق . إني

امتدح فيه حسن الاختيار . والصغير ؟ ياله من جرو جميل . »

« يجب أن أقدم لها أنا أيضاً . » قال هذا واتجه ناحية الحديقة .

فصاح أركادي مهتاجاً وهو يلحق برفيقه : « إيفاجني بحق الإله .

كن حذراً في عملك . »

« لا تخف . إني أعرف كيف أسلك ، ولست فظاً . »

ولما اقترب من ثينجكا رفع قبعته وقال وهو ينحني احتراماً :

« إسمحي لي أن أقدم لك نفسي . أنا صديق أركادي ولست مؤذياً على

الاطلاق . »

فنهضت ثينجكا من مجلسها ونظرت اليه دون أن تجيب .

وعاد يقول : « يا للصبي ما أحمله ! لا تزعجي نفسك رجاءً . سوف

لا أرميه بنظرة شؤم . ولكن لماذا أرى وجنتيه محمرتين ؟ أينبت

أسناناً ؟ »

فأجابت ثينجكا : « نعم . لقد أنبت أربعة ، والأنياب متورمة قليلاً . »

« إذن دعيني أراه ولا تخافي فأنا دكتور . »

وتناول الصبي بين ذراعيه ، واستغربت كل من ثينجكا وديناشا من

أن الطفل لم يبد مقاومة ، ولم يظهر خوفاً .

وعاد بزاروف يقول : « أجل . إن كل شيء على ما يرام ، وستكون

له أنياب كثيرة . ومع ذلك فأرجو أن تخبريني اذا تألم . هل أنت

نفسك بصحة جيدة ؟ »

« أجل . والله الحمد . »

« وأحمد الله أنا أيضاً ، لأن صحة الأم شيء مهم . وأنت ؟ » قال ملتفتاً الى دنياشا . وكانت هذه معروفة بسلوكها المؤدب الممتاز في غرفة الاستقبال ، وبعيها الكثير في المطبخ . فأجابته بضحكة عصبية مكتومة .

« حسناً إنك لتبدين حقاً بصحة جيدة . خذي بطلك . »

فقالت بصوت خافت : « كم كان هادئاً عندك ! »

فقال ملاحظاً : « إن الاطفال يهدأون عندي دائماً . إني أعرف كيف أحملهم . »

وقالت دنياشا : « إنهم يعرفون من يحبهم من الناس . »

فأكدت ثينجكا بقولها : « حقاً ان ميتيا نادراً ما يرتاح في غير أحضاني . »

فتقدم أركادي وقال مخاطراً ، وكان طيلة هذه المدة في المؤخرة : « أياي إلي ؟ » وعندما حاول أن ينقل ميتيا الى ذراعيه ، أبعد الطفل رأسه وشرع في البكاء ، مما أقلق ثينجكا كثيراً .

وقال أركادي ضاحكاً : « فلندع ذلك الى فرصة أخرى ، حتى يعتاد رؤيتي . » وابتعد الصديقان .

وسأل بزاروف : « ما اسمها ؟ »

فأجاب أركادي : « ثينجكا — ثيودوسيا . »

« وما اسمها العائلي ؟ »

« نيقولايفنا . »

« أجل . إن ما يعجبني منها هو طبيعتها غير الحجولة . إنها صفة قد لا تعجب بعض الناس . إن هؤلاء سخفاء ، فلماذا تخجل ؟ إنها أم جميلة ، فيجب أن يعرف قدرها . »

فقال أركادي : « أوافقك ، ولكن أبي .. »

فأجاب بزاروف باختصار : « يجب أن يقدر أيضاً . »

« لا . أنا لا أوافقك في ذلك . »

« أترك لا ترحب بوارث جديد ؟ »

فصاح أركادي من أعماق قلبه : « اخجل يا ايناجني ، فكيف تطاوعك نفسك أن تنسب لي مثل هذه الدوافع ؟ إن ما أعنيه هو أن بي غير محق في شيء ، واحد . يجب عليه أن يتزوجها . »

فقال بزاروف بهدوء : « آه . آه . إلى أي حد من السمو والجبروت قد وصلنا . إذن فلا زلت تعطي مراسيم الزواج الشرعية قيمة . ما كنت أنتظر هذا منك . »

وسار الصديقان عدة خطوات صامتين ، ثم عاد بزاروف يقول : « لقد فتشت مقاطعة أليك فوجدت أن القطيع ضعيف ، والحيول نحيلة ، والأبنية تترنخ كالسكارى ، والعمال يظهرن ميلاً إلى التخاذل والكسل . ولم أعرف حتى الآن حقيقة الوكيل الجديد ، أمجنون هو أم محتال ؟ »

« إنك اللوام اليوم . »

« إني كذلك . والسبب هو أن هؤلاء الفلاحين الطيبين يخشون أباك ، وعلمنا أن نؤمن بالمثل الروسي (إن الفلاح الروسي ليكسر حتى يظهر الله) . »

« يدعوني قولك الى أن أشارك عمي في رأيه عنك ، بأنك لا تقدر روسيا إلا قليلاً . »

« سخافة . إن أحسن صفات الروسي هي عدم إيمانه بقيمته الشخصية إلا قليلاً . إيمان واثقان يساويان أربعة ولا يهم ما عدا ذلك . »
فتساءل أركادي ، وهو يلقي نظرة سرور على الحقول الملونة المنبسطة تحت أشعة شمس الصباح الناعمة الرحيمة تقبّس حرارتها : « وهل الطبيعة ايضاً سخيفة ؟ »

« إن الطبيعة سخيفة إذا نظرت اليها بهذا الشكل على أقل تقدير . إنها ليست كنيسة مقدسة ، بل هي معمل والانسان بعض عماله . »
وفي تلك اللحظة حمل انسم الى سمعيهما أحياناً مديدة تعزف على كمان كبير (جلو) تخرجها يد رقيقة ، ولكنها قليلة الخبرة ، والمقطوعة لشوبرت عنوانها (الأمل) . وكانت النغمة عذبة تكسب الجو الذي تنتشر فيه مذاق العسل .

فسأل بزاروف مستغرباً : « من العازف يا ترى ؟ »
« أبي . »

« ماذا ؟ أبوك يعزف على الجلو ؟ »
« إنه ليفعل . »

« وفي مثل سنه ؟ »

« أجل . وهو في الخامسة والأربعين ليس غير . »

وانفجر بزاروف ضاحكاً .

فسأله أركادي : « لم تضحك ؟ »

« ساحني . ولكن مجرد فكرة . إن أباك وهو في سن الخامسة

والأربعين ، وصاحب مقاطعة ، وهو نبيل في عرف الريف ، ورغم كل

ذلك يعزف على الجلو ؟ »

وعاد يضحك من جديد . أما أركادي فرغم كل احترامه وإيمانه

بمعلمه الأمين ، عجز عن أن يشترك معه ، ولو بابتسامة .

للرياضة فحسب (لقد كان يكره كل حركة لا هدف لها) بل لجمع
الحشرات والأعشاب أيضاً . وأميراً ما كان يقنع أركادي وينزيهه
بمصاحبته ، وفي حالات كهذه ، كان الصديقان يشدكان وهما راجعان ،
في جدل يخرج منه أركادي مدحوراً دائماً رغم فيض منطقته الممتاز .
وفي صباح أحد الأيام تأخر الاثنان طويلاً في الطريق ، وانطلق
نيقولاي بتروفيتش يقطع الحديقة ماشياً لاستقباله ، ولما وصل الى الحديقة
سمع وقع أقدامهما الخفيفة وهما يقتربان ، وكان في موضع مستور عن
الصديقين العائدين .

كان أركادي يقول : « إنك لا تفهم أبي . »

وعندها توقف نيقولاي بتروفيتش وأمسك عن إظهار نفسه .
فأجاب بزاروف : « إنه رجل طيب جداً . ولكنه أيضاً رجل على
الرف . لقد أكمل أنشودته . »
ومع أن نيقولاي بتروفيتش أرهف أذنيه ، فإنه لم يسمع جواب
أركادي .

وهكذا تمهل الرجل على الرف دقيقة او دقيقتين ، ثم رجع بطيئاً
الى البيت .

قال بزاروف : « لقد رأيته يقرأ بشكن طيلة الايام الثلاثة الاخيرة .
عليك أن تفهمه بأن ذلك لا يجدي ، لانه فات سن الصبا ، ويجب أن
يرمي جانباً قوس المكان نهائياً ، فن الذي يعجبه أن يراه خيالياً الى هذا
الحد . أعطه شيئاً عملياً . »

« مثلاً ؟ »

« دعني أفكر . أعطه كتاب بنجر^(١) (ستوف أند كرافت) . »
وأجاب أركادي مستحسناً : « هذا حسن جداً ، خصوصاً والكتاب
مكتوب بأسلوب مبسط . »

وفي ذلك اليوم كان نيقولا يبتزوفيتش جالساً مع أخيه فقال له بعد
سكوت : « أرى أنني أنا وأنت رجلان على الرف ، وأنا قد اكملنا
أنشودتنا . إيه ، وربما كان بزاروف على حق . ومع ذلك فاني أعترف
بأن شيئاً واحداً يؤمني ، ذلك أنه رغم ما كنت أومل من أن أزداد
قرباً من أركادي ، فقد بقيت عملياً في المؤخرة ، أما هو فيسير قدماً
إلى الأمام ، ولم يعد أحدنا ينهم الآخر . »

فسأله بول بترفيتش بوقار : « ولماذا يسير إلى الأمام دائماً ؟ وكيف
حدث أن ابتعد عنا هكذا ؟ إن السبب بسيط ، هو أن آراء ذلك
النهليستي الثمين تعمل عملها في رأسه . أما من جهتي فاني لا أستدوق
هذا الرجل وأظنه محتالاً . وإني على يقين أيضاً بأنه لم يتقدم تقدماً
صحيحاً في الطبيعيات ، رغم كثرة ضفادعه . »

« لا تقل ذلك يا أخي . فأننا من جهتي أنظر إليه نظرتي لرجل ذي
قابليات ممتازة . »

« إذا كان الأمر كذلك فهو مغرور لدرجة غير مرضية . »

(١) بنجر فيلسوف ألماني (١٨٢٤ — ١٨٩٩) ، وهو طبيب
وفيلسوف مادي .

فوافق نيقولاى بتروفيتش بقوله : « ربما كان مغروراً ، ولكن
يظهر لي أن المرء لا يمكن أن يتفاهم مع رجل من هذا النوع . فما
لا قبل لي بفهمه هو ما يلي : أنت تعلم بأنني قد قمت بكل ما يمكن القيام
به لمحاربة روح العصر . فقد نظمت الفلاحين ، ووضعت المزرعة على أسس
جعلت كل أرباب الأرض في هذه المنطقة يسموني كيرسانوف الطيب .
وأنا أقرأ دائماً ، وأتقف نفسي . لقد حاولت أن أسير قدماً في محاربة
مطالب العصر بصورة عامة . أجل ، لقد قمت بكل ذلك ، ومع هذا فإن
عليّ برغمي أن أعتقد بانتهاء أيامي . والواقع يا أخي اني ميال عملياً الى
الآخذ بهذا الرأي . »

« وما السبب ؟ »

« لما يأتي : كنت اليوم أقرأ كتاب (النور) لبشكن ، وهو مما
يلد لي قراءته . فدخل أركادي الغرفة فجأة ، وسحب الكتاب من يدي
بلطف ، فعل ذلك دون كلام ، وبشكل يدل على مزيج من الاحتقار
والشفقة ، مع رقة صبيانية . ووضع بين يدي بدله كتاباً آخر من تأليف
الألمان في موضوع ما ، ثم رجع مبتسماً بعد أن تأبط كتاب بشكن . »
« يا لله . وما هو الكتاب الذي أعطاه لك ؟ »

« هذا هو . »

وأخرج نيقولاى من جيب سترته الطويلة الخلفي كتاباً من الطبعة
التاسعة تأليف بخنر المشهور .

وقلب بول بتروفيتش الكتاب بين يديه .

وقبع يقول : « هم . يظهر أن أركادي مهتم بتثقيفك اهتماماً جدياً .
هل حاولت قراءة الكتاب ؟ »

« نعم . »

« وكيف وجدته ؟ »

« حسناً . إما أن أكون مجنوناً أو أن الكتاب سخيف ، ومن
هذين الأمرين أرى الأول أكثر احتمالاً . »

« ليس ذلك لأنك قد نسيت اللغة الألمانية على ما أظن ؟ »

« لا . فقد فهمت اللغة جيداً . »

وقلب بول بتروفيتش الكتاب بين يديه ثانية ، ثم نظر إلى أخيه من
تحت أهدابه كرامة أخرى ، وتلا ذلك فترة من السكون .

وعاد نيقولايتروفيتش يقول ، وكانت رغبته واضحة في تغيير
مجرى الحديث : « لقد استلمت رسالة من كولياجن . »

« من ماتفي ايلييج ؟ »

« منه نفسه ، ويظهر أنه قد وصل توأ إلى مدينة (س) في مهمة
رسمية ، ورسائله رقيقة جداً ، ويقول فيها بأنه مشتاق إلى رؤية أنسبائه ،
أي أنا وأنت وأركادي . »

فسأله بول بتروفيتش : « وهل قبلت دعوته ؟ »

« لا . فهل تقبلها أنت ؟ »

« لا . فنحن في غنى عن السفر خمسين فرسخاً في سبيل أكلة
بسيطة . إن ماتفي الطبيب يريد أن يتباهى قليلاً ، هذا كل ما هناك ،

وانه ليستطيع ذلك بدوننا . ولكن ما أعظم الساعة التي يصبح الانسان فيها في مثل رتبته . لو بقيت في الخدمة ، وتمسكت بتلك الحبال القوية لأصبحت جنرالاً . وهكذا يصبح أمثالي على الرف . »

« أجل يا أخي . لقد حان الوقت لأن نوصي ببناء قبورنا ، ونصلب أيدينا فوق صدورنا . لا ريب في ذلك . »

وختم نيقولايتش بتروفيتش كلامه متنهداً .

فتمتم أخوه : « ولكني لا أريد أن أستسلم بمثل هذه السهولة . يجب أن تكون ثمة مناوشة بيني وبين جراح أركادي . لا مناص من ذلك . » وقد حدثت المناوشة فعلاً في مساء ذلك اليوم . لقد تمها بول

بتروفيتش للمعركة ، فارتدى لباس المساء ودخل غرفة الاستقبال ، لتناول الشاي ، عابساً ينوي شمرأ ، وجعل يترقب فرصة للتقدم نحو العدو ، ولكنه رغم ذلك لم يجد سبباً كافياً يسمح له ببدء المعركة . فان بزاروف ما كان يتكلم كثيراً في حضرة كيرسانوف الكبير ، وخصوصاً تلك الليلة ، فقد شعر بشيء من التعب ، فاحتسب شايه بسكون تام . ورغم ذلك فقد بدا على بول بتروفيتش نفاد الصبر ، وهو يترقب أمنيته المحتمة . وصادف أن تحول الكلام الى حديث عن ملاك مجاور ، فهدرت من بزاروف كلمة قاسية حيث قال : « إنه أرسنقراطي حقير . » ويظهر أنه كان تعرف بالرجل في سنت بترسبورج .

فدخل بول بتروفيتش في الحديث وشتاه ترتجفان : « إسمح لي .

هل من رأيك أن الأرستقراطية والحقاقة سيان في نظرك ؟ »

فأجاب بزاروف وهو يحسو الشاي بكسل : « قلت الأرسقراطى

الحقير . »

« هكذا تماماً . إذن فنحن حتى أن أستمع بأنك ترى الأرسقراطيين جميعاً حقراء . هل لي أن أقول بأنني لا أوافق معك في هذا الرأي ؟ وأضيف على ذلك ، أنني معروف بأرائى الحرة التقدمية ، ولم يتعارض ذلك مع أرسقراطى الصميمة . واليك الأرسقراطية الانكليزية مثلاً ياسيدي العزيز (وحملت عبارته الأخيرة كرهاً شديداً مما جعل بزاروف يفتح عينيه مستغرباً) أن هذه الأرسقراطية لا تتخلى عن أبسط حقوقها ، ومع ذلك فهي تعرف كيف تحترم حقوق الآخرين ، فعندما تطالب هذه الأرسقراطية بالحقوق التى لها ، تؤدى بنفس الوقت الواجبات التى عليها ، ولهذا السبب فإن انكاثراً بسبب وضعها الأرسقراطى ، بقيت كما هي ، ولا غبار على حريتها . إن الهيئة الأرسقراطية فيها هي التى تدعم هذه الحرية . »

فقال بزاروف : « حكاية سمعناها مراراً ، ولكن ماذا تريد أن

تبرهن ؟ »

« أريد أن أقول ، انه بدون شعور الانسان بالكرامة الشخصية ، وبدون احترام النفس - وكلتا الصفتين تولدان مع الأرسقراطى الحقيقى - لا يمكن أن يثبت بناء اجتماعى طيب على قواعد متينة . إن الشخصية هي النواة المهمة ياسيدي العزيز . والشخصية الانسانية يجب أن تكون ثابتة كالصخر ، وعليها يرتكز كل بناء المجتمع . ولنضرب

مثلاً : إني أعلم بأنك تسخر من عاداتي ومن لباسي وذوقي الذي لا يسهل ارضاءه . إن هذه الأمور تدل على الشعور بالواجب الذي أشرفت إليه الآن . وبكلمة أخرى إن بإمكانني المعيشة في أعماق الريف دون أن أتهاقت . إني أحترم الانسان عندما أحترم نفسي . »

فقال بزاروف : « إسمح لي يا بول بتروفيتش . أنت تقول بأنك تحترم نفسك ، وهذا حسن ، ولكنك تبقى هنا مكتوف اليدين فكيف يستفيد المجتمع الصحيح من ذلك ؟ من المعروف أن البقاء بدون عمل أمر لا يتفق واحترام النفس . »

فابيض وجه بول بتروفيتش وقال : « كل هذا شيء آخر . فلا أشعر أن من حقك أن تطالبني ببيان أسباب قعودي هنا مكتوف اليدين ، كما جاء في تعبيرك المذهب !! ولكن يكفي أن تعلم بأن الأرستقراطية ذات مبادئ ، وأن الذين يعيشون بدون مبادئ ، في هذا العصر ، لا أدب عندهم ، بل هم خالون من كل الآداب الاجتماعية . لقد قلت هذا لأركادي يوم وصوله ، وأقوله لك الآن . إنك توافقني يا نيقولاي أليس كذلك ؟ »

فأشار نيقولاي برأسه مؤكداً ، بينما مضى بزاروف في خطابه : « المبادئ الأرستقراطية ، احترام المرأة ، التحرر ، التقدم ، الأهداف ، لماذا لا تريد أن تؤمن بانقراض هذه التعابير ؟ إن روسيا الحديثة لا تحتاج إليها . »

« إذن فما الذي تحتاج إليه روسيا في رأيك ؟ إن من يصغي اليك يظننا

في معزل عن الإنسانية ، وعن قوانينها واعتباراتها ، بينما - لا تقاطع من فضلك - المنطق التاريخي يتطلب منا ... »

« وما علاقة المنطق بما نحن فيه ؟ إننا نستطيع أن نستمر بجدلنا

بدونه . »

« وكيف نستطيع ذلك ؟ »

« مهما اعترضت ، فهل تحتاج الى المنطق اذا أردت وضع قطعة من

الحبز في فمك ؟ ما علاقة هذه الكلمات المجردة بنا ؟ »

فهز بول بتروفيتش يده استهجاناً وقال :

« لا أستطيع أن أفهمك ، يلوح لي أنك تحقر الشعب الروسي ،

فكيف تستطيع أنت ، او يستطيع غيرك أن يرفض قبول المبادئ

والأهداف ؟ إن هذا يتجاوز حد إدراكى ، فما الذي عندنا غير هذه

الأمور لتتخذ منها أساساً في الحياة ؟ »

فسأهم أركادي في الجدل وقال :

« لقد أخبرناك أنا وبزاروف بأننا لا نخضع لسيطرة مهما كان

نوعها . »

وصحح بزاروف بقوله : « لا ، ولا نقبل أية قاعدة للعمل سوى

تلك القواعد المفيدة . وأحسن قاعدة في الوقت الحاضر هي رفض كل

شيء ، ولهذا فنحن نرفض . »

« نرفضون كل شيء . »

« نرفض كل شيء . »

« ماذا ؟ كل ما في الدنيا من شعر وفن ؟ إني أجد من الصعب أن
أذكر أشياء أخرى . »

فقال بزاروف بعدم اهتمام لا يوصف : « أكرر كل شيء . »
فخلق بول بتروفيتش ، إذ لم يكن ينتظر كل هذا . أما أركادي
فقد تورّد وجهه سروراً .

وتدخل يقولاي بتروفيتش بقوله : « إسمحوا لي . إنكم تقولون
بأنكم ترفضون كل شيء ، بل وأكثر من هذا إنكم تعرضون كل
شيء للهدم ، ولكن يجب أن تبنيوا أيضاً . »

فقال بزاروف : « ليس هذا واجبتنا ، يجب أن تزال الألقاض أولاً . »
وقال أركادي مؤكداً : « أجل . إن حالة الشعب الحاضرة تتطلب
ذلك ، ونحن مرتبطون بانجاز ما يحتاج اليه الشعب ، فنحن نرى أنه لا يحق
لأحد أن يكرس كل جهوده لارضاء حب التفوق والظهور الشخصي . »
وكان واضحاً أن بزاروف لم يستحسن هذا التعليق الأخير ، ففي
العبارة طعم الفاسفة ، بل الخيال . فبزاروف يسمي الفلسفة خيالاً ،
ولكنه لم يزعج نفسه بدحض تلميذه .

فصاح بول بتروفيتش بحرارة مفاجئة : « لا ، لا . إني لا أصدق
أن شابين مثلكما يعرفان عن الشعب الروسي ما يكفي لأن يؤهلتهما أن
يمثلاه في عرض مطالبه . إن الشعب الروسي غير ما تتخيلان ؟ إنه
يتمسك بقدسية التقاليد ، ويخضع للكنيسة ، ولا يحيا بدّين إيمان . »
فلاحظ بزاروف بقوله : « لا أجادل في ذلك ، بل أنا على استعداد
لتأييدك . »

« إذا ما سلمتما جدلاً بصحة كلامي فان . . . »

« ان هذا لا يغير شيئاً مما نحن فيه . »

« أجل . إن ذلك ليس حجة . »

ردد أركادي صدى كلام رفيقه ، كلاعب شطرنج رأى حركة خطيرة من خصمه فاستعد للهجوم بهدوء ، شأن الاختصاصي المحترف . فتمتم بول بتروفيتش مبغوتاً « ولكن كيف لا يعتبر ما قلت حجة ؟ أتريدون أن تنكروا بأن معارضتكم وإنكاركم ليسا في صالح الشعب ؟ »
« يا لله . ألا يعتقد الشعب الروسي بأن السماء ترعد حينما يذهب النبي ايليا الى السماء في عربته ؟ إذا رفضنا ذلك لانكون من الشعب الروسي ؟ ويكون رفضنا في غير صالحه ؟ »

« إني أرفض أن أعدك مواطناً حتى بعد أن قلت ما قلت . »
فأجاب بزاروف باستنكار ممزوج بالاحتقار والكبرياء .
« لقد ساق جدي المحراث بيديه ، إذن فاسأل من أحبابك الفلاحين ، من منا الاثنين يعتبر مواطناً صحيحاً ؟ إنك لا تعرف حتى كيف تكلمه . »

« وأنت تحتقره حينما تتكلم معه . »
« أجل اذا كان يستحق الاحتقار . فأرفض وجهة نظري بقدر ما تريد ، فما أدراك أن خصالي هذه غير منبعثة عن الروح القومية التي تثير علي الحرب دفاعاً عنها ؟ »

« فوه . إذن فأتم مفيدون جداً أيها النهليست ؟ »

« لسنا نحن الذين نقدر قيمة الحاجة إلينا ، ولكن حتى أمثالك
يعتقدون بأنهم ذوو فائدة . »

فتدخل بول بترفيتش وهو يثب على قدميه « أيها السادة . أيها
السادة ، أرجو منكم ألا تتطرقوا إلى الأمور الشخصية . »
فابتسم بول بترفيتش ، ووضع يده على كتف أخيه ، وأجبره على أن
يعود إلى مقعده ، وقال « لا تخف ، فإن ذلك الشعور بالكرامة الذي
اتخذته هذا السيد هدفاً لسخريته القاسية يمنعني من أن أنسى نفسي . »
والتفت إلى بزاروف مرة أخرى وأضاف قائلاً :

« أظن أن تعاليمك تجعلك شخصاً جديداً فريداً ؟ إذا كان الأمر
كذلك فأنت تضيع وقتك عبثاً . إن المادية التي تبشر بها قد نوقشت
مراراً ، وبرهنت كل مرة على إفلاسها . »

فتمتم بزاروف وقد بدأ يخرج عن طوره ، وأصبح وجهه محمراً
قاسياً بلون النحاس وقساوته « تعبير أجنبي آخر . إننا نحن النهليست
لا نبشر بشيء مطلقاً . إن التبشير ليس من ديدتنا . »

« إذن فما هو ديدنكم ؟ »

أن نذكر الحقائق فقط ، كأن نقول مثلاً إن مواطنينا يقبلون الرشوة ،
وأننا بحاجة إلى إنشاء الطرق ، وإلى المشاريع الاقتصادية ، وإلى حكام
عدل ، وأن . . . »

« طبعاً طبعاً ، وبكلمة أخرى فأنتم نقاد . أعتقد أن هذه هي الكلمة
الصحيحة . حسناً . إنني أو من بكثير من إنتقاداتكم . »

« إن من صفاتنا الأخرى المعروفة عنا الثثرة ، لا شيء ، غير الثثرة .
وأما عن أمراضنا الاجتماعية فإن الكلام حولها لا يؤدي الى غير الحذقة
والخياليات . وإن قادتنا ونقادنا المصونين لا يستحقون خبرهم ، فهم
يشغلون أنفسهم بالباطل ، ويقضون وقتهم بمناقشة الفنون والحياة
البرلمانية ، والابداع الذاتي اللا شعوري ، وغير ذلك ، والى الشيطان ،
بينما نحن في أشد الحاجة الى توفير الحبز للطبقة السفلى المضطهدة . لقد
خفقتنا الحرافات الابتدائية ، وخابت كل مشاريعنا الاقتصادية لحاجتها الى
منفذين مخلصين ، والحرية التي تهذي بها الحكومة لا يمكن أن تتحقق ،
فأدام الفلاح الروسي يسكر حتى الموت في الحانات ، فانه مستعد لقبول
كل أنواع السلب . »

« أتم تعترقون بكل هذا ، ومع ذلك فقد عزمتم عزماً أكيداً على
أن لا تعملوا شيئاً . »

وأثنى جواب بزاروف الجاف قاطعاً . فقد ضجر فجأة لأنه كشف
عقله بمثل ذلك الوضوح ، لهذا السيد المتعجرف « أجل هو كذلك . »

« وأنكم قد صممتم على رفض كل شيء . »

« لقد صممنا أبداً على رفض كل شيء . »

« وأنكم تسمون نهليستيين . »

« وأنتا نسمى نهليستيين . » وكان ترديد بزاروف لكلام

بول بتروفيتش ، هذه المرة ، قد امتزج بالكبرياء والوقاحة .

فقطب بول بتروفيتش حاجبيه ، وقال بصوت هادي ، غريب « هكذا . »

كذا . إن النهلستية تكافح كل أمراضنا ، وأنكم قادتنا وأبطلنا
الوحيدون . حسناً . حسناً . ولكن بم تتفوق أنت ورفاكك النقاد
علينا ؟ أثيرتكم ؟ ومن لا يستطيع الازثرة ؟
فتمتم بزاروف « لا . لا . إتنا لا نهم بهذا الشكل ، رغم أن لنا
أغلاطاً أخرى . »

« إذن ماذا ؟ هل أتم تعملون ؟ أم أتم تستعدون للعمل ؟ »
ولم يجب بزاروف ، وتحفز بول بتروفيتش للقيام تحت تأثير إنفعال
خفي ، ولكنه استعاد السيطرة على نفسه بسرعة . وعاد بول بتروفيتش
يتمتم « هم ، إن العمل في نظركم هو الهدم ، ولكن ما فائدة الهدم
ما دمتم تجهلون مؤداه ؟ »

فتدخل أركادي بقوله « إتنا نهدم لإتنا قوة . »

فخلق بول بتروفيتش ثم ابتسم
وأضاف أركادي موضعاً منتصباً : « إتنا قوة تمزق دون أن تؤدي
حساباً لأحد . »

فلهث بول بتروفيتش وقال : « مجانين » وكان واضحاً أنه لم يعد
يستطيع السيطرة على نفسه : « أندرون ما أتم فاعلون بمذهبكم التعس ؟
إن الملاك نفسه ليثور لذلك . قوة مدمرة ! إن السكالموك المتوحشين ،
والمغول البرابرة ، يمثلون قوة أيضاً ، ولكن ما فائدة هذه القوة ؟ ليس
في العالم قيمة لغير المدنية وثمارها . ولا تقل من فضلك أن هذه الثمار
لا تساوي شيئاً . إني أرى بأن أحقر مؤلف ، وأصغر عازف على البيان ،

ذلك الذي يحصل على خمسة كوابكات في الليلة ، أكثر فائدة للمجتمع منك .
لأن رجلاً من هذا الطراز يقفون في صف المدينة ، لا في صف قوة
مغولية مدمرة . أجل إنكم تحسبون أنفسكم جيلاً تقدماً له المستقبل ،
ولكنكم لا تليقون لغير خيمة الكالموك . واعلموا بأن عددكم لا يزيد
عن أربعة وصي ، بينما الآخرون يعدون بالملايين ، وسوف لا يسمحون
لكم أن تطأوا مقدساتهم قبل أن يسحقوكم بأقدامهم . »

فلاحظ أركادي بقوله : « إذا سحقنا فنحن على صواب ، وهذا
أمر يناقش . ولكننا لسنا قلة كما تظن . »

« ماذا ؟ أوتظن أنك تستطيع أن تلقن الأمة وثلقها جميعاً
بآرائك ؟ »

فأجاب بزاروف : « إن شئمة صغيرة كانت السبب في حريق موسكو . »
« أجل . أجل ، عندكم كبرياء شيطانية أولاً ، ثم إستهانة بالأمور
مضحكة . بهذا تقتحمون قلوب شبابنا ، هكذا تكتسبون قلوب السذج
من أبنائنا . إن الجالس بجانبك هو واحد من هؤلاء ، إنه يعبدك عبادة
مطلقة » وعندها قطب أركادي حاجبيه وأدار رأسه قليلاً « أجل إن
الفساد قد عم إنتشاره . لقد انبثت أن فنائنا رفضوا ، عند وجودهم في
روما ، دخول الفاتيكان ، واعتبروا رافائيل مجنوناً ، ذلك لأنه ثقة ، ذلك
رغم أن هؤلاء الفنانين مقفرو الخيال ضعفاء . إن خيالهم لم يتعد صورة
العدراء بجانب النافورة ، وغيرها من الآثار الفنية البسيطة . أظنك تعتبر
أمثال هؤلاء أناساً مفيدين ؟ »

فقال بزاروف : « إني أعتبرهم وأعتبر رافائيل معاً ، اناساً لا يساوون فلساً . »

فصاح بول بتروفيتش : « برافو . برافو . إصغ يا أركادي . إصغ الى الكيفية التي يقوم بها أبناء اليوم شخصيتهم . من المؤكد أن الأغبياء والمتشردين سينضمون اليكم . لقد كان الشبان في أيامنا يذهبون الى المدرسة ، وينسكبون على التحصيل ، أرادوا أم لم يريدوا ، لسكيلا يتهموا بالكسل والغباء ، أما اليوم فما عليهم إلا أن يقولوا : (كل شيء سخيف وباطل) وبهذه الحيلة يكفون أنفسهم شر التعب ، ويعتقدون بان عملهم هذا شيء عظيم مفرح وبكلمة اخرى : إن من كانوا يسمون أغبياء فيما مضى قد أصبحوا الآن نهيليست . »

فقال بزاروف ملاحظاً دون اكتراث : « إن الاكتفاء الذاتي ، واحترامك لنفسك يحملانك بعيداً ! لقد أدى جدلنا الى امور لا طائل تحتها . فلننته ، واذا ما استطعت أن تشير الى تقليد واحد من تقاليدنا أو عادة من عاداتنا الاجتماعية أو العائلية لا تستحق النبذ والاحتقار ، حينئذ يسرني أن أقبل آراءك . »

وكان الانفعال قد جعل عيني أركادي تبرقان وجسمه يهتز إنفعالاً . وصاح بول بتروفيتش : « أستطيع أن أعدّ ملايين من هذه التقاليد ، خذ القرية الاشتراكية مثلاً . »

فلوى بزاروف شفثيه بابتسامة إحتقار وقال : « إن القرية الاشتراكية شيء يحسن بك أن تبحنه مع أخيك ، فقد عرف بالتجربة قيمه هذه

القرية ، ومقدار ما تبشر به من نجاح ، وما أدت اليه من تفسخ ، الى غير ذلك . »

« إذن فخذ العائلة ، إنها ما زالت عند الفلاحين ، على الأقل ، من المؤسسات المقدسة . »

« إنني أتصور أيضاً أن هذا الموضوع مما لا يمكن أن يخوض رجل مثلك في تفاصيله . إنَّبه يا بول بتروفيتش . أترك لك فرصة يومين لأعمال الفكر في هذا الموضوع ، وإنك لفي حاجة الى مثل هذه الفترة على الأقل ، واستعرض بالتتابع كل أوضاعنا الاجتماعية ، وإنَّبه لها أشد الانتباه . أما أنا وأركادي فسندُهب و . . . »

« إذهبا واعبثا بكل شيء »

« لا . بل نذهب لتشریح الضفادع . تعال يا أركادي . وداعاً ياسادة . »
وخرج الاثنان تاركين الأخوين وكل منهما ينظر في وجه الآخر .
وأخيراً قال بول بتروفيتش : « هاك شبان المستقبل . هؤلاء هم خلفاؤنا . »

فردد نيقولاي بتروفيتش بقنوط : « أجل خلفاؤنا » وقد كان خلال الجدل كمن يجلس على ابرر ودبايس ، فلم يفعل أكثر من أن ينظر الى ابنه متألماً . « أخي بول لقد تذكرت الآن ذكريات غريبة ، وذلك يوم اختلفت مع امي مرة ، وخلال شجارنا كانت تصرخ بقوة ، وترفض أن تستمع اليّ ، حتى اضطررت أن أقول لها (يستحيل عليك أن تستمعني ، أو تفهمي كلمة مما أقول . إذ أرى أننا من جيلين مختلفين .) فزادها ذلك

غضباً ، فقلت بنفسي ماذا باستطاعتي أن أفعل غير ما فعلت . إن برشامة
الدواء هذه مرة جداً ولكن من الضروري أن تبتلعها . وقد أتى
دورنا الآن ، فنحن من يجب أن يقول لنا ورتنا بأننا وهم من جيلين
مختلفين ، ويجب أن نبتلع هذه البرشامة صابرين . »

فعقب بول بتروفيتش يقول : « إنك لشريف النفس جداً وأنت
تنسحب ، أما من جهتي ، فاني على يقين بأننا على صواب أكثر منهم
رغم أننا نعبر عن آرائنا بطريقة عتيقة وأننا نحتاج الى شعورهم العظيم
بالكفاية الذاتية . الحقيقة إن شباب اليوم مغرورون جداً فاذا سألت
أحدهم : « أتريد خمرة بيضاء أم حمراء ؟ » أجابك متشامخاً ، وقد بدا عليه
أن العالم كله يترقب جوابه : « إن الأحمر هو القاعدة الصحيحة . »

وقطعت عليهما الحوار فينبجكا بأن قالت : « أتريدان مزيداً من
الشاي ؟ » وقد كانت عند احتدام النقاش تنظر من خلال الباب دون
تجراً على الدخول .

فأجابها نيقولا بتروفيتش ، وهو ينهض لملاقاتها : « لا . باستطاعتك
أن تأمري برفع السموار . »

وذهب بول بتروفيتش الى مكتبه ، بعد أن حيا بكلمة فرنسية
مقتضبة : « طاب مساءكم . »

الفصل الحادي عشر

وبعد نصف ساعة انطلق نيكولاي بتروفيتش ميمماً شطر خيلته المحبوبة . وكانت الأفكار القانطة تجول برأسه ، فقد اتسع الحرق ، بينه وبين ابنه ، على الراقع . وعلم أيضاً بأن هذا الحرق سيزداد اتساعاً يوماً بعد يوم ، فلم تفده شيئاً تلك الليالي الشتوية الطويلة التي قضاها في سنت بترسبورج مكباً على مطالعة المؤلفات الحديثة . ولا فائدة من إصغائه الى الجدل الذي كان يحدث بين الرجال ، ولا قيمة لسروره لما استطاع أن يساهم ، ولو بكلمة واحدة ، في ذلك الجدل العاصف .

وقال لنفسه : « إن أخي يقول بأننا على حق أكثر منهم ، ومن المؤكد أنني أستطيع أن أقول دون مكابرة ، بأن هذين الشابين بعيدان عن الحقيقة أكثر منا . ومع ذلك فإني أعتقد أن عندهم صفات لا توجد فينا ، صفات تعطيهم فرصة في التفوق علينا . فما هي هذه الصفات ؟ أهـي الشباب ؟ كلا ليس الشباب وحده . أهـو أن السيادة التقليدية تحوم حولهم وتقيدهم أقل مما تحوم حولنا وتقيدنا ؟ ربما . »

وأخى رأسه ، ومسح وجهه يده ثم تمم ؟ « ومع ذلك فكيف

ينكرون قيمة الشعر ، ولا يحسون بجمال الطبيعة ؟ »

وأجال أنظاره حواليه كأنه يحاول أن يفهم كيف يستطيع إنسان ألا يحس بجمال الطبيعة . كان الليل قد بدأ تواء ، والشمس تختفي وراء أجمة الحور التي تبعد عن الحديقة نصف فرسخ ، فكانت تلقى ظلالاً طويلة على الحقول الساكنة . ورأى فلاحاً يحب فوق مهر أبيض في الطريق المظلم حذاء الأجمة ، ورغم أن المهر وراكبه كانا مظللين بالأشجار ، فقد كان الراكب بين الملاح ، حتى أن بقعة على كتفه كانت ترى بوضوح ، وكذلك ساقيه المدلاتين . كانت أشعة الشمس تحترق الأجمة وتغمر سيقان الأشجار بضوء باهر أحال الجذوع والأغصان إلى كتلة متوهجة ، وكانت الحفافيش تجول في السماء ، والرياح قد استقرت ، وكانت بضغ نحلات غير مبكرة في العودة إلى منازلها ، تدندن بكسل بين أزهار الليلاك ، وعمود من أسراب البعوض يرقص فوق جذع ممد .

« يا لله ما أجمل ذلك ! » هذا ما قاله نيقولاى لنفسه دون اختياره بينما كانت شفتاه تتمتان مقطعاً شعرياً . وتذكر نجاة أركادي وكتابه . واكتفى بالجلوس حيث هو منقطعاً عن الترنم بالشعر ، ولكنه استسلم استسلاماً مطلقاً لأفكاره المحزنة التي لا يستطيع لها دفعاً . لقد كان كل عمره مغرماً بالأحلام ، وقويت تلك الصفة فيه باعتكافه في الريف . واستعاد أحلامه في الماضي القريب ، يوم كان في انتظار ابنه في شرفة المحطة ، يوم ذهب لاستقباله . لقد شعر آنذاك بشيء يطرأ على العلاقة المهمة بينه وبين ابنه . لقد جدّ وضع خاص سبب ذلك . ثم تخيل زوجته الميتة

أمامه ، لقد تصورها ، لا كما كانت في الريف في أيامها الأخيرة ، سيدة مدبرة حكيمة ، بل فتاة رشيقة ذات عينيْن بريئتين متسائلتين . أجل لقد طافت بخياله تلك الحُصَلات المجدولة فوق عنق صبية لطيف ، وتذكر أول لقاء بينهما ، لقد كان تلميذاً ، وقد قابلها على الدرج المؤدى الى شقته ، وتذكر كيف احتك بها دون قصد فوقف ليعتذر ، ولكنه لم يقل أكثر من عفواً ، فردت عليه بأن انحنت له ، ثم ابتسمت وهربت ، كأن خوفاً فجائياً قد انتابها . وفي منحى السلم وقفت وألقت نظرة ناعمة الى الورا ، ثم احمر وجهها فجأة ، وبأن عليها تردد وحيرة . آه يا لئلك المقابلات الاولى ، يا لئلك الكلمات المندغمة والابتسامات الحمية ، والعواطف السعيدة ، ما بين سرور وقلق ، وذلك التدليل ، وما يعقبه من لذات عظيمة ، لذات تكاد تفقد الانسان وعيه . لقد ذهب كل ذلك . حقاً لقد أصبحت زوجته ، وأسبغت عليه سعادة لا تتاح لكثير من الرجال في الدنيا ولكن ذكرها ما تزال ترود أحلامه وتجعله يتساءل : « لماذا لم تدم أيام تلك السعادة الى الأبد ، فنحيا حياة لا تعرف معنى الموت ؟ »

وشرع يحاول أن ينسق أفكاره . وكان ما سيطر على أفكاره وأسر مشاعره ، هو أنه مستعد أن يهب عوالم بأكملها لمن يصله فعلاً بتلك الأيام المباركة ، بحيث تكون له أكثر من مجرد ذكريات إنه يريد أن يشعر بحبيبهته مارياً الى جانبه مرة أخرى ، أن يشم أنفاسها العزيزة . لقد استولت عليه نوبة قوية غريبة فأحكمت قبضتها .

وأناه صوت ينبججكا من محل قريب : « نيقولايترو فيتش أين أنت ؟ »

وعندما سمع النداء خامره مزيج من السكدر والحجل ، فلا يمكن
المقارنة بين زوجته الميتة وئينجكا . لقد بغت . وشعر برهة بالاشمزاز
من أن تختار ثينجكا تلك اللحظة لتبحث عنه . ولكن صوتها ذكره ،
بطريقة مهمة ، بشعره الذي خالطه المشيب وبشيخوخته ، وبكل ما يمت
الى الحاضر بصلة . وهكذا فان عالمه المسحور الذي كان قد دخله قبل
برهة ، والذي رآه واضحاً خلال أمواج الماضي التي يكتنفها الضباب
قد ارتجفت مشاهدته واختفت حالاً .

وصاح : « إني هنا يا ثينجكا . إذهبي من فضلك ، وسآتي حالاً . »
وقال في نفسه : « هذا شيء آخر يذكرني بأني سيد . »
وعادت ثينجكا ، وأحس فجأة بأن الليل حل أول ما غرق في أحلامه .
كان كل ما حواليه مظلماً ساكناً يتوسطه بقعة شاحبة منيرة ، هي وجه
ئينجكا . فقام واستعد للعودة ، ولكن أعصابه المرتخية لم تمكنه من
إستعادة هدوئه ، فصار ينظر الى الأرض تارة والى السماء اخرى ، حيث
ازدحمت آلاف النجوم المزهرة . وشرع يذرع الحديقة ، وبقي كذلك
حتى تعب . إن تلك الأفكار القانطة المهمة ، والالم الملازم ، قد رفضت
كلها أن تخلي قلبه . فلو عرف بزاروف بما يدور في خلده ، فكم سيضحك
منه ذلك النيهليستي ؟ وحتى لو رآه أركادي للامه أشد اللوم . وانبعثت
من عيني نيقولا بروفيتش ، عيني رجل في سن الرابعة والأربعين ، رجل
يملك مقاطعة وبيتاً ، دموع لم تستدر ، أخذت تنهمر ببطء . إن هذا
لأسوأ الف مرة من العزف على الكمان الكبير (الجلو) .

واستمر يذرع الحديقة دون أن يفكر في دخول الملجأ الآمن
الذي كان يرحب به ، ذلك الذي كان يغريه بنوافذه المرحية ، بأن يترك
ظلام الحديقة ويتخلص من قرص الهواء البارد يلفح وجهه ، وي طرح
عنه أثقالاً من الحزن والقلق . والتقى بيول بتروفيتش عند منعطف ،
فسأله الأخير : « ماذا دهاك ؟ إنك تبدو شاحباً كشيخ . أنت مريض ؟
ولماذا لم تذهب الى الفراش ؟ »

فأوضح له نيقولاى بكلمات قليلة حالته العقلية ، ثم توجه الى
البيت . ومضى بول بتروفيتش في الجهة المعاكسة من الحديقة ، كان
كلاهما يتأمل السماء ويذرعها بنظراته . أجل ليس في السماء غير انعكاس
ضوء النجوم . عيون جميلة ولا شيء يرى في الظلام . إنه ليس خالياً
بطبيعته ، وان روحه الجافة المتفرنسة ، غير المحبة للبشر ، لا تستطيع
أن تبني العلامي والقصور في الهواء .

وفي نفس تلك الليلة قال بزاروف لأركادي : « سأفتحك باقتراح
مدهش طرق خاطري . تذكر أن أباك قال اليوم بأن أحد أقاربك
الأشراف قد أرسل دعوة لا تريدون تلبيتها . حسناً . كيف ترى أن
تقبلها أنا وأنت ؟ لقد تحسن الجو ، وهذه فرصة للسفر في العربة ورؤية
المدينة . وبهذا يتاح لنا أن نكتسب بضعة أيام لا يكدرها علينا مكدر ،
ولا يعترض حوارنا خلالها مقاطع . »

« وهل ستعود بعدها إلينا ؟ »

« لا بل سأذهب لرؤية أبي . أنت تعلم أنه يسكن على بعد ثلاثين

فرسحاً ، وقد مر وقت طويل منذ رأيته آخر مرة ، وكذلك أمي .
وعلاوة على ذلك فإن الشيوخ في حاجة الى أن يسروا قليلاً ، فهم قد
أحسنوا معاملتي وخصرماً أبي ، وأنا وحيدهم . »

« وهل ستبقى طويلاً ؟ »

« لا . إن البقاء هنالك شيء متعب »

« إذن فزرنا مرة أخرى وأنت في طريق العودة . »

« سأفعل إذا أمكن ذلك . إذن فستذهب ؟ أليس كذلك ؟ »

فأجاب أركادي دون مبالاة : « إذا كان ذلك يسرك . »

والحقيقة أنه سر باقتراح بزاروف ، وكانت رغبته في المحافظة على

نيهليستيته هي التي منعه من إبداء سروره . وهكذا انطلق الاثنان في
الغداة الى المدينة ، مودعين بالأسى من جميع شبان مارينو ، وكادت
دنياشا أن تبكي . أما السيدان فهما وحدهما اللذان تنفسا الصعداء .

الفصل الثاني عشر

تقع المدينة التي توجه نحوها الصديقان تحت حكم أحد أولئك المتقدمين الشبان من حكام الأقاليم المطلقى السلطة ، أولئك الذين سببوا الحن لروسيا مراراً كثيرة . ونجح هذا العاهل في أوائل حكمه بصورة خاصة ، في إثارة الشحنة ، لا مع رئيس الأشراف الاقليمي — الذي كان ضابطاً متقاعداً ومزارعاً مضافاً يربي الخيل — فحسب ، بل مع موظفيه الذين هم تحت إمرته . وكانت النتيجة أن بلغ الاضطراب في أيام قصتنا هذه درجة جعلت السلطة المركزية ترى من الضروري أن ترسل من تثق به من القميسارية لاجراء التفتيش . وقد وقع اختيار الحكومة على ماتفيي البيتش كولياجن ، فانتدبته لهذه الغاية . وهذا هو ابن كولياجن الذي كان وصياً على الأخوين كيرسانوف . وهو شاب أيضاً ، أي أنه قد تعدى الأربعين قليلاً ، ولكنه في طريقه الى أن يكون رجلاً من رجال الدولة . وكان صدره ممتلئاً بالأوسمة ، بينها واحد على الأقل من حكومة أجنبية غير مهمة . وهو أيضاً ، كالحاكم الذي أتى لتفتيشه ، يعتبر تقديمياً ، ويتباهى كثيراً بنفسه . ومع ذلك فلم يسمح

لكبريائه التي لا تحد ، ان تخرجه من حبه للبساطة المنكفة ، والطبع
المرح ، أو من أن يصغي بسرور الى كل ما يقال له ، أو من إطلاق ضحكة
مرحة ، تجعله يحسب لأول وهلة « رجلاً طيباً لا بأس به » حقاً إنه
ليستطيع في الظروف المهمة أن يثير العثير — إذا سمح لي بهذا التعبير
المبتذل — فن آرائه التي يكررها دائماً : « إن النشاط ضروري جداً
لرجل الدولة » ورغم كل ذلك فكثيرون أولئك الذين يعتبرونه مخبولاً .
أما الموظفون المحسكون فلا يعباؤون به ولا بآرائه قط . بل انهم يديرونه
باصبعهم كما يريدون .

وثمة أشياء أخرى يتصف بها ، هو أنه قد اعتاد أن يذكر كيزو^(١)
بغاية الاحترام . وبذلك يحاول أن يوحي الى غيره بأنه ليس على شاكلة
سواه من الحكام المستبدين ، من العسكريين المتقاعدين . بل هو رجل
يهتم بكل ما ينتاب المجتمع من أحداث وتطورات . وكانت هذه التعابير في
الحقيقة على رأس لسانه دائماً ، وهو يتبع الآداب المعاصرة ، ولو أنه
لا يتباهى بذلك . وأخيراً فليس من المستبعد أن تجد هذا الانسان يحذو
حذو أولئك الذين ينضمون الى صف من تلاميذ المدارس ، يسير في
الشارع ، دون أن يراعي كبر سنه وكثرة تجاربه . وبالاختصار فإن
ظروف ماتفي وزمنه هي التي ميزته عن سياسي عهد الملك الاسكندر ،

(١) فرانسوا بيركيلوم كيزو (١٧٨٧ — ١٨٧٤) السفير والوزير
الفرنسي العظيم وهو أديب مثقف أيضاً .

أولئك الذين كانوا يقرأون بضع صفحات من مؤلفات كوندريك^(١) قبل أن يذهبوا الى صالون مدام سفيدجين^(٢) التي كانت تقيم في سنت بترسبورج . ومع أن ماتفي كان نديماً لبقاً ، فقد كان منافقاً أيضاً ، إذ هو يهتم بمصالحه ، ويفضلها على مصالح الآخرين ، ولا عبرة في أن تكون هذه الصفة من ضرورات النجاح في الحياة . لقد كان بكل أوصافه الرسمية عديم الذوق تماماً .

رحب هذا الرجل بأركادي عندما قدم مع صديقه تابية للدعوة التي نحن بصدددها . فعل ذلك بكل ماعرف عنه من مروح ومجاملة ، وسرعان ما اكتأب لما علم أن الأقرباء الآخرين فضلوا البقاء في الريف . فقال ملاحظاً وهو يداعب أزرار سترته القطنية : « إن أباك إنسان شاذ أبداً » قال هذا وانتفت الى موظف صغير يرتدي سترّة مزررة حتى العنق ، وسأله « بنزق ماذا تريد؟ » واعتدل الموظف المسكين عند تلك الجملة ونظر الى رئيسه خائفاً ، وكانت شفتاه مطبقتين كأنهما قد ختمتا بالصمغ الى الأبد ، بسبب ما اعتاده من عدم الإباحة بما يكرهه . وكان ماتفي يحب هذا الخنوع في أتباعه ، فهذا الرجل العظيم يحترق أمثال تلك المخلوقات

(١) اتين بونودي مابلي دي كوندريك (١٧١٥ — ١٧٨٠) فيلسوف

فرنسي يضع المعارف على أساس الحواس الخمس .

(٢) مدام سفيدجين (١٧٨٢ — ١٨٥٧) زوجة الجنرال الروسي

سفيدجين ، وقد ظلت أكثر من أربعين سنة معروفة بصالونها الشهير .

الحقيرة . وبهذه المناسبة أحب أن أذكر أن أمثال هذا الخنوع في الاتباع أمر يرغب فيه كثيراً أمثال هؤلاء الرجال العظام . وأكثرهم يخلفه خلقاً في أتباعه ، فهو في نظرهم شيء محبوب كما يقول الانكليز . إن رجلاً من هؤلاء العظام قد يتوقف ذهنه فجأة عن إدراك أبسط المعاني ، ويكتسي هيئة غباوة عميقة ، فتراه يسأل عن اليوم مثلاً ، فيجاب على ذلك باحترام عظيم ، وبكلام متلجج بأن اليوم هو الجمعة مثلاً .

فيزجر الرجل العظيم محبباً كمن أجبر على أن يفتح أذنيه الى أقصى حد
« ماذا ؟ »

« أ .. إنه يوم أجم . جمعة يا صاحب الفخامة . »

« ها . ماذا . جمعة ؟ ماذا تعني بالجمعة ؟ »

« يا صاحب الفخامة . الجمعة هو يوم يوم في الاسبوع . »

« هيا هيا لا حاجة لكل هذه اثرثرة لتخبرني بذلك . »

إن ماتفي ايلييتش هو واحد من هؤلاء الرجال العظام ، رغم أنه يسي نفسه حراً تقديمياً .

وعاد يقول لأركادي : « يا صديقي الطبيب أنصحك أن تذهب لزيارة الحاكم ، ومن الطبيعي أن تدرك بأنني لا أنصحك بأن تقوم بمثل هذه الاجراءات لأجند قبول الآراء الضيقة في تملق ذوي السلطان ، بل لأن الحاكم رجل طيب ، وراك تريد أن ترى شيئاً من المجتمع ، لأنك لست ديباً كما أظن . لا . حسناً . إن الحاكم سيقم حفلة راقصة بعد غد . »

فسأله أركادي : « وهل أنت من المدعوين ؟ »

فأجاب مصطنعاً هيئة المشفق على جهل مخاطبه : « طبعاً . لقد أقيمت
على شرفي . إنك ترقص كما أظن ؟ »
« أجل . ولو أنني لا أحسن ذلك كثيراً . »
« أمر يؤسف له . يوجد هنا عدد كبير من المجتمعات الراقية . ولا
يليق بمثلك أن يجهل الرقص . واكرر قولي إنني لا أقول ذلك إحتراماً
للآراء العتيقة ، ولا لأنني أعتقد بأن مهارة الإنسان في قدميه . ولكن
البايرونيين أناس مضحكون . هذا هو وقتكم » قال العبارة الأخيرة
بالفرنسية .

« ولكنني لست من أتباع المذهب البايروني ، ولا ... »
« حسناً حسناً . سأقدمك الى بعض السيدات ، وسأحملك تحت
جناحي . » قال هذا وابتسم ابتسامة الواثق من نفسه .
« حقاً ستقضي وقتاً طيباً هنا . »

وعندها دخل خادم فأعلن وصول ممثل الحزينة المحلية . وكان هذا
رجلاً مجرباً لطيف اليمينين ، تحيط بضمه المتجايعيد ، وهو من عشاق
جمال الطبيعة ، فقد اعتاد ، في أيام الصيف بصورة خاصة ، ملاحظات تشير
لذلك ، كأن يقول : « إن كل لحظة تمتص نصيبها من الرحيق في كل
زهرة . » وبذلك وجد أركادي فرصة للانصراف .
والتقى بزاروف في الاوتيل الذي نزله الاثنان . ووجد صعوبة
عظيمة في إغرائه بزيارة الحاكم ، التي اقترحت عليه .
وقال بزاروف أخيراً : « حسناً . حسناً . أنا الذي وضعت يدي على

جبل الجمر ، إذن فأنا الذي يجب أن أتحمّل ثقله ، ومادونا هنا لنرض
فخص أشراف المسكان ، إذن فلنذهب ونفحصهم . »

واستقبل الحاكم الشاين استقبالا حسناً ، ولكنه لم يامرهما بالجلوس ،
ولا جلس هو نفسه . وكان رجلاً عجولاً ذا رائحة تنّ . إعتاد أن
يرتدي لباساً ضيقاً ، وياقة عالية كل صباح ، ثم يعدلي لنفسه هيئة الأمر
الناهي ، حتى أن ذلك يشغله عن إتمام أكلة الصباح كل يوم . وهو
معروف في كل الأقليم باسم بوردالو وليس ذلك عن شبه بينه وبين
الواعظ الفرنسي الشهير ^(١) بل نسبة لرائحة البوددا ، الكحول الخمر .
وبعد أن دعا أركادي و بزاروف الى الحفل الراقص ، أعاد هذه الدعوة
بعد دقيقتين ، كأنه لم يفعل ذلك قبلاً . وكذلك أخطأ في حسابان الاثنين
أخوين ، فكان يحاط بهما بقوله : أيها السيدان كيساروف .

وبينما كان الصديقان عائدتين الى نزلهما ، قفز رجل صغير يرتدي
لباساً سلافونياً ، من مركبة مارة ، ونادى صائحاً : « ايفاعني فاسيلييتش »
وهجم على بزاروف .

فنظر اليه بزاروف وقال دون أن يخفف من سرعة سيره على الرصيف :
« أهذا أنت يا هرستينيكوف ؟ أي ربح ساقطك الى هنا ؟ » فأجاب بعد
أن التفت الى العربّة وأشار الى السائق أن يتبعه : « صدقة فقط . تراني

(١) لويس بوردالو (١٦٣٢ — ١٧٠٤) أستاذ في كلية الجزويت

في بودج .

قد أتيت لأن أبي يعمل هنا ، وقد دعاني لزيارته » وقطع عبارته بأن قفز فوق مجرى الماء ، « لما علمت بقدومك أردت أن أزورك حيث نزلت . » وكان صادقاً في قوله إذ أن الصديقين ، لما وصلا الى الفندق بعد ذلك ، وجدا بطاقة سيتنيكوف المقصودة الأركان ، وقد خط إسمه على جانب منها بالاسلوب الفرنسي ، وعلى الجانب الآخر بالاسلوب السلافي .

وعاد الرجل الصغير يقول : « أظنكما عائدتين من زيارة الحاكم ؟ إني أتعشم ألا يكون الأمر كذلك . »

« لقد خاب أملك . نحن عائدان من عنده توأ . »

« إذن فأننا ملزم أن أقوم بواجبي نحوه مع الأسف . ولكن قدمني الى صديقك أولاً . »

فردد بزاروف دون أن يتقطع سيره : « سيتنيكوف - كيرسانوف » وأسرع سيتنيكوف يقول : « مسرور برؤياك » وذلك بعد أن خطا الى الورا ، واعتدل وأسرع بنزع قفازه الأبيض جداً . « لقد سمعت شيئاً كثيراً عنك يا مسيو كيرسانوف . وأنا أيضاً من أصدقاء ايفاجني القدماء . وأستطيع أن أقول بأني تلميذ قديم من تلاميذه ، فعن طريقه بعثت من جديد . »

ونظر أركادي الى تلميذ بزاروف فوجد مزيجاً من الانفعال والغباء مدبوعاً على وجهه الصغير اللطيف . وكانت عيناه اللتان تلوحان لصغرهما كأنهما قد عصرتا ، ترسلان نظرات قلقة ، وكذلك ضحكته ، فقد كانت قصيرة جافة تدل على التملق .

وعاد سيتنيكوف يقول : « أتدري أنه لما قال لي ايفاجنى أول مرة
بأننا يجب أن تتجاهل كل القوى والآراء المسلم بها أظهرت سروراً عظيماً ،
وشعرت بأنني قد انضجت فجأة ، وقلت انفسى أخيراً ، أحقاً وجدت الرجل
الذي أأتم به ؟ وبهذه المناسبة عليك أن تأتي يا ايفاجنى فاسليتش لرؤية
سيدة من معارفي ، تفوق كل الاخريات ، وهي التي ستفهمك فهماً
صحيحاً ، وستبر مرآك حظاً سعيداً ، ربما كنت قد سمعت بها قبلاً ؟ »
فقال بزاروف مشمراً : « لا . ومن هي ؟ »

« مادام كوكشين . السيدة . ويجب أن أقول ايفادوكسيا كوفشكين ،
وهي ليست امرأة ممتازة ذات ذكاء وثقافة فحسب ، بل هي من أتباع مذهب
تحرير الفلاحين أيضاً ، وهي تقدمية بكل ما في الكلمة من معنى . ماراً يكمن أن
نذهب نحن الثلاثة لرؤيتها ؟ إنها تسكن على بعد خطوتين ، وستدعونا
للغداء . إنكما لم تتناولا غداء كما حتى الآن كما أظن ؟ »
« لا . لم تفعل بعد . »

« إذن فهذا الاقتراح يوافقكما . وبهذه المناسبة أخبركما بأنها امرأة
مستقلة ، هي متزوجة قد افترقت عن زوجها . »
فتساءل بزاروف : « وهل هي جميلة ؟ »
« لـ لا ليس في استطاعة الانسان أن يسميها كذلك تماماً . »
« إذن فلماذا تريد منا أن نذهب لرؤيتها ؟ »
« آه . إنك تعود الى المزاح . ولكن تذكر أنها ستقدم لنا زجاجة
من الشاي بين . »

« آه . إن الإنسان يرى أي رجل عملي أنت . وبهذه المناسبة ألا زالك
أبوك يعمل في تجارة الخمر ؟ »

فتهقه سيتنيكوف وقال . « نعم . ولكن أسنذهب ؟ »

« لا أستطيع أن أقرر ذلك . »

وهنا تدخل أركادي بقوله : « لقد أتينا لدراسة الشعب هنا . إذن

فدعنا ندرسه . »

فتنى سيتنيكوف بقوله : « هذا صحيح . ستأتي طبعاً أيها السيد

كيرسانوف . إنما لا نستطيع أن نمضي بدونك . »

« ماذا . أنزل على رأسها كلنا مرة واحدة . »

« ماذا يهم . إنها نفسها امرأة شاذة ، بل هي حجارة صلبة . »

« وتقول إنها ستقدم لنا زجاجة من الشامبين ؟ »

فأكد سيتنيكوف : « أجل ، وربنا زجاجة لكل منا . إنني أضمن

ذلك وأراهن عليه . »

« تراهن عليه بماذا ؟ »

« برأسي . »

« كيف نقودك أحسن ، فسر أماننا . »

الفصل الثالث عشر

كانت الفيلا التي تسكنها أفدوشيا ، أو أفدوكسيا نيكييتشنا من النوع الشائع في موسكو ، وتقع في شارع من شوارع المدينة قد احترق حديثاً . فمن المعلوم أنه لا تسكاد تمنقضي خمس سنين حتى تحترق عاصمة من عواصم أقاليمنا وتأتي النار عليها . كان بجانب الباب مدقة جرس قد علقت فوقها بطاقة زيارة ملتوية ، واستقبلتهم في باحة المنزل سيدة ، هي ليست بخادمة ولا مرافقة لسيدة الدار ، تلبس فوق رأسها طاقية اعتيادية . وليس من الصعب أن نستنتج من هاتين العلامتين ، السيدة المرافقة ، ومدقة الجرس ، دليلاً واضحاً على وجهة نظر صاحبة الدار التقدمية .

وعندما سأل سيتنيكوف عما إذا كانت أفدوشيا في المنزل ، أجابه صوت حاد من غرفة قريبة :

« أهو أنت يا فكتور ؟ أدخل من فضلك . »

واختفت السيدة ذات الطاقية حالاً .

وأجاب سيتنيكوف وهو يلقي نظرة تساؤل على بزاروف وأركادي :

« لم آت وحدي » ونزع عنه معطفه ، فكشف عن نوع من السرة

الوطنية تشبه الكيس .

وأجاب الصوت : « لا بأس » ثم بالفرنسية : « ادخلوا من فضلكم »
وصدع الرجال بالأمر ، ووجدوا أنفسهم في غرفة تشبه صالوناً .
فقد تراكت فوق الماضد أوراق ورسائل ومجلات روسية بغير نظام ،
وأغلب المجلات لم تفتح بعد . وانتشرت فوق البساط أعقاب السكاير ،
وفوق أريكة ذات أحشية من الجلد ، سيدة صغيرة ذات شعر جعد ،
ترتدي معطفاً حريراً غير مزخرف ، وقد اتكأت قليلاً في وضع
استراحة . وكان حول معصمها الغليظين زوج من الأساور الواسعة الثقيلة ،
وفوق رأسها كوفية ذات حواشي مزخرفة .

نهضت السيدة بعد أن سحبت فوق كتفها رداءً من القطيفة ذا حواشي
من فرو الأرمن فاتح اللون ، وقالت بكسل : « يوم طيب يا فكتور »
ثم ضغطت على يده .

فقال هذا من بلد ألهمجة بزاروف في التعريف : « بزاروف — كيرسانوف . »
فأجابت بقولها : « كيف جالكما ؟ » ثم أضافت وهي توجه الى
بزاروف عينين كبيرتين ، يتألق بينهما أنف صغير أحمر مرتفع الأرنبة .
« لقد تعرفت بك قبلاً . » ثم ضغطت على يده كما فعلت بسيتنيكوف .

وتجهم بزاروف . فليس في وجه هذه السيدة المتحررة الصريح
ما يصد المرء ، ولكن ثمة شيئاً في هيئتها يجعل الناظر اليها غير مرتاح ،
شيئاً قد يدهشه الى أن يسألها . « أنت جائعة أم منهوكة ، أم خبلة ؟ وعلى
كل حال ما الذي يقلقك ؟ »

وكانت ، مثل سيتنيكوف ، تضرب الهواء بمخالبها حينما تتكلم ، وكل كلمة من كلماتها ، بل وكل إشارة من إشاراتها تظهر إمارات عدم السيطرة على النفس . بل قد تصل بها في بعض الأحيان الى حد الفهاة . وبالاختصار فقد كانت كصاحبها تنصور نفسها امرأة بسيطة طيبة القلب ، غير أن صفاتها وتصرفاتها كانت تدل على التكلف الصريح . فمن يراها يدرك فوراً بأن أفعالها متعمدة ، وأن كل ما تقوم به تتعمده ، كما يقول الأطفال ، أي أنه لا يدل على البساطة ، وغير طبيعي ، وكررت قولها : « أجل إني أعرفك يا بزاروف . » وكانت ، شأن السيدات العصريات في موسكو والأقاليم ، قد اعتادت أن تنادي الرجال بأسمائهم المجردة عند اللقاء الأول ، وتلك عادة شائعة « هل لك بسيكار ؟ »

فاعترض سيتنيكوف الذي كان قد رمى نفسه بين ذراعي إحدى الكراسي ولف ساقاً بساق : « إني أشكرك . إعطنا بعض الغذاء أيضاً . إنا جائعون كالوحوش الكاسرة . وتكرمي علينا بزجاجة من الشامبين أيضاً . »

فصاحت ايفدوكسيا مبتسمة ، وكانت أنيابها العليا تبدو للناظر كلما ابتسمت : « أنت سييري . أليس هو كذلك يا بزاروف ؟ » فاعترض سيتنيكوف بقوله : « لا . ولكني أحب متع الحياة فقط ، ولا ينعني مطلقاً من أن أكون متحرراً . »

فصاحت ايفدوكسيا : « بل يمنعك . » ثم أمرت خادمها بأعداد الغذاء والشامبين ، والتفتت الى بزاروف وقالت : « ما رأيك في هذه

القضية ؟ إني أشعر بأنك تشاركني في رأيي . »

فأجاب : « لا لست معك بل بالعكس ، إني أرى ، حتى من الوجهة الكيميائية ، أن قطعة من اللحم أحسن من قطعة من الخبز . »

فصاحت : « إذن فأنت تدرس الكيمياء ؟ إن الكيمياء هوايتي أيضاً .
لقد اخترعت مركباً . »

« مركباً ؟ أنت ؟ »

« أجل ، ونحن من فضلك منافع . إنه يفيد في صنع العلب غير القابلة
للكسر ، ولصناديق الغلايين . إذن فأنت ترى بأنني مثلك ذات عقلية
عملية ، ولكنني لم أكمل دراستي حتى الآن . لقد بقي عليّ أن أقرأ لبيك .
وبهذه المناسبة هل قرأت مقالاً عن إنتاج المرأة ، في جريدة موسكو ؟
بقلم الكاتب كزليا كوف ؟ إذا كنت لم تقرأها فاقراها ، لأنني أظنك
تهتم بقضية المرأة ، وبقضية التعليم أيضاً . ولكن ما هو عمل صديقك ؟
وبهذه المناسبة ما اسمه ؟ »

وكانت أسئلة مادام كوشكين هذه تلتقي واحداً بعد آخر دون انتظار
جواب ، بلهجة ودودة بسيطة ، كما يفعل الطفل المدلل حينما يراكم
الأسئلة المربكة على مريته .

فأجاب أركادي عن نفسه : « إسمي أركادي نيقولايفتش كيرسانوف .
ولا أعمل شيئاً قط . »

فتدثمت أيفدوكسيا وصاحت : « ما أجمل ذلك . إنك لاتعمل شيئاً .
ماذا ألا تدخن ! أتعلم يا فيكتور بأنني غاضبة عليك ؟ »

فتساءل سيتنيكوف : « ولماذا ؟ »

« لأنني سمعت بأنك تمتدح جورج صاند مرة أخرى ، هذه المرأة اللعوب . كيف يسوغ لأى إنسان أن يضعها في صف أمرسن مثلاً ، هذه المرأة التي ليس لها أي رأي في التعليم أو الفزجة أو أي شيء آخر . اني أعتقد بأنها لم تسمع قط بعلم الأجنة . وهل باستطاعة الانسان أن يستغني عن ذلك في مثل هذا العصر ؟ » ولوحت المتسكحة بذراعها للتأثير « ولكن أي مقال بديع حبره يراع ايليزيافيتش ؟ إنه في الحقيقة سيد موهوب . » وكانت تلك عادة أخرى لايفدوكسيا ، عادة استعمال كلمة السيد بدل الرجل بصورة دائمة « يا بزاروف أرجوك أن تجلس بجاني على الأريكة . قد لا تعلم بأنني خائفة منك ؟ »

« ولماذا أنت خائفة مني إذا سمحت لي بارضاء فضولي ؟ »

« لأنك سيد خطر . إنك نقاد لاذع . يا لله إنني أتكلم بحضورك كما تتكلم ربة بيت في مجاهل السهوب . ولكني سيدة بيت فعلاً . إذ مع كوني أستخدم وكيلاً وطنياً اسمه ايروفي (وهو شخص ممتاز من نوع أبطال كوبر في قصصه عن الأدلاء ، مع قليل من الثقة بالنفس » فاني قد جمعت في يدي أعنة الإدارة . ولكن كم تثقل عليّ هذه المدينة ! أجل ورغم ذلك قد جعلتها مقري ، إذ لا مناص من ذلك . »

فلاحظ بزاروف دون اهتمام « هذه المدينة كبتية المدن . »

فعادت ايفدوكسيا تقول : « إن ملاحيا حقيرة . وهذا ما يزعجني . لقد كنت أقضي الشتاء في موسكو ، ولكن المسيو كوكشين الطيب يسكن

هناك وحده الآن ، وموسكو نفسها قد تغيرت ، ولهذا فأنا أستعد كل
هذه السنة للتيؤ لرحلة خارجية . »

« ستذهبن الى باريس على ما أظن . »

« نعم ومنها الى هيدلبرج »

« ولماذا الى هيدلبرج ؟ »

« كيف تسأل ذلك ؟ إن منزل الهر بنزن ^(١) العظيم هناك . »

ولم يستطع بزاروف أن يختار جواباً مناسباً

وعادت تقول : « هل تعرف بير سابوشنيكوف ؟ »

« لا . لا أعرفه . »

« إنك تجده دائماً في صالون ليديا خيستاتوف . »

« ولا أعرف هذا أيضاً . »

« حسناً : إن سابوشنيكوف سيكون حارسي في هذه الرحلة . لآني

أملك حريقتي على الأقل . وليس لي أطفال ولله الحمد ، ماذا قلت . لله الحمد ؟

لا يهم ذلك . ولست أدري لماذا أقولها . »

وافقت ايندوكسيا سيكارا بين أصابعها المصبوغة بالنيكوتين ، وبللتها

بلسانها لتأخذها ، ثم وضعتها بين شفيتها وأولمت ثقاباً ، ودخل الخادم

يحمل صينية .

(١) روبرت ويليم بنزن (١٨١١ — ١٨٩٩) كيميائي وطبيب

عالم هو مخترع مصباح بنزن والضوء المغناطيسي ومبتكر طريقة التحليل

الطيفي بالاشتراك مع كيرجوف .

« آه . لقد أتى الغداء . هل لكم بيمض الأكل . وأرجوك يا فيكتور
أن تفض ختم الزجاجة فهذا من اختصاصك . »
فهمهم : « إختصاصي ؟ أجل إختصاصي » وأطلق ضحكة
من ضحكاته .

وتسأل بزاروف بعد كأسه الثالثة : « ألا يوجد نساء جميلات في
هذه المدينة ؟ »

فأجابت ايفدوكسيا : « أجل . ولكنهن عديمات النفع ، فارغات
العقول ، وعلى نسق واحد . خذ مثلاً إحدى صديقاتي مدام اودينتسوف .
فهي ليست قبيحة ، لا شيء ، تأخذه عليها سوى سمعة مريية ، شيء ، لا أهمية
له بخود ذاته ، ولا يمكنها مع الأسف غير مستقلة في رأيها ولا ثقافة عميقة لها .
إن الطريقة في تقويم النساء عندنا تحتاج الى تغيير جذري ، وأنا نفسي
قد فكرت بالأمر كثيراً ، وقد توصلت الى نتيجة أن المرأة عندنا تعلم
تعليماً سيئاً . »

فوافق سيتنيكوف : « نعم كل ما يمكن أن تصنع مع المرأة هو أن
تحتقرها . وأنا أحتقر المرأة فعلاً . » وكان يلذه كثيراً أن ينتهز كل فرصة
يظهر بها إحتقاره لشيء ، أو فرجه بشيء ، وهو يختار المرأة دائماً هدفاً
للهجوم ، ولم يخطر بباله بأنه بعد بضعة أشهر سيقدّر له أن يتمرغ
على قدمي واحدة منهن ، وستكون زوجته ، وأنه سيفعل ذلك لسبب
واحد ، هو أن تلك المرأة ولدت واسمها البرنيسية دوردوليوسف .
وعاد يقول : « لا . لا واحدة منهن تستحق أن تنال حقاً في محادثتنا ولا

واحدة منهم تستحق إتباع الرجل المفكر الجدي . إنها لترى جانباً باحتقار .

فقال بزاروف ملاحظاً : « ولكن لا حاجة لنا مطلقاً لأن تهتم واحدة منهم بحوارنا . »

فاعترضت ايفدوكسيا بقولها : « ماذا تعني ؟ »

« النساء الجميلات الماهرات . »

« ماذا ؟ أرى أنك تتفق مع برودون ^(١) في هذا الأمر . »

فاعتدل بزاروف وقال ملاحظاً : « أنا لا أتفق مع أي رأي . إن لي آراء خاصة . »

وصاح سيتنيكوف بالفرنسية وقد سرته تلك الفرصة غير المرتقبة ، ليتظاهر أمام الرجل الذي يعبده : « فليسقط كل الثقة قاطبة »

فبدأت مدام كوكشين تقول : « ولكن حتى ما كولي ... »

فزأر سيتنيكوف مقاطعاً : « فليستط ما كولي أيضاً . كيف تستطيعين دفاعاً عن هذه الدمي ؟ »

فقالت مدام كوكشين : « أنا لا أدافع عنهم مطلقاً . إنني أدافع عن حقوق المرأة . تلك الحقوق التي خلقت لأدافع عنها حتى آخر قطرة من دماي . »

(١) بير جوزيف برودون (١٨٠٩ — ١٨٦٥) باحث فرنسي

من تعاليمه أن الفوضوية هي قمة كل تقدم اجتماعي .

فبدأ سيتنيكوف يقول : « فليسقط » ثم توقف وأضاف بصوت
واطيء : « إني لا أشجبهن »

« شجبتن لأنك سلافوفيلي كما أرى ذلك واضحاً . »

« بالعكس . إني لست سلافوفيلياً رغم أنني ... »

« بل أنت سلافوفيلي . أنت تؤمن بمساديء دي مونستروا (١) »

وتريد أن تحمل دائماً سوطاً بيدك تلذع به المرأة . »

فلاحظ بزاروف بقوله : « إن السوط ليس شيئاً قبيحاً إذا كان في

محلّه ولكن كما قد وصلنا إلى آخر قطرة من ... »

فقاطعته ايفدوكسيا : « آخر قطرة من ماذا ؟ »

« آخر قطرة من الشغبانيا أيتها المبهجة ايفدوشيا نيكيتشنا »

لا من دمائك .. »

فذهلت ايفدوكسيا : « لا أستطيع أن أبقى ساكنة غير مكترثة إذا

ما سمعت شتماً يوجه إلى بنات جنسي . إنه فطيع فطيع جداً فبدلاً من

أن تشتمونا عليكم أن تقرأوا مؤلف ميشيل عن الحب . ما أعظمه من

مؤلف . فلنتحدث عن الحب . »

ووضعت ذراعها برشاقة فوق أحشية الأريكة الساقطة من محلها .

وساد سكون فجائي .

(١) مؤلف غريب يرجع إلى القرن السادس عشر يسند عادة إلى

القسيس سلفستر فخواء كيفية إدارة البيت وهو يعطي صورة فظيعة

لسيطرة الزوج الروسي القديم على زوجته .

وأخيراً قال بزاروف : « ماذا عندنا لنقول عن الحب ؟ لقد ذكرت في السياق سيدة اسمها مدام اودينتسوف ، على ما أظن ، فمن هي ؟ »
 فأجاب سيتنيكوف بصوت موصول : « امرأة ساحرة جداً ، وماهرة أيضاً ، وهي أرملة غنية . ومن المؤسف أنها غير متطورة ، وهي ، إذا ما زادت صلتها بصديقتها ايفدوكسيا ، فستكون لها دنياً من الحيرات . إنني أشرب نخب صحة ايفدوكسيا . دعونا نقرع الكؤوس ونغني :
 اى توك اى تن تن تن . اى توك اى توك اى تن تن تن . »
 « لقد بدأت تهذي يا فكتور . »

استمر الغداء مدة طويلة وتبعته الزجاجة الأولى ثانية وثالثة ورابعة أيضاً . وكانت ايفدوكسيا لا تنقطع عن الثثرة ، فكانت هي الأولى وسيتنيكوف ثانياً . وقد تحدث الاثنان ، بصورة خاصة ، عن الزواج وسمياه نتاج التعصب والريزية ، وعن ولادة الانسان متساوياً مع غيره بالحقوق ، وعن مكونات الشخصية . ثم جلست ايفدوكسيا الى البيان وبدأت تعزف بعد أن احمر وجهها من تأثير الشراب ، فحركت أصابع يدها المنبسطة على المفاتيح ، وأخرجت أنغاماً بحّة . وعزفت أولاً انشودة غجرية ثم قطعة « سيمور سكيف الغنائية » و « نامت غرناطة الحاملة » بينما رمى سيتنيكوف غطاءً فوق رأسه ليمثل الحبيب الميت ورافقها في هذا المقطع من القصيدة « والتصقت شفاهنا الملتهبة في قبلة لذيدة مرتقبة . »
 وأخيراً نفذ صبر أركادي فقال متذمراً : « أيها السادة هذا مستشقى مجازيب ليس غير . »

أما بزاروف فما كان يفعل سوى أن يطلق كلمة سخرية بين حين وآخر ، وكان منصرفاً الى الشمبانزا . وأخيراً نهض مع أركادي وغادرا المنزل دون كلمة ، حتى لوداع المضيقة ، وتبعهما سيتنيكوف .

وقال الأخير وهو يقفز عن يمينهم ويسارهم : « ما رأيكما بها ؟ آه ها . ألم أقل لكما إنها شخصية ممتازة ؟ ليت كل نساءنا مثلها ! إنها ذات أطوار خاصة . فيا لها من ظاهرة أدبية عالية . »

فقال بزاروف ملاحظاً وهو يشير الى حانة مرا بها : « ومؤسسة أجدادك هذه ؟ أهي أيضاً ظاهرة أدبية ؟ »

فأطلق سيتنيكوف قرقرة أخرى من قرقراته الحادة ، ولكنه خجل من وضاعة أصله ، وظل حائراً لا يدري أيعتبر ذلك المزاح ، غير المنتظر ، من بزاروف ، ملاطفة أم تحقيراً .

لويس ميشال (١٨٣٠ — ١٩٠٦) فوضوي فرنسي عاش في لندن مدة طويلة .

الفصل الرابع عشر

بعد بضعة أيام أقيمت الحفلة الراقصة في دار الحاكم ، وكان ماتفي ايلييتش ضيف الشرف فيها . أما نقيب الأشراف الذي كان في حرب مع الحاكم ، فقد صرح علناً ، ولكل فرد من الحاضرين ، بأنه لا يليق بماتفي ايلييتش أن يتكرم بقبول الدعوة . أما الحاكم فقد دأب كعادته ، قاعداً أو واقفاً ، على إعطاء سلسلة من الأوامر . وكان سلوك ماتفي اللطيف مما يتناسب مع عظمته . فقد كان يتسم لكل فرد ، فلبعض بغطرسة وكبرياء ، وللبعض بشيء من الاحترام ، أما للسيدات فقد كان ينحني ويتلوى على طريقة الفارس الفرنسي الحق ، ثم يضحك ضحكة رائعة صافية تليق بالأمراء . وكان يرت على كتف أركادي ويدعوه بصوت عال بـ ابن أخيه ، ويكرم بزاروف الذي حشر نفسه في لباس سهرة ضيق قديم ذي ذيل طويل بصعوبة كلية . وبمزيج من ترفع كثير وتواضع قليل ، كان ينظر الى المدعوين نظرات فاحصة بجانب عينية . ويتمتع عبارات مجاملة مبهمة لا يستبان منها إلا تنف من الألفاظ ، مثل أنا ونعم وجداً . وأخيراً قدم لسيتنيكوف طرف إصبعه ، مصحوباً بابتسامة ،

وأدار وجهه بنفس اللحظة . وأسبغ على مدام كوكشين كلمة فنانة ، وكانت هذه قد ارتدت لباساً خشناً ، وياقة صلبة ، وقفازين قذرين . وشكت في شعرها دبوساً على شكل طير الجنة . كان المدعوون عدداً كبيراً ، ولم يقصر الرجال في تكريم النساء ، حقاً إن أغلب المدعوين قد حشروا حذاء الحائط ، ولكن العسكريين كانوا يرقصون بحماسة ، وخصوصاً ضابطاً قدم حديثاً من سفرة ستة أسابيع قضاها في باريس ، حيث تعلم الكلمات البذيئة المستعملة في أحياء باريس المنحلة ، مثل : زوت ، آد فيشتور ، وبست بست ياطفلي ، وأمثالها ، يستعمل هذه الألفاظ المضحكة في مواضع إبداء العطف ، بلهجة متشرد باريس صميم . وكان يستعمل عدة كلمات فرنسية في غير معناها . وبالاختصار كان هذا الضابط يرطن رطانة روسية فرنسية بشكل يجعل الفرنسي يضحك ويتندر . ولا يتردد ، اذا ما رأى كلامه لا يخرج عن حدود الأدب ، عن مصارحة أصدقائه الروس ، بأن الروسي يتكلم اللغة الفرنسية كما تتكلمها الملائكة .

وقد كان أركادي كما علمنا راقصاً غير ماهر ، وبزاروف لا يرقص أبداً ، ولذلك انفرد الاثنان في زاوية وانضم اليهما سيتنيكوف . ونظر سيتنيكوف حواليه بعد أن استعاد وجهه بسمة الاحتقار المعتادة ، وأطلق ملاحظات انتقادية جارحة ، وكانت ملاحظاته مرحة يستنبط منها مادة للسخرية المضحكة . ولكن سرعان ما تبدلت حاله ، فالتفت الى أركادي وقال وقد جدّ جدّه : « هي ذي مدام اودينتسوف . »

وتطلع أركادي فرأى في المدخل امرأة طويلة ملتفة برداء أسود .

فأذهلته فخامة عربتها بصورة خاصة ، والوضع الرشيق لذراعيها العاريتين
بجانب قامتها المعتدلة . وتدلّت من شعرها البراق الى كتفيها المستديرين
أزهار جميلة ، وأطلّت من تحت جبينها المرتفع قليلاً ، عينان براقتان ،
تبعث منهما نظرات هادئة غير حاملة بتبسمان ابتسامة محبوبة . لقد كان
الوجه على العموم يحوي رقة ورحمة وقوة كامنة .

وسأله أركادي : « أتعرفها ؟ »

فأجاب سيتنيكوف : « معرفة صديق قريب . أأقدمك لها ؟ »

« أجل من فضلك ، ولكن انتظر حتى ختام هذه الرقصة . »

ولفت نظر بزاروف أيضاً منظر هذه السيدة فصاح : « ياله من

وجه ليس في الصالة شبيه له . »

وحالما انتهت الرقصة قاد سيتنيكوف أركادي الى مدام اودينتسوف .

ونظرت الأخيرة الى الأول مستغربة ، فهل يرجع استغرابها الى طريقة

سيتنيكوف الحالية من التكلف عند التعريف ؟ أم لأنه كان يتعثر

بكلماته ؟ وعلى كل حال فما كادت تسمع باسم عائلة أركادي حتى أبرق

وجهاً ، وتساءلت ما اذا كان هو ابن نيقولايتروفيتش ؟ فأجاب

أركادي : « أجل »

« إذن فقد كان لي شرف الالتقاء بأبيك مرتين ، وقد سمعت عنه

شيئاً كثيراً أيضاً ، واني مسرورة جداً بمعرفتك . »

وفي تلك اللحظة تقدم ضابط وطلب أن تسمح له بالرقصة التالية

فقبلت الطلب .

فصاح أركادي بلمهجة احترام عظيم : « إذن فأنت ترقصين ؟ »
« أجل فما الذي يجعلك تعتقد بأنني لا أرقص ؟ أأبدو كبيرة
السن جداً ؟ »

« آه . لا مطلقاً ، ولكن ربما تسمحين لي برقصة مازوركا . »
فابتسمت مسرورة وقالت : « اذا شئت » ثم أخذت تنظر اليه نظرة
ترفع ، ولكنها أشبه بنظرة أخت كبيرة متزوجة الى أخيها الصغير جداً ،
ومع أنها لم تكن أكبر منه كثيراً ، إذ أدركت سن التاسعة والعشرين ،
فقد كان وجودها يشعره بأنه تلميذ مدرسة صغير . ويجمل الفرق في
السن بينهما يبدو أكثر مما هو . وتودد لها ماتفي ايلييتش مرة أخرى
بغطرسة ، مستعيناً بوضع كلمات ذليلة ، فابتعد أركادي قليلاً ، وظل ينظر
اليها ، ولم يرفع عينيه في الحقيقة عن شخص فالتته حتى انتهت الرقصة .
وكانت المحادثة بينها وبين المسكرم بتلك الدعوة مصحوبة بوضع حركات
من الرأس والعينين ، وأطلقت ضحكة خافتة مرتين . كان أنفها يميل الى
الكبر قليلاً كأنوف كل الروسيات ، وما كان في لون جلدها ما يعيبه ،
ومع ذلك فقد أيقن أركادي بأنه لم يصادف في حياته امرأة ذات شخصية
جذابة كهذه . لقد ظل صوتها يرت في اذنيه بصورة مستمرة او حتى
ملابسها كانت تظهر مختلفة عن ملابس غيرها من النساء . لقد كانت
الملابس فوق جسمها الممتدل أكثر اتساقاً ، وقد كانت كل حركة من
حركاتها لطيفة غير متسكفة .

ولما عزفت الموسيقى آخر ألحان المازوركا ، وأخذ أركادي محله بجانب

شريكته ، واستعد أن يخوض معها في الحديث ، شعر بشيء من الخوف
وبقي لشدة اضطرابه يسمح شعره بيده دون أن يجد كلمة يقولها . ورغم
ذلك فلم يستمر هذا الحجل والاضطراب طويلاً . وسرعان ما سرى
اليه هدوءها ، وخلال ربع ساعة حدثها عن أبيه وأمه وعمه وعن
سنت بترسبورج وعن الريف . وبقيت تصفي له مسرورة ، وهي تفتح
مروحتها وتقفها بلطف . ولم يقطع أركادي ثرثته إلا عندما كان يتقدم
منها بعض من يروم الرقص ، وقد فعل سيتنيكوف ذلك مرتين . وكانت
كلما عادت الى محلها يجدها هادئة ، حتى أن صدرها لم يزد ولا خفقة
واحدة ، فبحث معها حديثاً جديداً ، وكان يشبع نظره بعينها اللطيفتين ،
وجبينها الناصع وقوامها الرقيق ، وشخصيتها المبهذة ، وصفاتها العذبة .
أما هي نفسها فقد تحدثت قليلاً . ولكن كل عبارة من عباراتها كانت
تظهر علماً بالحياة ، مما يدل على أن هذه المرأة قد فكرت كثيراً
وشعرت كثيراً .

وسأله : « من كان معك قبل أن يقدمك لي سيتنيكوف ؟ »
فصاح أركادي : « إذن فقد لحظت صديقي . أليس وجهه رائعاً ؟ ان
اسمه بزاروف . »

ولما أتيت له فرصة التحدث عن صديقه أسهب كثيراً ، وتكلم
بحماسة شديدة دفعت مدام اودينتسوف الى أن تلتفت لتنظر الى هذا
الصديق ممعنة . ولكن سرعان ما اقتربت موسيقى المازوركا من نهايتها ،
وشعر أركادي بكره لذلك النظام الذي سيحرمه من تلك الرفيقة التي

قضي معها ذلك الوقت الطيب . حقاً لقد شعر بأنه يعامل معاملة الصغير ، وأن عليه أن يرضى ، ولكن مثل هذه الأمور لا تؤلم ذوي النفوس الفتيّة . وانتهت الموسيقى بنغمة باّة .

وقالت مدام اودينتسوف : « شكراً » ثم نهضت وقالت : « لقد وعدتني أنت تأتيني لزيارتي ، فأنت بصديقك معك . إذ أثرت فضولي ورغبتني بمشاهدة هذا المتهور الى حد عدم الاعتقاد بشيء . »

وتقدم الحاكم منها بهوراً ، وأعلنها بحلول موعد العشاء . فتناولت ذراعه الممدودة اليها ، ثم التفتت وأومأت الى أركادي مبتسمة فانحنى لها وظل يتبعها بأنظاره . ما أعدل قوامها تحت طيات رداءها الأسود ! وقال لنفسه : « ستسأني قريباً » واجتاحت نفسه موجة من الذل ، ثم التحق بزاروف في ركنه .

فقال صديقه : « حسناً . هل تمتعت ؟ لقد قال لي رجل وآخر إن السيدة التي أنت بصدددها — ولكنه أحق ، ما تظنها ؟ »

فأجاب أركادي . « إني لم آخذ عليها شيئاً . »

« هيا هيا أيها الصديق البري . »

« على كل حال إن ما أخبرك به هذا المخبر لم ألاحظه أنا . إن السيدة

جميلة . ولكنها باردة جامدة . مثل . مثل . »

فقال بزاروف مستدلاً : « مثل بركة ساكنة . أجل كلنا نعرف مثل هذا الشيء . إنك تقول إنها باردة ، ولكنها قضية ذوق ، فربما كنت أنت كالثليج . »

فأجاب الآخر : « أجل إنني لكذلك ، ولكنني لا أستطيع أن أحكم على أمثالها . ومهما كان الأمر فقد رغبت أن تتعرف بك أيضاً وقد طلبت مني أن آخذك معي لزيارتها . »

« إنني أعرف جيداً كيف وصفتني لها وصفاً مثيراً ، ولك الحق أن تفعل . وسواء أكانت ابوءة هذا الاقليم ، او سيدة متحررة كالسيدة كوشكين ، فلها على الأقل كتمان لم أر لها مثيلاً منذ عدة أيام . »
فانكمش أركادي لتلك المظاظاة ، وأخذ يؤنب رفيقه ، كما اعتاد أن يفعل في مثل هذه الظروف ، على أمور لا علاقة لها بالموضوع ، لينفَس عن غيظه .

فسأل بصوت خافت : « لماذا تنكر على المرأة أن تكون حرة الفكر ؟ »
« لأنه يا سيدي العزيز ، وحسب اختباراتي في الحياة ، لا امرأة حرة الفكر . ، إلا إذا كانت غريبة عن بنات جنسها . »
وعندها انتهت الحادثة بانتهاء العشاء ، وانصرف الصديقان .

ولما تركا الغرفة تبعتهما مدام كوشكين هائجة الأعصاب ذليلاً ، ومع ذلك فقد كانت عيناها تومضان ، وهي تبسم ابتسامة مدرك عارف .
ذلك أنها شعرت بأنها جريحة الشعور ، لأن الشابين لا يلتفتان إليها مطلقاً . ورغم ذلك فقد بقيت في المرقص بعد أن تركه أغلب المدعوين .
ولما دقت الساعة الرابعة صباحاً رقصت البولكا على الطريقة الفرنسية مع سيتنيكوف ، وبهذا المشهد المذهب انتهت الحلقة .

الفصل الخامس عشر

قال بزاروف لأركادي في اليوم التالي ، وهما يصعدان درج الفندق حيث تقيم مدام اودينتسوف : « فلنر الآن الى أية فصيلة تنتمي هذه المخلوقة الصغيرة ؟ إنني لأشم رائحة الفضيحة في الهواء . »

فانفجر أركادي يقول : « إنك تدهشني . هل أنت . أنت بزاروف تحمل هذه العقلية الضيقة عن الفضيلة التي ... »

فصاح بزاروف باحتقار : « مجنون ، ألا تعلم أننا نستعمل في جدلنا وفي تعريف الأشخاص ، عبارة غير لائق محل عبارة لائق ؟ ومهما كانت الحالة فاني لأشم رائحة الدرهم هنا . إنك نفسك قد أخبرتني بأن مدام اودينتسوف قد تزوجت زواجا غريباً . أليس كذلك ؟ أما أنا فأرى كل شيء في زواج رجل عجوز موسر ، إلا أن أراه غريباً ، ولا أرى فيه دليلاً على الحطة . حقاً إنني لأعير بعض الاشاعات الدائرة في المدينة قليلاً من الاهتمام ، ولكنني أفضل في النتيجة أن أعتقد أن لهذه الاشاعات أساساً صحيحاً ، كما يقول حاكنا المثقف . »

ولم يجب أركادي ، ولكنه نقر على باب شقة المدام ، ففتح الباب ،

وتلقاها خادماً بزة رسمية ، ورافقهما الى غرفة واسعة مؤثثة بأثاث لاذوق فيه ، هو أثاث الفنادق الشائع في روسيا ، وكان الشيء الوحيد الشاذ عن هذا الذوق ، الأزهار التي ازدانت بها الغرفة ، تلك الأزهار التي كانت منتشرة في كل مكان . ودخلت المدام على الفور ، مرتدية رداءً صباحياً بسيطاً ، وكانت تبدو أصغر سناً ، في ضوء صباح الربيع ، مما كانت عليه في المرقص .

وقدم أركادي صديقه بزاروف تقديماً جافاً ، واعتزته دهشة وهو يقوم بذلك ، إذ بدا على صديقه الارتباك ، بينما كانت المدام هادئة كعادتها ، وقد شعر بهذا النقص بزاروف نفسه ، فأغاضه ذلك وقال لنفسه :
« فوه . يالها فكرة أن أكون خائفاً من امرأة ؟ »

ومع ذلك فقد ألقى نفسه على كرسي ، وانطلق يتكلم بلهجة التأكيد والمبالغة ، كما يفعل سيتنيكوف ، مع المرأة الجالسة قبالة ، والتي سددت لحاظها البراقة بانتباه اليه .

تنحدر اناسيرجيفنا اودينتسوف من صلب أب اسمه سيرجي نيكولايفيتش لوكنيف ، وهو مقامر مشهور ومضارب ظريف ، وبعد خمس عشرة سنة من عمرها ، بددها في سنت بترسبورج وموسكو ، حيث أضع كل ثروته ، وجد نفسه مجبراً على الانعزال في الريف ، حيث مات بعد مدة قصيرة ، خلفاً لابنته أنا وعمرها عشرون ، ولابنته الاخرى كترين وعمرها اثنتا عشرة سنة ، ما يكفيهما لسد الرق . أما أم الفتاة ، وهي منحدره من بيت البرنس (س) المفتقر ، فقد توفيت

في أيام السعد ، يوم كان زوجها في بترسبورج . ولهذا أصبح مركز
أنا بعد موت أبيها حرجاً جدياً . فان التعليم الراقي الذي نالته في العاصمة
ما كان يسعفها في إدارة منزل ومقاطعة ، ولا على احتمال الحياة في الريف .
وفوق ذلك فما كان لها صديق واحد بين جيرانها الريفيين ، تلتجى إليه
في طلب النصيحة والارشاد ، لأن أباهما كان قد عمل كل ما في وسعه لتجنب
جيرانه ، فقد كان يحتقرهم كما يحتقرونه . ورغم كل ذلك فإن أنا أرسلت
وراء خالتها الأميرة أفدوسيا ستيبانوفنا (س) ، تلك المرأة الحقود
المتكبرة ، التي ما كادت تصل حتى استولت على كل الغرف الحسنة في
المنزل ، وشرعت تضع وتصخب من الصباح حتى المساء ، وترفض الخروج ،
حتى إلى الحديقة ، دون أن يكون خادمها الخاص وراءها . وهذا الخادم
وصيف ذو منظر كريه ، يرتدي بزة رسمية خضراء باهتة اللون ، وياقة
زرقاء ، وقبعة مثلثة الزوايا ، فاحتملت أنا كل ذلك وأكبت على تعليم
أختها . وقررت أن تعيش في عزلة بقيمة حياتها . ولكن القدر أراد
غير ذلك . وذلك أن شخصاً ثرياً يدعى اودينتسوف ، منفتح البطن ضخيم
الجسم ، عبوساً ، مصاباً بالسويداء ، بل نصف معتوه ، عمره ست
وأربعون سنة ، وهو رغم صفاته هذه غير سخيف ولا قاسٍ ، صادف
أن رآها وتدلّه بحبها ، فعرض عليها الزواج فقبلت . وعاش الزوجان ست
سنتين ، ثم مات الزوج تاركاً لها كل ثروته . وبقيت في السنة التالية لوفاته
في الريف ، ثم رحلت مع أختها إلى الخاراج ، لكنها لم تذهب إلى غير
ألمانيا . وضجرت في البلاد الأجنبية ، فناقت إلى الرجوع إلى نيكولوسكوي

المحبوبة التي تقع على بعد بضعة فراسخ من المدينة المذكورة .
وكان تحت تصرفها في نيكولوسكوى منزل فخم مؤثث بأثاث أنيق ، ذو
حديقة جميلة وبساتين من أشجار الليمون ، فقد كان اودينتسوف المرحوم
قد وفر فيه كل ما يتوق المرء اليه . ولما كانت أنا لا تظهر في المدينة إلا
نادراً ، ولأموار تتعلق بالعمل فقط ، كَوْن المجتمع في المدينة عنها فكرة
سيئة ، وصار يلوك حادثة زواجها باودينتسوف ويروي عنها حكايات
لا يصدقها العقل ، عن قيامها بمساعدة أبيها في فضائحه الشنيعة ، وأن
ذهابها الى الخارج كان لأمر ما ، وأن نتائج حادثة سيئة قد حدثت في هذه الرحلة ،
قد أخفيت . وكان رواية هذه الحرافات اللبق يردد : « إنني أقول لك إنها
قد سقطت في الطاحون وبقيت تطحن مدة طويلة » وقد وصلت هذه
الاشاعات اليها صدفة ، ولكنها تجاهلتها باحتقار ، فقد كانت ذات طبيعة
مستقلة جريئة .

وجلس على الكرسي ذي المساند جلسة استرخاء وانبساط ، واطاعة
يداً فوق أخرى ، وأصغت الى خطاب بزاروف ، وقد كان هذا على
خلاف عادته يتكلم وأعصابه متوترة ، وكان واضحاً أنه يريد أن يدخل
السرور الى نفس سامعته . وقد أدهش أركادي هذا الأمر أيضاً ، رغم
أنه عجز أن يستبين مقدار نجاح بزاروف فيما يرمي اليه ، إذ أن وجه أنا
سيرجيفنا لم يبد عليه ما يعينه على إدراك الحقيقة ، فقد احتفظ وجهها
بطابع اللطف والأدب ، وبقيت عيناها ترسلان نظرات ساكنة غير
مضطربة . حقاً لقد أعطتها شدة بزاروف أول الأمر فكرة سيئة عنه ،

فبدأ عليها مظهر من يشم رائحة عفنة ، أو يسمع ملاحظة سخيفة ، ولكنها فهمت بالتدريج أن حالته تلك ناشئة عن اضطرابه ، وقد سرها أن يكون لها مثل هذه القيمة عنده . إن ما تشمئز منه هو الحقارة وحدها ، وليس ثمة من يهم بزاروف بذلك . وفي الحقيقة أن العجب لم يفارق أركادي لأنه ، رغم اعتقاده بأن بزاروف سيحاول مدام أودينتسوف بوصفها امرأة مثقفة ، فيتكلم عن آرائه وأطواره ، إذ قد أبدت سابقاً رغبتها في أن تستمع إلى رجل مهوور إلى حد عدم الاعتقاد بشيء ؟ فإنه لم يتكلم إلا عن الأدوية والمداواة بالداء وعن علم النبات . إن هذه المدام لم تضع وقتها عبثاً ، فقد قرأت كمية كبيرة من المؤلفات العصرية ، وهي تجيد التعبير عن آرائها بالروسية ، ولقد أدارت الحديث إلى الموسيقى مرة ، ولما رأت أنه لا يريد أن يعترف بقيمة الفنون ، رجعت إلى النبات ، رغم أن أركادي كان يسره أن يستمر البحث عن أهمية الموسيقى الوطنية . وخلال تلك الجلسة ظلت تعامل أركادي بنفس الكيفية السابقة ، وقد كان ما تقدره فيه مرح الشباب وبساطته ، ولا شيء غير ذلك . وهكذا استمرت هذه الجلسة معقودة ثلاث ساعات ، في محاورة غير مطردة ، ولكنها منعشة متناوبة .

وأخيراً نهض الصديقان ليودعها ، فدت أنا سرجيفنا لها يدها البضة الناعمة ، مع نظرات رقيقة ، وبعد أن فكرت مدة دقيقة قالت بحيرة ولكن بابتسامة لطيفة :

« إذا كان كلاكما لا يخاف من أن يقضي وقتاً كريهاً ، فأرجو منه

أن يأتي لزيارتي في نيكولسكوي . »

فصاح أركادي : « إنني أعتبر هذا سروراً عظيماً . »

« وأنت يا ميسو بزاروف ؟ »

فأجاب بزاروف بانحناء ، فأدهش ذلك أركادي مرة أخرى ، وزاد

عجبه لما رأى وجه صديقه يتضرج بحمرة الخجل . »

وقال الأصغر وهما خارجان الى الطريق : « حسناً . ما زلت تعتقد

أنها ... »

« لا أستطيع أن أحكم . ولكن الى أية بلورة من الجمد قد أحالت

نفسها ؟ » ثم سكت وعاد يقول : « وعلى كل ، فهي شخصية بارزة .

سيدة عظيمة . لا تحتاج الا الى خدم يرفعون رداءها وراءها ، والى

تاج فوق رأسها . »

فقال أركادي ملاحظاً : « ولكن ليس عندنا بين سيداتنا العظيمات

من تسكلم الروسية مثلها . »

« لا . ذلك لأنها قد عانت انبعاثاً ، وأكلت مما نأكل . »

« وأي سحر عظيم فيها ؟ »

« أنت تريد أن تقول أي جسد بديع لديها ! وما أليقه لطاولة

التشريح ! »

كفى كفى بالله عليك . إن جسدها ليختلف عن أجساد النساء جميعاً . »

« لا حاجة لك أن تخرج عن طورك أيها البريء الصغير . ألم أقل

أنها تحتل الصف الأول بين نساءنا ؟ أجل يجب علينا أن نزورها . »

« متى ؟ »

« بعد غد فليس لدينا مانعنا هنا ، ولا نريد البقاء لشرب الشمبانيا مع السيدة كوشكين ، السيدة العظيمة المتحررة ! لسنا نحن من يفعل ذلك . إذن فبعد غد يجب علينا أن نترك كل شيء ، ونذهب إليها ، وبهذه المناسبة إن مسكن أبي قريب من نيكولاسكوي ، لأن نيكولاسكوي تقع على الطريق الفلاني أليس كذلك ؟ »
« أجل . »

« مدهش . إذن فليس ثمة ما يعيقنا ، ولا يتأخر عن تلبية هذه الدعوة إلا المجانين والمغرورون . أكرر أن تركيبها الفزيولوجي بديع . »
وقضى الاثنان ثلاثة أيام مشرقة ولكنها غير حارة ، وهما يقطعان الطريق الى نيكولوسكوي ، وكانت الجياد الشعبية تخب عن رغبة ، وتهز أعطافها وذيلها المعقودة وجلجلها ، وكان أركادي ينظر الى الطريق ويتسم اسبب مجهول .

وقال بزاروف فجأة : « هنئي . إن هذا اليوم هو الثاني والعشرون من حزيران ، وهو عيد القديس الذي أتسب اليه ، وهو لا بد سيعاني . ألا يفعل ؟ » ثم أضاف بصوت خافت : « ولكن هنالك من ينتظرني في البيت هذا اليوم . حسناً . دعهم ينتظرون . »

الفصل السادس عشر

يقع القصر الذي تسكنه أنا سرجيفنا فوق راية ، بالقرب من كنيسة مبنية بالحجر ذات جدران صفراء ، وسقوف خضراء ، وأعمدة بيضاء ، ومدخل باطار مزخرف يمثل بعث السيد المسيح ، منحوت بالاسلوب اللاتيني ، وكان أهم ما يبرز فيه صورة محارب أسمر تملأ الخطوط التي تحتل كل الفراغ في الرسم . وامتدت القرية وراء الكنيسة بشكل جناحين ، باكوأخها القشية السقوف ومدآخنها غير المنتظمة . أما القصر الريفى فبنى بعين التصميم الذي بنيت به الكنيسة ، أي بالطراز المعروف بالاسكندري . وقوام القصر أيضاً جدران صفراء ، وسقوف خضراء ، وأعمدة بيضاء ، وتحمل واجهته شعار النبالة . وكان كلا البنائين من تصميم مهندس واحد ، من سكنة ذلك الاقليم ، صممه لاودينتسوف . وهذا المهندس رجل قليل الصبر ، كما يقول هو عن نفسه ، ذو ابتكارات استبدادية عابثة . وأخيراً بآنت الأشجار عن يمين المنزل ويساره ، في تلك الحديقة الأثرية ، وقام أمام المدخل ، صفان من شجر الشربين معقودة الأغصان .

واستقبل الصديقين تابعان ممشوقا القمديرتديان بزتين رسميتين ،
وركض أحدهما فوراً لدعوة رئيس الخدم ، وكان رجلاً ضخماً في ستره
رسمية ، تقدم فناد الضيفين الى سلم مفروش ببساط ، ومنه الى غرفة
بسريرين ومرافق كاملة ، كأدوات الزينة والدواليب وما أشبه ذلك ،
وكانت النظافة هي أوامر الخدم اليومية . كان كل شيء نظيفاً ، خالياً من
البقع ، وتشيع في الغرف روائح لطيفة ، فكانها غرف عمل وزير أو
صالون استقبال أمير .

وقال رئيس الخدم : « ستراكم أنا سرجيفنا بعد مدة نصف ساعة .
فهل من أمر ؟ »

فأجاب بزاروف : « لا أيها المحترم . عداكأساً من الفودكا صغيرة ،
إذا لم يكن في هذا الطالب ما يحط من قدرك . »
فقال رئيس الخدم بشيء من العجلة : « إن أمرك سينفذ فوراً » ثم
ذهب وحذاؤه يصوت .

قال بزاروف شارحاً : « يا للابهة ، كيف يجب أن نخطب المضيفه ،
ما رأيك ؟ بأسلوب مخاطبة دوقة أم ماذا ؟ »

فأجاب أركادي : « نعم . كما نخطب دوقة عظيمة . خصوصاً وأنها
قد دعتنا نحن الارستقراطيين المتنفذين لزيارتها . »

« أظن أنك تشير اليّ ، أنا خادمك الوضع — دكتور المستقبل ،
وابن دكتور ، وحنيد قد دلنت كما كان سبيرانسكي ^(١) » ولوى شففيه

(١) رجل دولة من العرب (١٧٧٢ — ١٨٣٩) نظم عدداً كبيراً =

بإتسامة واستطرد « هكذا ترى أن السيدة قد أخطأت خطأً مخيفاً ، إذ ليس لدينا مثل ذلك المميء الذي يسمونه السترة الرسمية ذات الذيل . أليس كذلك ؟ »

فهرز أركادي كتفيه بشجاعة ، ولكنه شعر بشيء من الخوف أيضاً . وبعد انقضاء نصف ساعة ، دخل الاثنان غرفة الاستقبال فوجداها واسعة ، مرتفعة السقف ، منظمة بأسلوب فني ، فيه شيء من قلة الذوق . وصفت حذاء الحائط أرائك من أثاث فخم من النوع الحديث المرغوب فيه ، وعلى الحائط ستائر سمراء ذات حواشٍ ذهبية براقية . لقد أوصى أودينتسوف المرحوم بصنع هذه الأشياء عن طريق صديق يدير حانوتاً للخمور في موسكو . وفوق منصة ، تتوسط الغرفة ، تنال ذو وجه مغضن ، وشعر ترابي ، يبدو وكأنه ينظر الى ائقادمين بقلّة ذوق لا حد لها .

فقال بزاروف : « هو »

ودخلت السكوتتيس نفسها تلك اللحظة ، وكانت مرتدية رداءً خفيفاً ، وقد جمعت شعرها وراء أذنيها بشكل جعلها ، بالإضافة الى وجهها الصغير النضر ، تبدو صبية صغيرة لئوباً .

وقالت : « شكراً لكما على محافظتكما على الوعد بزيارتي ، ولما كنتما قد تيّما ، فلي وطيد الأمل بأنكما ستجدان أغلب الوقت غير ممل ، وأريد أن أقدمكما لأختي لسبب واحد ، ألا وهو أنها عازقة ماهرة على البيان .

== من المشاريع المتعلقة بتحسين حالة الفلاح الروسي .

إنك لا تكترث بمثل هذه الأمور يا مسيو بزاروف ، ولكنك أنت
يا مسيو كيرسانوف تعبد الفن الموسيقي ، وإلى خالة مسنة تسكن معي ، وقد
يزورنا بعض الجيران للعب الورق . هذا فخوى دارنا . والآن فلنجلس .
أقلت المدام هذا الخطاب الصغير كدرس قد حفظته غيباً ، ثم التفتت
تتحدث مع أركادي . ولما علم أركادي بأن أمه كانت تعرف أمها ، وأن
أمها كانت موضع ثقة أمه ، في علاقتها الغرامية مع أبيه ، اندفع كالصبي
يتحدث بحرارة عن أمه الميتة . أما بزاروف فكان يقلب مجموعة من
الصور ، ويقول لنفسه ساخراً : « يا لي من شخصية ظريفة ! »

واقترحت القاعة سلوكية روسية جميلة مطوقة ، يسمع لخالبها ، صوت
عندما تركض . ووراءها فتاة في الثامنة عشرة ، سمراء الحيا ، صغيرة
العينين ، سوداوتهما ، وكانت تحمل سلة من الأزهار .

وقالت مدام أودينتسوف وهي تشير إلى الفتاة برأسها : « أختي كاتيا . »
وجلس كاتيا بجانب المدام ، وانكبت ترتب أزهارها ، بينما كانت
السلوكية ، واسمها فيفي ، تتقدم من الصديقين بالتناوب فتضع أنفها البارد
في يد كل منهما ، وتهز ذيلها .

وسألت مدام أودينتسوف أختها : « أجمعت هذه الأزهار بنفسك ؟ »
فأجابت الفتاة : « أجل . يا أنا سرجيفنا . »

« وهل ستلتحق بنا خالتك ؟ »

« نعم »

وكانت إجابات كاتيا ، مصحوبة بابتسامات رقيقة حية ، ولكنها

صريحة . وكل شيء فيها يدل على الصحة والشباب ، صوتها وتورد خديها ،
ويدها الصغيرتان الورديتان براحتيهما البيضاوين المرصعتين ، وكتفها
المنحنيان قليلاً . وكانت تحمر خجلاً على الدوام ، وتسحب أنفاسها
بطريقة مشوقة .

التفتت مدام اودينتسوف الى بزاروف وقالت :

« من المؤكد أن انشغالك بهذه الصور فيه شيء من قلة الجمالة ،
فليس فيها ما يعجبك ، فتقدم من فضلك منا ، واشترك معنا في الحوار .
فاقترب منها بزاروف وسألها : « عم تريد أن نتجادل ؟ »
« عن أي شيء تريد . ولكن فلا حذرک مقدماً بأني خصم جبار .
« أنت ؟ »

« أجل بكل تأكيد . إنك تلوح مستغرباً فلماذا ؟ »

لأنك ، كما أعلم ذات مزاج نائم بارد ، على حين أن الجدل يحتاج الى
مزاج حرك تحفزه الدوافع .

« كيف استطعت بمثل هذه السرعة أن تحكم على صفاتي ؟ إذن
فلا بد من إخبارك بأن كلتا الصفتين ، عدم الصبر وشدة الاهتمام ، هما من
من صفاتي . إسأل كاتيا إذا لم تصدق . واني أيضاً سريعة البادرة .
فألقي بزاروف نظرة عليها وقال : « ربما . لاشك أنك أدرى
بنفسك . وما دمت تريد أن الجدل فلنبداً بهذا — بينما كنت أتصفح
مجموعة مناظر سويسرا السكسونية ممتك تقولين انها لا تعجبني . لقد
قلت ذلك لأنك تعتقدين بأن الذوق الفني يعوزني . أجل إنني لكذلك ،

ولكن لماذا لا ترين أن الصور تهمني من الناحية الجيولوجية ، وذلك
بصفة كوني أرى أشياء تتعاق بكيفية تكون الجبال ؟ »

« اعذرنني ، ولكنك لو كنت جيولوجياً لفضلت تناول بعض المراجع
المتعلقة بهذا الموضوع لا النظر في بعض الصور . »

« آه . ليس هذا أمراً ضرورياً . إن الصورة تشرح لك ما يشرحه
كتاب بمائة صفحة . »

فلم تجب أنا سرجيفنا . ثم عادت فقالت : « حسناً . ما دمت لا تملك
أي ذوق فني فكيف تستطيع أن تحيا ؟ » قالت ذلك وهي تسكى على
المنضدة بوضع جمل وجهها قريباً من وجه بزاروف .

« الأولى أن أسألك أنا ما الذي يقدمه الذوق الفني للإنسان ؟ »
« إن به يستطيع الانسان ، على الأقل ، أن يقدر قيمة الناس . »
فأجاب : « بالدرجة الأولى ، والمطلب الأول لتوفر ما تقولين ، هو
الخبرة في الحياة . وبالدرجة الثانية ، أن دراسة الشخصيات المتصلة بنا
لا تساوي ما يبذل فيها من جهد . ذلك لأننا كلنا متماثلون في الجسم
والروح ، ففي كل منا طحال متشابه ، ودماع متشابه ، وقلب متشابه ،
ورئتان متشابهتان ، ومجموعة متشابهة مما نسميه الصفات الأدبية ،
ولا تدخل في هذا الحساب تلك الصفات المختلفة القليلة الأهمية ، ولهذا
فبواسطة نموذج واحد من البشر نستطيع أن نحكم على الباقين .
والمخلوقات البشرية في الحقيقة كالأشجار في الغابة ، فلا تجددين عالماً
نباتياً يدرسها ساقاً فساقاً . »

ونظرت كاتيسا ، وكانت ترتب أزهارها ، الى بزاروف متعجبة ،
وبذلك التقت نظراتها بنظراته المترفعة ، فاحمرت حتى اذنيها .
وهزت أنا سر جيفنا رأسها وصاحت :

« الأشجار في العابة . إذن فنت لا ترى فرقاً بين العاقل والمجنون ،
والصالح والطالح ؟ »

فأجاب بزاروف : « لا ليس الأمر كذلك ، بل بالعكس ، أعتقد
بوجود مثل هذا الفرق ، وهو فرق بين الصحيح والمعلول ، مثال ذلك
إن الرئة المصابة ليست كرتتي أورتك ، ومع ذلك فإن تصميمها وتركيبها
الأصلي متشابه تماماً . وهكذا نعلم الى حدٍ ما متى ينتج المرض . أما
المرض الأدبي فينتج عن فساد التربية والتعليم ، وإن لوف الجماعات التي
يصاب بها العقل تنشأ عن هذا . وبالأجمال إن كل الأوضاع الاجتماعية
الفسادة غير الطبيعية ، تنتج عن ذلك أيضاً . إجعلني تركيب المجتمع سليماً
تري جميع الأمراض الأدبية تختفي . »

وكان يتكلم كأنه يقول لها : « صدقيني أو لا تصدقيني فالأمر لدي
سيان » ومسح شاربيه بأصابعه الطويلة ، بينما توجهت عيناه كجمر
الفحم المتقد .

فعمقت أنا سر جيفنا على كلامه : « إذن فأنت تظن بأنه إذا صلح
المجتمع فإن الحق والأشرار سوف لا يكون لهم وجود ؟ »
« على كل حال ، إن المجتمع البشري إذا نظم تنظيماً صحيحاً ، فإن كون
الإنسان عادلاً أو أحمق ، خيراً أو شريعراً ، سوف لا نكون له أهمية تذكر . »

« آه . لقد فهمت . ذلك لأننا كلنا لنا طحال متشابه . »

« تماماً يا مدام . »

فالتفتت الى أركادي وسألته :

« وما هو قولك يا أركادي نيقولايفتش ؟ »

فأجاب : « إني أتفق مع ايفاجني . » وتلقى بدوره نظرة تعجب

من كاتيا .

وقالت المدام : « إني مستغربة يا سادة . وعلى كل فاني أسمع صوت

خطوات خالتي . فلنصن أذنيها عن سماع حديثنا ولنتابع جدلنا فيما بعد . »

كانت خالة أنا سرجيفنا امرأة صغيرة نحيفة ، ذات وجه كالطرقة ،

وعينين صغيرتين ضيقتين خبيثتين ، وجهه شهباء مخادعة . ولم تسبغ على

الضيوف أكثر من المحناءة بسيطة . وسرعان ما ألقت نفسها في أحضان

كرسي كبير مبطن بالقטיפفة خاص بها ، وحتى أن كاتيا لما تقدمت منها

ووضعت وسادة تحت قدميها ، لم تنظر اليها ولم تشكرها ، بل أسرع

فوضعت يديها تحت الشال الأصفر الذي كان يغطي كل جسمها ، وكانت

طاقتها أيضاً محلاة بشريط من نفس اللون .

وقالت مدام اودينتسوف وهي ترفع صوتها : « هل نمت جيداً

يا خالتي ؟ »

وتمتت العبوز لما رأت فيني تتقدم منها بخطوات مترددة : « الكلب

هنا أيضاً ؟ اطردوا هذا الوحش ، أقول أخرجوه . »

فنادت كاتيا الكلبة فيني وهي تفتح لها الباب لتخرج ، وركضت

الكلبة خارجة بسرور ، فقد ظنت أن سيدتها ستصحبها لانزهة ، وما كادت ترى نفسها مهجورة في الخارج ، حتى بدأت تحك الباب بمخالبها وتعوي ، مما جعل الأميرة تقطب ، واضطرت كاتيا الى الخروج مرة أخرى للافاة الأمر .

وعادت مدام اودينتسوف تقول : « إن الشاي جاهز كما أظن .
تفضلوا يا سادة . وأنت يا خالتي هل لك بشيء من الشاي . ؟ »
فقامت الأميرة عن كرسيها صامته ، وسددت خطاها نحو غرفة الأكل ، وهناك سحب خادم قوزاقي كرسيّاً ذا مساند من تحت المنضدة ، وكان كسابقه خاصاً بها . فغاصت فيه . وصبت كاتيا الشاي ، وأعطت خالتها الكأس الأولى ، فتناولتها العجوز وأضافت لها قليلاً من العسل . فقد كانت ترى أن في شرب الشاي محلي بالسكر وذيلة التبذير ، مع أنها لاتصرف فلساً واحداً من جيبتها الخاص ، ثم سألت بصوت أبج « ماذا يقول الأمير ايفان في رسالته ؟ »

فلم يرد عليها أحد ، وعندها أدرك بزاروف وأركادي بأنها ، بالرغم من معاملتها باحترام ، لا يعيرها أحد اهتماماً جدياً .

وقال بزاروف لنفسه : « إنهم يحتفظون بها في سبيل المظاهر . إنها باقية هنا لأنها متحدرة من أصل رفيع . »

واتهمى شرب الشاي ، واقترحت أنا التمشي ، ولكن بضع قطرات من المطر تساقطت ، فرجع الجماعة ، عدا الأميرة ، الى غرفة الاستقبال .
وعندها جاء أحد الجيران المولعين بلعب الورق ، وكان اسمه بورفيري

قد اكتسب صورة العناد لا صورة الغباوة .

وما كانت هذه الفتاة أليفة ، بل كانت هيابة في حضرة أختها التي ربّتها .
وما كانت هذه الأخت تلاحظ ذلك عليها مطلقاً . وأخيراً عادت الى
أزهارها ، ووجد أركادي نفسه مضطراً الى استدعاء فيني الى جانبه ،
وشرع يربت على رأسها .

وخسر بزاروف مراراً . إن أنا سرجيفنا كانت ماهرة في اللعب ،
وبورفيري بلاتوفيتش يستطيع أن يبعد عن نفسه الخسارة . وكانت النتيجة
أن قام الضيف الصغير بخسارة ، رغم عدم جسامتها ، إلا أنها خسارة
لايحملها جيبه . وبعد العشاء بدأت أنا سرجيفنا حديثاً عن علم النبات .
فقلت : « أريد أن تأخذني معك في نزهتك الصباحية ، وأرجو أن
تعلمني الأسماء اللاتينية للأزهار الشائعة في حقولنا . وطبيعة هذه الأزهار . »
فسألها : « ولكن أية فائدة لك من الأسماء اللاتينية ؟ »

فأجابت : « إن الدقة ضرورية في كل شيء . »
وقال أركادي لما وجد نفسه في خلوة مع صاحبه تلك الليلة في
غرفة نومهما :

« حقاً ، إنها امرأة عجيبة . »

فأجاب بزاروف : « إن لها لعقلاً وان لها أحلامها أيضاً . »

« في أي اعتبار ؟ »

« في خير الاعتبار يا صديقي ، في أحسن الاعتبار يا أركادي
نيقولايفيتش . واني على كل يقين أيضاً بأنها تدير ثروتها جيداً ، ولكن

الظاهرة المدهشة هي أختها ، لا هي . »

« أتلك ؟ تلك الشموس ؟ »

« أجل تلك الشموس . إن هذه الشموس تحوي عناصر الجدة والشباب والبراءة والرقّة والصمت ، وكل شيء فيها يثير الاهتمام . فهي من النوع الذي تستطيع أن تحيله الى ما تريد . أما الأخرى فليست إلا رغيفاً بائناً . »

فلم يحب أركادي ، وسرعان ما نام الاثنان ، وغرق كل منهما في أحلامه . وفي تلك الليلة كرسّت أنا سرجيفنا شيئاً كثيراً من أفكارها لضيئها . لقد أحببت بزاروف لحلوه من روح المجاملة المعتادة ، ولمراته في نقده ، فكأنها وجدت فيه شيئاً جديداً غير مألوف ، لم يمر بتجاربها ، كل ما فيه يثير الفضول .

وقد كانت هي أيضاً مخلوقة غريبة ، لا تتعصب لشيء ، بعيدة عن العقائد الشديدة الوطأة ، لا تلتفت لشيء ، وليس لها هدف معين . ومع أنها قد فتحت عينيها على أشياء كثيرة ، وذاقت مسرات الحياة مراراً ، فإن كل ذلك لم يروها إرواء تاماً ، وما كانت هي تريد أن ترتوي ، فقد كان ذكاؤها من ذلك النوع ، قليل الفضول ، عديم الاكتراث ، ذات شكوك لا تصل بها الى حد غير المعقول ، وإلهامات لا تصل بها الى حد القلق . حقاً إنها لو كانت قد مهّرت بأقل من تلك الثروة ، وأعطيت أقل من ذلك الاستقلال ، لربما كانت عرفت مرارة الشحناء ، وتعلمت طبيعة الرغبة . ولكن أحوالها الحسنة جعلتها تنظر الى الحياة بهدوء ، رغم أنها

كانت تجدها كريمة بعض الأحيان ، فتقضي أيامها رزينة هادئة بعيدة عن
العواطف الحادة . أجل قد تبرق في حياتها بوارق بلون قوس قزح ،
ومع ذلك فما أسرع ما تعود الى حالتها الطبيعية عندما تبهت تلك الألوان ،
دون أن يكدرها انقضاء تلك الأحلام . ومع أن خيالها يقودها بعض
الأحيان الى أن تدخل في ما يعتبر محرماً لدى التقاليد . فإن دمها يسير
سيره المعتاد في جسدها البارد ذي التكوين الساحر . وعندما تدخل حمامها
المريح ، عند ذاك فقط ، قد تتوهج في كيانها تلك الرغبة الخفية فتبدأ
تفكر بمسرات الحياة وأحزانها وأكدارها ومتاعها ، وتشعر فجأة بأن
روحها قد وصلت الى حد النزع ، وصارت تغلي بالمشاعر ، وحتى آنذاك
إذا ما هبت نفحة من ريح من نافذة قريبة ، فانها سرعان ما تهز كنفها ،
وترثي لنفسها . فتشعر بالتعب ، وتعود ولا شيء . يشغل بالها إلا أن تتخلص
من ذلك التيار الدخيل بكل الوسائل .

وهي أيضاً ، شأن كل امرأة لم تذق الحب ، تشعر دائماً بالحنين الى شيء
لا تدري كنهه ، فهي لا تحتاج شيئاً ، في الحقيقة ، ولكنها تحتاج كل شيء .
وقد احتملت اودينتسوف المرحوم بكل سرور ، فقد كان زوجها به
مقبولاً من جهة واحدة ، وما كانت لتقبل تلك الزيجة لولا أنها عرفت
أن الرجل طيب القلب . وبواسطة زوجها حصل عندها انطباع سيء عن
جنس الذكور ، فكانت تعتبر أفراد هذا الجنس لا يملكون غير البذاءة
والكسل والمتعبات والضئيف الأخلاقي . ولم تلق رجلاً جذبها الا مرة
واحدة حينما كانت خارج روسيا ، وكانت شاباً سويدياً ذا محيا رجولي

نبيل ، وعينين زرقاوين صادقتين ، وجبين وضاح ، وبالرغم مما أحدثته
من التأثير في نفسها ، فان ذلك كله لم يمنحها من الرجوع الى روسيا فوراً .
وقالت لنفسها وهي تدخل في فراشها الوثير ذي الحواشي الموشاة
والوسائد الحريرية الأوجه : « يا بزاروف هذا من رجل غريب ! »
ويمكن القول أنها ورثت عن أبيها حبه للذوق الرفيع والرغبة في التأنيق .
كانت ذكره ماتزال عزيزة عليها ، فقد كانت تحمل له حباً عظيماً ، وكان
هو أيضاً يعبدها ويعاملها معاملة الد ، ويمنحها ثقته كلها . وقد كان من
عادته أن ينشد نصيحته دائماً . أما أمها فقد كانت ذكرىاتها عنها
ضعيفة جداً .

وعادت تقول : « أجل إن بزاروف رجل غريب . » وبعد ذلك
بسطت أعضائها وابتسمت ووضعت يديها وراء رأسها ، وتصفحت مجلتي
فرسيتهن سخيقتين ، سقطت ثابتيهما من يدها ، إذ راح ذلك الجسم الأنيق
الملتف بالأغطية الأنيقة المعطرة ، في سبات عميق .

ولما انتهى الفطور في اليوم الثاني ، انطلقت مع بزاروف في رحلته
العلمية ، ورجعت قبيل الغداء . أما أركادي فلم ينادر المنزل ، بل قضى
ساعة مع كاتيا ، ولم يجد الوقت مملاً لأن كاتيا تبرعت باعادة عزف السوناتا
بدافع ذاتي . ومع ذلك فان قلبه وثب في صدره لحظة شاهد بزاروف
ومدام اودينتسوف يرجمان معاً . وقطعت المرأة الساحرة الحديقة بخطى
تعبية ، وكان خداهما بلون الورد ، وعيناها تبرقان ، تحت قبعتهما القشية
المستديرة ، بريقاً غير اعتيادي ، وبين أناملها ضمة من سيقان زهار

غريبة ، وكان رداؤها الخفيف قد انزلق وراء كتفها ، وشرائط قبعتها العريضة مدلاة فوق صدرها .

وكان بزاروف يمشي وراءها بما عرف عنه من أنفة واعتزاز بالنفس ، وعلى وجهه إمارات الجور والمرح ، ولكن أركادي لم تعجبه تلك الامارات . وتمتم بزاروف : « صباح الخير » ومضى في طريقه الى غرفته . وصاحته المدام مصافحة اعتيادية ثم تابعت طريقها .

وقال أركادي لنفسه : « صباح الخير ! يخيل للانسان حين يسمعها تقول ذلك أننا لم نتعارف إلا هذا اليوم . »

الفصل السابع عشر

من المفهوم جداً أن الوقت يطير أحياناً كالطير ، ويزحف أحياناً كالودودة . ولكن من المعتاد أن يكون الانسان سعيداً ، حينما يقصر عن إدراك سرعة الوقت أو بطئه ، وبهذه الكيفية الأخيرة قضى الصديقان ، بزاروف وأركادي ، اسبوعين عند مدام اودينتسوف . ويرجع بعض الفضل في ذلك الى الطريقة المحكمة التي كانت تدير بها منزلها وحياتها ، فهي مواظبة على النظام الذي فرضته ، وتجبر غيرها على اتباعه . فكل ما في المنزل يجري في ميقات دقيق . ففي الصباح ، في تمام الثامنة ، يجتمع من في الدار لتناول الشاي ، ومنه الى حين الغداء ، يفعل كل ما يريد . فتعمل ربة المنزل مع وكيلاها (إن مزرعتها تجري على نظام الاجارة) ورئيس خدمها ومديرة البيت ، وقبل العشاء يجتمعون للقراءة والمحادثة . أما المساء فيكرس للترفيه أو للعب الورق أو للموسيقى . وفي الساعة العاشرة والنصف تأوي أنا سرجيفنا الى مخدعها حيث تعطي أوامر اليوم الثاني ، ثم تنام . وما كان بزاروف يحب ذلك النظام الدقيق ، أو المواظبة المتكررة المملة في الحياة اليومية ، وكما يسميها هو (التحرك على سكة

حديد) ولكن الخدم ذوي البزز الرمية ، ورئيسهم ذا الأوشية ، كانوا يكرهون ميوله الديموقراطية . وكان بزاروف يصرح بقوله : « إذا تمادى الانسان في هذا النظام فانه حتماً سيصل الى النظام الانكليزي فيرتدي السترة المذيلة وربطة العنق البيضاء » وقد تحدث في الأمر صراحة مع أنا سرجيفنا مرة ، وقد وجد أن مزاجها لا يشجع على التمادي معها في مثل هذا الحديث . فاستمعت له ثم قالت شارحة : « أنت مصيب بوجهة نظرك ، وبهذا الاعتبار قد أبدو سيدة أرستقراطية ، ولكن لحياتة في الريف بغير نظام . إذ بدونه يقتلنا الضجر » وظلت تسير على نهجها الخاص ، فتذمر بزاروف ، ولكن الحياة المنطقية نفسها كانت سهلة عليه وعلى صديقه عند مدام اودينتسوف ، وذلك لأن كل شيء لديها كان (يسير على سكة حديد) ، ولذلك كله طرأ تغيير على الشابين منذ أول يوم قضياه في نيكولاسكوي . وقد بدأ بزاروف ، الذي كانت المدام ظاهرة السرور به ، رغم عدم اتفاقها معه في أشياء كثيرة ، يظهر إمارات التذمر ، وما ذلك من طبعه ، فصار سريع البادرة ، قليل الكلام ، يبدو كالمثألم ، فتراه لا يستقر في مكان واحد ، كأن شوقاً خفياً قد تملك زمامه . أما أركادي الذي دأب على التفكير بأنه يحب مدام اودينتسوف ، فقد استسلم الى حزن هادئ ، ولم يمنعه ذلك من أن ينشد صداقة كاتيا . بل ان ذلك دفعه الى أن يوطد هذه الصداقة ويتعمق فيها ، قائلاً لنفسه : « إن تلك لاتجبنني ، فليكن ذلك ، ولكن هي ذي مخلوقة طيبة لاتصدني » وبذلك زاد قلبه جمالاً ونبالة ، وقد شعرت كاتيا شعوراً مهماً ، بأنه ينشد

بصحبته شيئاً من السلوان ، فلم ترده ، ولم تصد عن نفسها صداقته ، التي
كان يمازجها الحجل ، وتخالطها الأسرار . وما كانا يتحدثان بمحضرة
أنا سرجيفنا ، فقد اعتادت كاتيا أن تنكش أمام نظرات أختها الصارمة ،
أما أركادي فكان ، شأن الحب لا يستطيع أن يلتفت الى غير موضع حبه ،
عندما يكون قريباً منه ، ولكنه كان يسعد بكاتيا وحدها . لقد كانت
كاتيا تشعره بأنه في منزله ، فكان يعاملها معاملة القريب ، ويشجعها على
إيضاح تأثير الموسيقى في نفسها ، أو على قراءة القصص والشعر وغير ذلك
من التوافه ، دون أن يشعر بأن هذه التوافه تجلب السرور لنفسه أيضاً .
وما كانت كاتيا تحاول من طرفها أن تطرد الحزن والضجر عنه . هكذا
كان أركادي يرتاح الى كاتيا ، ومدام اودينتسوف الى بزاروف ، وهكذا
فان كلاً من هذين الفريقين يسير في طريق خاص به ، بعد الاجتماعات
الضرورية . لقد كانت كاتيا تعبد الطبيعة وكذلك أركادي وكان لافتراق
الصديقين الدائم نتيجة لا بد منها ، فقد بدأت العلاقة بينهما تتغير ، فكف
بزاروف عن تحديث أركادي عن مدام اودينتسوف ، وكف حتى عن انتقاد
عاداتها الارستقراطية . وكان في الحقيقة يمتدح له كاتيا ، وينصحه أن
يستفيد من ميولها العاطفية ، ولكن مديحه كان خاطفاً ، ونصائحه جافة
وعلى العموم ، لقد قل حديثه مع صديقه ، وبدا عليه كأنه يتجنبه ، وأنه
على غير وئام معه .

ولاحظ أركادي كل ذلك وأخفى في نفسه ما لاحظته .

وكان السبب الحقيقي في كل هذا يرجع الى الشعور الذي أوحته الى

نفسه مدام اودينتسوف ، ذلك الشعور الذي كان يعذبه ويكاد يذهب بلبه ،
 ذلك الشعور الذي كان ينكر وجود مثله فيما مضى ، ويقابله بضحكة
 احتقار وانتقاد قاسٍ ، لو أخبره شخص بأنه سيتملكه يوماً . لقد كان
 بزاروف يحب الجمال والنساء حباً جماً ، أما الحب المجرد المثالي ، أو كما
 يسميه « المشاعر الخيالية » فقد كان يراه جنوناً ، أو حماقة لا تغتفر ،
 ويعتبر احترام الرجال للنساء وإكبارهن ، كما يفعل الفرسان ، عملاً ينتج
 عن طبيعة شاذة أو عن مرض . وقد صرح أكثر من مرة بأنه يعجب
 كيف أن توكنبرج وأضرابه من شعراء الغزل والفروسية لم يوضعوا في
 مستشفى مجانين . وقد اعتاد أن يقول : « إذا استبدت بخيالك امرأة
 فحاول أن تنتهي معها ، وإذا لم تتمكن فوالها ظهرك . إن في البحر مقداراً
 كبيراً من السمك الطيب » لقد استبدت بخياله مدام اودينتسوف ، وقد
 كانت الاشاعات الدائرة حولها ، وحرية ارادتها واستقلال شخصيتها ،
 وإعجابها الواضح به ، كل ذلك في صالحه . ولكنه سرعان ما وجد أنه
 لا يستطيع أن ينتهي معها ، ولا أن يولي لها ظهوره ، فحار حيرة شديدة ،
 إذ كان الأمر فوق طاقته . لقد كانت دماؤه تغلي بمجرد أن يفكر بها .
 وكان باستطاعته أن يضبط شعوره ، ولكن شيئاً عميقاً قد تأصل في نفسه ،
 شيئاً لم يسمح له بالدخول ، شيئاً يسخر منه ويشير كبريائه . لقد أوضح
 لانا سيرجيفنا في حديث معها ، احتقاره المطلق لكل المثل الخيالية ،
 ولكنه كان يعلم ، بينه وبين نفسه ، بأن المثالية في نفسه ذاتها فيحتقرها .
 ويعالج نفسه بالذهاب الى الغابة حيث يذرعها بخطى واسعة ، ويحطم

الأغصان التي تعترض طريقه ، ويلعن أسرته ويلعن نفسه سرّاً . أو يذهب الى تلال الهشيم في بيدر الحصاد ، فيأقي جسمه عليها ، ويحاول أن ينام بأن يغمض عينيه بعناد ، وما كان يفلح طبعاً في أغلب الأحيان . فقد كان خياله يعرض أمامه دائماً يدين رقيقتين ، ويصورهما ملتفتين حول عنقه ، ويصور الشفتين المتكبرتين تستجيبان له ، وتلك العينين الرحيمتين تفيضان رقة — أجل رقة تسكب في عينيه ، فيدور رأسه ، وينسى نفسه لحظة ، حتى تغلي كرامته في أعماق نفسه وتثور ، وعندها يحاول أن يفرق تلك الأخيلة بأخرى منحنطة مخجلة ، كأن شيطاناً يسوقه ويسخر منه . وقد يتصور أحياناً بأن تغييراً قد طرأ على مدام اودينتسوف ، وأن شيئاً قد ظهر في تعابير وجهها ، شيئاً خاصاً ، وأن ذلك الشيء قد يكون ... ، وعند ذلك يخبط الأرض بيده ، أو يصك أسنانه ، ويعصر بعنف قبضتيه .

ما كان بزاروف مخطئاً ، كل الخطأ ، فقد تملك خيال مدام اودينتسوف وأعجبها ، فكانت تفكر به كثيراً ، ولكنها ما كانت تحزن عند غيابها ، ولا تنتظره بفارغ الصبر ، بل كانت تفيض حيوية في حضرته ، وتحب الحديث معه حتى حين يؤذيها وينتقد ذوقها . لقد كانت تحب أن تستكشف حقيقته ، وتحلل شخصيته .

كان يوماً يتمشى معها في الحديقة ، فأعلن لها فجأة ، وبلهجة تدل على الإصرار ، بأنه قد عزم على السفر الى أيبسه . فايض وجهها ، كأن نوبة ألم حادة قد انتابتها ، نوبة تركتها تعجب مدة طويلة وتساءل عن

معناها . وما تكلم بزاروف عن رحيله ليمتحن حبها ، وليرى ما قد ينتج عن كلامه ، فما كان يحب التصنع . ففي صباح ذلك اليوم قابل وكيل أييه الذي كان يدلله صغيراً ، وهو تيموفيتش . وكان تيموفيتش هذا رجلاً تجاوز الكهولة ، ذا خبرة وفراصة ، شعره أصفر باهت اللون ، وقد غضنت وجهه تقلبات الجو ، وكانت عيناه صغيرتين مجعدتين ، تجول فيهما قطرات صغيرة من الدمع . ظهر فجأة أمام بزاروف بمعطفه القصير ، المصنوع من القماش الأزرق الثقيل ، ومنطقته الجلدية ، وحذائه المطليين بالقار .

فصاح بزاروف : « أهلاً أيها الرجل العجوز . كيف أنت ؟ »
فبدأ الرجل حديثه بقوله : « كيف حالك يا ايفاجني فاسيليفيتش ؟ »
وابتسم مسروراً ابتسامة أشاعت الغضون في كل وجهه .
« لم أتيت ؟ لقد أرسلوك بطلي ، أيه ؟ »

فتمتم تيموفيتش ، متذكراً وصايا سيده الصارمة التي أوصاه بها حينما أرسله : « كيف تفعل ذلك يا سيدي ؟ صدقتي ، بينما نحن ذاهبون الى المدينة في شغل ، إذ سمعنا أخباراً عن جنابك ، فانعطفنا ، ونحن في طريقنا ، لنرى جنابك ، لا لكي نزعجك »

فقاطعه بزاروف بقوله : « هيا لا تكذب . أهذا هو الطريق الى المدينة ؟ ألا تريد أن تصدقني الخبر ؟ » فلهث تيموفيتش ولم يجب . فقال بزاروف : « هل أبي بصحة جيدة ؟ »
« أجل والله الحمد . »

« وأمي ؟ »

« وكذلك أنا فلا سيفنا ، والمجد للرب . »

« إنهم في انتظاري كما أنظن ؟ »

فلوى الرجل العجوز الصغير رقبتيه جانباً وقال : « آه يا أيفاجني

فاسيليفيتش ، حقاً إن الانسان لينفطر قلبه عند رؤيتهما . »

« هيا . حسناً جداً . اسكت . اخبرهم بأني آت عن قريب . »

فأجاب تيموفيتش متنبهاً : « أجل يا سيدي . »

ولما خرج من الدار ثبت قبعته فوق رأسه بكلتا يديه ، وتبوأ مقعد

عربة تشبه عربات السباق ، وأطلق لها العنان ، ولكن في غير

اتجاه المدينة .

وفي مساء نفس اليوم ، كانت مدام اودينتسوف جالسة في غرفتها مع

بزاروف . أما أركادي فكان يذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهاباً ،

وهو يستمع الى عزف كاتيا . وكانت الأميرة قد صعدت الى مخدعها ،

فما كانت تحتمل الزوار ، وخصوصاً هؤلاء الأوباش ، كما كانت تسميهم .

كانت تكثني في غرفة الاستقبال بأن تعبس في وجوههم ، أما في مخدعها

فقد كانت تنفجر أمام وصيفتها بالسباب ، حتى أن طاقتها تراقص فوق

رأسها ذي الشعر المستعار ، وكانت مدام اودينتسوف تعرف كل ذلك .

وبدأت تقول : « كيف عزمت على تركنا . وما حل بوعدك ؟ »

فبغت بزاروف ، وقال : « أي وعد ؟ »

« هل نسيت ؟ لقد وعدت أن تعطيني بعض الدروس في الكيمياء . »

« لا أستطيع فإن أبي في انتظاري . ولا أستطيع المكوث أكثر ،
وعلى كل ففي استطاعتك قراءة كتاب (ييلوس وفريمي) وعنوانه :
(معلومات عامة عن الكيمياء) ، فهو كتاب طيب وواضح ، وستجدين
فيه كل ما تحتاجينه . »

« ولكن ألا تذكر بأنك قلت مرة بأن الكتاب لا يغني عن ...
لقد نسيت تعبيرك بنصه ، ولكنك تعرف ما أعني ... أتذكر ؟ »
فكرر بزاروف : « لا مناص . »

فقالت مدام اودينيتسوف وقد خفت صوتها : « لماذا تريد الذهاب ؟ »
فغظرت إليها . وكانت قد ألقت رأسها على مسند الكرسي الخلفي ،
ووضعت ذراعها المشمرتين حتى المرفق ، فوق صدرها ، ولاحت شاحبة
الوجه ، في ذلك الضوء المنبعث من المصباح الوحيد المظلل بغطاء من
الورق المثقب ، وقد غطى جسمها دثار لفه بين طياته حتى أطراف قدميها .
وأجاب بزاروف : « ولماذا أبقي ؟ »

فأدارت مدام اودينيتسوف وجهها قليلاً وقالت : « تسأل لماذا تبقي ؟
ألم تتمتع بوجودي . أو تظن أننا سوف لا نفتقدك ؟ »
« أنا واثق مما تقولين . »

فسكتت مدام اودينيتسوف برهة ثم قالت : « إنك تخطي ، إذا ظننت
أنك ... ولكني لا أصدقك . إنك لا تجد بقولك . » فقال بزاروف
بدون حراك ، فأكملت قولها « أيفاجني فاسيليتش لماذا لا تسكام ؟ »
« لماذا . وما الذي أقول ؟ حتى النساء قاطبة لا يستأهلن أن يفتقدن ،

« وأنا أقل منهم شأنًا . »

« ولماذا ؟ »

« أنا رجل عملي غير ظريف . ولا أعرف كيف أتحدث . »

« إنك تصطاد في الماء العكر يا ايفاجني فاسيليتش . »

« ليس ذلك ديدني . ألا تعلمين أنت بأنني لا أساهم في الجانب

الراقي من الحياة ، ذلك الجانب الذي تطرينه كثيراً ؟ »

فعضت مدام اودينتسوف على طرف منديلها وقالت : « في وسعك ،

أن تقرر ما تريد ، ولكني سأسى ، عندما تذهب . »

فلاحظ بزاروف بقوله : « إن أركادي سيبقي . »

فهزت مدام اودينتسوف كتفها هزة خفيفة وأعادت قولها : « سأسى »

« حقاً ؟ وعلى كل حال سوف لا يبقى أساك طويلاً . »

« وما الذي يدفعك الى هذا الاعتقاد ؟ »

« لأنك أنت أخبرتي بأنك لا تحزنين إلا عندما يتغير مجرى حياتك

الرتيب ، فقد نظمت أوقاتك تنظيمًا دقيقاً لا يترك فسحة للحزن

والآسى ، ولا لآية أفكار سوداء . »

« أوتظن بأنه ليس عندي ما ينقصني الى هذا الحد ؟ أعني أنني قد

نظمت حياتي بمثل هذه الدقة ؟ »

« أظن ذلك . واليك مثلاً . فبعد قليل من الدقائق ستدق الساعة

العاشرة ، وعندها ستطرديني . »

« لا . سوف لا أطردك يا ايفاجني فاسيليتش . لك أن تبقى . افتح

تلك النافذة فاني أشعر بأنني على وشك الاختناق . »

فنهض بزاروف ودفع النافذة بيده ، فانفتحت بسرعة وبصوت شديد ،
وما كان يظنها سهلة الفتح هكذا ، وفوق ذلك فقد كانت يده ترتجف .
فأطل الليل الناعم المظلم من النافذة الى الغرفة ، بسماؤه السوداء وأصوات
حفيف الأشجار الخفيفة ، وعبير الهواء النقي اللطيف .

قالت مدام اودينيسوف : « إسحب مظلات النافذة وتعال اجلس .
أريد أن أتحدث معك قبل أن تذهب . خبرني شيئاً عن أحوالك . فانك
لا تتكلم عن نفسك . »

« كنت أحاول أن أتكلم معك عن أمور ذات أهمية . »
« إنك متواضع جداً ... ولكني أريد أن أعرف شيئاً عنك وعن
عائلتك ، وعن أهلك ، عن هؤلاء الذين ستركنا إرضاء لهم . »
فقال بزاروف في نفسه : « لماذا تتكلم هكذا ؟ »

ثم رفع صوته : « إن ما لا يسر على الأقل ، ولا يسرك أنت بصورة
خاصة ، هو أننا أناس مغمورون . »

« وأنت تعتبرني امرأة ارستقراطية ؟ »
فرفع بزاروف عينيه الى مدام اودينيسوف وقال بحدة زائدة :
« أجل . »

فابتسمت وقالت : « أي أنك لا تعرفني إلا قليلاً ، رغم أنك تدعي
أن الناس سواء ، ولا يستحقون أن ندرسهم أفراداً . سأروي لك
تاريخ حياتي يوماً ، ولكن إرو لي أنت تاريخ حياتك أولاً . »

فأعاد بزاروف : « لا أعرف عنك إلا قليلاً . قد تكونين على صواب ، فلكل شخص لغز ، أنت مثلاً تتجيبين المجتمع ، إذ أنك مضطهدة ، ولقد دعوت تلميذين الى دارك ، فما الذي دفعك ، وأنت على ما عليه من ذكاء وجمال ، الى أن تسكني الريف ؟ »

فاعترضت مدام اودينتسوف بقولها : « ماذا ؟ ماذا قلت ؟ مع جمالي ؟ » فعبس بزاروف ودمدم : « لا عليك ، أريد أن أقول ، إني لا أعرف تماماً السبب في استقرارك في الريف . »

« ألا تفهم السبب ؟ ولكنك ذكرته بطريقةٍ ما . »
« أجل . إنك باقية في مكان واحد لأنك تنشدين الراحة والدعة فتتمتعين بهما ، ولا تهتمين بما سوى ذلك . »

فابتسمت مدام اودينتسوف ثانية وقالت : « من الواضح انك ترفض رفضاً باتاً أن تعتقد بأن في الامكان التأثير عليّ بشيء ما . »
فنظر اليها بزاروف من تحت حاجبيه وقال : « ربما تؤثر عليك الغرابة ، ولا شيء سواها . »

« حقاً ؟ حسناً . الآن تدرك سبب صداقتنا . إنك نفسك مثلي كما أرى . »

فقال بزاروف مستفسراً بصوت أبح : « نحن أصدقاء فقط ... »
نهض بزاروف ، وكان المصباح يضيء الغرفة المظلمة الفاخرة المنعزلة ، إضاءة غامضة ، وبين حين وحين تهتز مظلات النوافذ فتفيض في الغرفة نسمات الليل البهيم ، بشكل همسات غامضة . ولم تحرك مدام اودينتسوف

عضواً من أعضاءها ، ولكن نملأها بالتدريج عواطف مكبوتة .
وانتقلت تلك العواطف الى بزاروف ، فأدرك أنه في خلوة مع
امرأة فاتنة جميلة .

وسأله بهدوء : « الى أين تريد الذهاب ؟ »

فلم يجب بشيء ، وغاص في مقعده .

وقالت بنفس النبرة ، دون أن ترفع عينها عن النافذة : « إذن فأنت
تظنني مخلوقة متكبرة بطرة ، قد أفسدها التدليل ، بينما أعرف أنا
الكثير عن نفسي ، وأعلم بأنني غير سعيدة . »

« أنت غير سعيدة ؟ ولماذا ؟ لا شك أنك لا تعيرين الاشاعات
السخيفة اهتماماً . »

فعميت مدام اودينتسوف ، إذ فسر عبارتها هذا التفسير .

« إن أمثال هذه الاشاعات لا تؤثر فيّ يا ايها جني فاسيليتش ، واني
لأشد كبرياء من أن أجعلها تزعجني ، إنني غير سعيدة لأنني لا أرغب في
شيء ، ولا أهتم بالحياة . إنك تنظر اليّ كمن لا يصدق . إنك تظن

هذا الكلام من ارسقراطية يزين ملبسها الموشي ، تجلس على كرسي
من القطيفة . ولا أحب أن أخفي الحقيقة . اني أحب ما تسميه بالراحة ،
ولكنني في الوقت ذاته لا أحب الحياة إلا قليلاً ، فسر هذا بأحسن
ما تستطيع . ولكن ليس كل ذلك في نظرك إلا أموراً خيالية . »

فهز بزاروف رأسه وقال : « صحتك جيدة ، وأنت غنية مستقلة ،
فما الذي تريدن أكثر من ذلك ؟ ماذا تريدن ؟ »

فتنهت مدام اودينتسوف ورددت : « ماذا أريد ؟ إني تعبته جداً وكبيرة ، وأشعر كأنني عشت دهرأ طويلاً . أجل إني لشيخة » قالت ذلك وسحبت وشي ثوبها فوق ذراعها العارية ، والتقت عينها بعيني بزاروف واحمر وجهها قليلاً ، واستطردت : « إن ورائي ذكريات كثيرة . حياتي في سنت بترسمورج ، الغنى ، ثم الفقر ، ثم موت أبي وزواجي ، ثم رحلة محتمة تنفيذاً لوعده . . ذكريات كثيرة ، وطريق طويل جداً دون هدف ، لست راغبة في الاستمرار فيه . »

قساءل بزاروف : « هل لا خيال لك ولا أحلام ؟ »

فأجابت مدام اودينتسوف متوقفة عند كل مقطع : « لا ولكنني غير مكثفة . أريد أن أسر نفسي بشيء ما . »

فقاطعها بزاروف بقوله : « تريد أن تحبي ، ولكنك لاتستطيعين ، وهنا تكمن تعاستك . »

فأخذت مدام اودينتسوف تفحص كم ردائها ، وقالت : « حقاً إني لا أستطيع أن أحب . »

« ما كان يجب علي أن أقول ذلك . لقد أخطأت في حسابان ذلك شقاء ، بالعكس ، إن الانسان يرثي له لو قدر له مثل ذلك الحظ السيء . »

« حظ سيء في ماذا ؟ »

« في أن يحب . »

« وكيف عرفت ذلك ؟ »

فأجاب بزاروف بغضب : « من القيل والقال »
وقال لنفسه : « إنها تغازلني . إنها امرأة خائبة ، ولذلك تثيرني
لأقدم على شيء ما ، بينما أنا ... » وشعر بقلبه يتمزق ، وقال لها وقد مال
الى الأمام بكل جسمه ، وهو يعبث بحاشية الكرسي : « ربما كنت
على صواب تام . »
« ربما ، وسواء أكانت آرائي مهمة أو غير مهمة . خذ رأيي .
الحياة للحياة ، وارك آراءك ، هذا على شريطة أن لا تحتقر نفسك اذا
نظرت الى الوراء . والا فليس لك إلا أن تترك كل شيء . »
فقال بزاروف ملاحظاً : « حسناً . هذا مبدأ جميل ، وانني لمتعجب
أن لا تجدي من تحبين ، وأنت من أنت . »
« وهل تظن من السهل أن يكرس الانسان نفسه لشيء ما ؟ »
« لايسهل ذلك اذا بدأت بالتفكير والانتظار وأعطيت نفسك قيمة كبيرة ،
وأشدت بمدحها . أعني أن الانسان اذا أراد أن يهب نفسه فعليه ألا يفكر . »
« كيف يستطيع الانسان أن يقدر نفسه ؟ فأنا لا قيمة لي ، فمن هو
الذي يريد أن أكرس نفسي له ؟ »
« ليس هذا من شأني . إن من شأن الآخرين أن يكتشفوا القيمة .
إن الشيء المهم هو أن يستطيع الانسان أن يكرس نفسه لغيره . »
فالت مدم اودينتسوف الى الأمام وشرعت تقول : « أنت تتكلم
كمن قد اختبر كل ما يقول . »
« لقد حدث ذلك يا أناسير جيفنا ، وليس ذلك في مصلحتي كما تعلمين . »

« وهل تستطيع أن تكسر نفسك لغيرك ؟ »

« لا أعرف . ولا أريد أن أمتدح نفسي . »

ولم تقل مدام اودينتسوف شيئاً ، وصمت بزاروف أيضاً ، وتصاعدت أنغام البيان اليهما من غرفة الاستقبال .

فلاحظت مدام اودينتسوف : « كيف تعزف كاتيا في مثل هذا الوقت المتأخر ؟ »

فنهض بزاروف وقال : « حقاً إن الوقت متأخر . وقد حان ميعاد ذهابك الى الفراش . »

« صبراً . فعلام العجلة ؟ أريد أن أقول كلمة . »

« إصبر قليلاً . » همست بذلك مدام اودينتسوف وقد استقرت عيناها على بزاروف كأنها تتفحصه .

فقطع الغرفة بخطاه ، وتقدم منها بغتة ، ثم أسرع قائلاً : « وداعاً » فعصرت يديها بشدة كأنها تريد أن تمنع نفسها من الصراخ ، ولكنه كان قد ذهب . ورفعت إصبعها الموضوعة الى شفتيها ونفخت فيها ، ووثبت فجأة بحالة لا شعورية عن مقعدها ، وأسرعت بخطى واسعة الى الباب ، كأنها تريد أن ترجع بزاروف اليها . ودخلت خادم تلك اللحظة ، تحمل صينية فوقها قنينة ، فسمرت مدام اودينتسوف في مكانها ، وأذنت للخادم بالذهاب ، وعادت فجاست وغرقت في هواجسها . وانحل شعرها ، وتدلّت برفق خصلة منه على كتفيها ، وبقي المصباح يضيء في غرفتها طويلاً بعد ذلك ، وظلت مدة طويلة دون حراك ، ولكنها لبثت تفرك يديها

بين الفينة والفينة ، فقد كانت برودة الليل تلذعها .

ورجع بزاروف بعد ساعتين ، وحذاؤه مبلل بالنسدى ، منفوش الشعر ، معكرو المزاج . ووجد أركادي بجانب منضدة ، ويده كتاب ومعطفه مزرر حتى العنق .

فقال له بلهجة غير مرضية : « أرى أنك لم تتم ؟ »

فقال أركادي دون أن يجيب على سؤاله : « لقد بقيت مدة طويلة مع

أنا سيرجيفنا هذه الليلة . »

« أجل لقد بقيت معها طيلة المدة التي كنت تعزف خلالها على البيان

مع كاتيا . »

فقال أركادي : « إنني لم أعزف . » ثم توقف ، فقد شعر بأن

الدموع قد ملأت عينيه ، ولم يشأ أن يبكي أمام صديقه الساخر .



الفصل الثامن عشر

وفي الغداة ، عندما ظهرت مدام اودينه تسوف صباحاً لتناول الشاي ، ظل بزاروف مدة طويلة مكباً على شايه ، ثم على حزين فجأة ، رفع عينيه اليها ... فالتفت نحوه كما لو كان قد لسمها ، وخيل اليها أنها قد ازدادت شحوباً على شحوبها في الامسية . ثم أسرعته فهرعت الى غرفتها ، ولم تظهر حتى وقت الغداء ... وكانت السماء تمطر منذ الصباح ، وعلى ذلك فلا مجال للزهة الصباحية . فاجتمعوا في الثوي . وأخذ أركادي العدد الأخير من مجلة ، وشرع يقرأه بصوت عالٍ . أما الأميرة ، فنبعاً لعادتها ، حاولت أن تظهر على وجهها إمارات الدهشة ، كما لو كان قد ارتكب عملاً لا يليق بتمدين ، ثم حدجته بعينها الحبيبتين ، ولكنه لم يلتفت اليها .

قالت المدام : « يا ايفاجي فاسيليتش تعال الى غرفتي . أريد أن أسألك . لقد حدثتني أمس عن أحد الكتب المدرسية . »

ثم نهضت وتوجهت الى الباب . فتلفت الأميرة حوا اليها ، ولاحظت كأنها تقول : « انظروا الي » ، كم أنا متعجبة غاضية ؟ » ثم نظرت ثانية الى أركادي . ولكنه رفع صوته ، وتبادل نظرة مع كاتيا الجالسة بقربه ، واستمر في قراءته .

سارت مدام اودينتسوف الى غرفتها بخطى سريعة . وتبعها بزاروف دون أن يرفع عينيه ، مصغياً الى الهمس الذي لا يكاد يدركه السمع ، الى هفيف ثوبها الحريري الذي كان ينساب أمامه . وجلست في كرسيها ، واتخذ بزاروف جلسته في مكان الالمس .

قالت بعد لحظة من الصمت : « ما كان اسم ذلك الكتاب ؟ » فأجاب بزاروف : « ييلوس وفريمي ، مباديء عامة . وأستطيع أن أوصيك أيضاً بكتاب جانو ، بحث أولي في الفيزياء العملية ، إن رسومه واضحة ، وفضلاً عن ذلك فإن هذا الكتاب ... »

فدنت ذراعها وقالت : « ايناجني فاسيليتش ، اعذرني ، لم أسألك القدوم لأجل أن تتكلم عن الكتب المدرسية . بل بودي أن تتابع حديث الالمس . فقد تركتني بصورة فجائية ... أرجو أن لا يضجرك ذلك . » « أنا مستعد لخدمتك . ولكن فيم كنا نتكلم أمس ؟ »

فألقت عليه نظرة زائغة وقالت : « أظن أن البحث كان يدور حول السعادة . ولقد حدثتك عن نفسي ، وما دمت قد ذكرت كلمة السعادة هذه ، فينبغي أن أسألك سؤالاً . لماذا يلوح ، حتى عندما تأخذنا نشوة الموسيقى ، أولذة سهرة جميلة ، أو حديث أشخاص خفيين الروح ، مثلاً ، لماذا يلوح لنا كل ذلك إشارة وإلماعاً الى سعادة لانهائية ، ولكنها بعيدة عنا في جهة ما ، ومعنى ذلك أن السعادة موجودة حقيقة ، ولكننا لانملكها في الواقع . كيف أوضح هذا ؟ ولكن ربما كنت لا تشعر بمثل هذا الشعور ؟ »

فأجاب بزاروف : « إنك تعلمين ما يقوله المثل : (لا وجود للسعادة إلا حيث لا يوجد أحد) ألم تقولي بالأمس بأنك لم تشيعي رغباتك ؟ ولكن فضلاً عن ذلك فإن الحقيقة كل الحقيقة أن أفكاراً كهذه لا يحتاج بها خاطري . »

« املها تبدو لك مضحكة سخيفة . »

« كلا ولكنها لا تدور في رأسي قط . »

« أصبح ذلك ؟ أتدري بأنني كلفت جداً بمعرفة ما تفكر به أنت ؟ »

« ماذا ؟ انني لا أفهمك . »

« إصغ إنني أشتهي ، منذ أمد طويل ، أن أتفاهم معك ، ولست

بحاجة لأن أقول انك رجل تختلف عن سائر الرجال ، أنت تعرف ذلك

تمام المعرفة . إنك شاب . وما تزال الحياة أمامك برمتها ، فعلام عقدت

عزمك ؟ ما سيكون مستقبلك ؟ أريد أن أقول ما هو الهدف الذي تقتفيه ؟

الى أين ستذهب ؟ ، وما عمق روحك ؟ وبكلمة واحدة ، ما أنت ،

ومن أنت ؟ »

« انك تحيريني ، فأنت تعلمين كل العلم بأنني أدرس العلوم الطبيعية ...

من أنا ؟ »

« نعم ، من أنت ؟ »

« سبق أن قلت لك ، طبيب المركز في أحد الأقاليم . »

فندت عنها حركة تدل على نفاد الصبر وأجابت : « لماذا تقول ذلك ؟

انك لا تصدقه أنت نفسك . إن أركادي هو من يجب مثل هذا الجواب ،

ولكن أنت ... »

« وما دخل أركادي بما نحن فيه ؟ »

« دعنا من هذا . أمن الممكن أن يرضيك هذا المجال المتواضع جداً من النشاط ؟ ألم تقل لي مراراً بأنك لا تؤمن بالطب ؟ ما هو طبيب الاقليم بالنسبة اليك ، أنت المترع بالنشاط . إنك تجيب هكذا لتتخلص مني ، لأنك لا تثق بي مطلقاً . ورغم ذلك لا أستطيع أن أفهمك يا ايفاجني فاسيليتش ، لقد كنت أنا أيضاً ، فقيرة زاحرة بالطموح مثلك . ولكن لعاني قد اجتزت نفس المحن ... »

« كل هذا غاية في الحسن ، يا انا سيرجيفنا ، ولكن أستمحك العذر ... إني لم أعود أن أعترف ، وعلاوة على ذلك ، والكلام يليني وبينك ، إن البون شاسع جداً بيننا ... »

« البون ؟ أتريد أن تقول لي بأنني أرسقراطية ؟ إني أعتقد بأنني قد برهنت لك ... »

« وثم ، ما جدوى الكلام ، والحلم بمستقبل أمره ليس بيدنا أغلب الأحيان . اذا واثت الفرصة بعمل شيء ، فنعما هي ، والا ، فلنكن على أقل تقدير سعداء بأننا لم نثرثر عبثاً . »

« تسمي إذن حديثي الودي ثرثرة ؟ إنك تعتقد بأن المرأة غير أهل لثقتك ؟ لأنك تحتقرنا جميعاً ، أليس كذلك ؟ »

« إني لا أحتقرك يا انا سيرجيفنا ، وأنت تعلمين ذلك جيداً . »

« كلا ، إني لا أعلمه ، ولكن فلنفرض أنني لا أفهم بأن لا رغبة

لك في التحدث عما ستعمله في المستقبل ، ولكن حدثني بما يعمل في نفسك الآن ... »

« ما يعمل في نفسي ؟ لعله موضوع دولة أو مجتمع ، ومهما يكن الأمر فإن ذلك لا يفيد شيئاً . وعلاوة على ذلك ، هل يستطيع الرجل دائماً أن يصرح بما يعمل في نفسه ؟ »

« إنني لا أدري لماذا لا يستطيع الناس أن يقولوا كل ما في قلوبهم . »

فسألها بزاروف : « أتستطيعين أنت ذلك ؟ »

فأجابت بعد لحظة من التردد « نعم »

فخفض رأسه وقال : « أنت أسعد مني . »

فرفعت إليه نظرة متسائلة وأجابت : « كما تشتهي ، ولكن شيئاً ينبئني بأن اقترابنا من بعضنا ليس جزافاً ، ولا بدون سبب وأنا سنكون صديقين حميمين . إنني متأكدة بأنه بمرور الزمن ... كيف أقول ؟ أقول إن تصلبك وتحفظك سيختفيان . »

« هل وجدت في تحفظاً ، وماذا قلت بعد ؟ تصلب ؟ »

« نعم . »

فنهض واقترب من النافذة وقال : « أفأنت تريدين أن تعلمي سبب

هذه الحيلة ؟ أتريدين أن تعرفي ما يعتلج في نفسي ؟ »

فأجابت بفزع غامض « نعم »

« أفلا تتمعضين ؟ »

« كلا . »

« كلا ؟ . » وأدار لها ظهره : « إعلمي إذن بأنني أحبك حباً ضارياً ... جنونياً ... هذا ما أردت أن تنزعيه مني انتزاعاً . »
فدلت ذراعيها الى الأمام . وأسند بزاروف جبينه الى الزجاج . وكان يخنق ، ويرتش جسمه . ولم يكن هذا الانفعال انفعال الشاب الحجول ، ذلك الخوف الذي يبدو على الشاب لأول اعترافه بالحب ، بل كانت تلك العاطفة ، التي تغلج في نفسه ، عاطفة قوية مؤلمة ، تشابه الكره والبغضاء ، وربما كانت قريبة منهما ... وشعرت أنا في الوقت نفسه بالفزع منه والاشفاق عليه .

فقالت وقد أشرب صوتها بحنان لإرادي : « ايفاجني فاسيليتش . »
فاستدار بحرارة ، وألقى عليها نظرة نهمة ، وقبض على يديها الاثنتين ، وجرها بفظاظة الى صدره .

ولم تستطع الافلات من تطويقه في الحال ... ولكنها تمكنت بعد بضع ثوان ، أن تهرب الى الزاوية المقابلة من الغرفة ، وهي تنظر اليه . فهجم عليها ...

فهمهمت بسرعة عظيمة وهي مرعوبة : « إنك لم تفهمني » ولو خطا خطوة أخرى لصرخت ، على وجه التأكيد ...
فعض على شفتيه وخرج .

وبعد نصف ساعة من ذلك ، حمل خادم الى انا سيرجيننا بطاقة من بزاروف تحتوي على هذا السطر الوحيد : « أينبغي عليّ أن أرتحل هذا اليوم ؟ أم بوسعي أن أبقى الى الغد ؟ » فأجابته : « لم ترتحل ؟ إنك

لم تفهمني وأنا لم أفهمك . » وقالت لنفسها : إنني لم أفهم نفسي أنا نفسي . »
ولم تظهر حين تناول الغداء ، وكانت تروح وتفسد في غرفتها ،
ويدها خلف ظهرها ، وتقف بين حين وآخر ، سواء أمام المرأة ، أم
أمام النافذة ، وتمسح بتباطؤ رقبتها بمنديلها ، حيث كانت تتصور أنها
تشعر ببقعة محترقة . وسألت نفسها عما حملها على إرغامه على البوح بما في
ضميره ، وأن يفصح عما بنفسه ، وعما اذا كانت هي نفسها لم تشابهه
بحالته . وقالت بصوت مرتفع : « إنها غلطتي ، ولكن لو كنت أعلم الغيب
لاستكثرت من الخير ... » وحاولت أن تسخر وهي تستعيد ذلك التعبير
الحيواني تقريباً ، الذي انطبع على وجه بزاروف عندما هجم عليها .
ثم قالت فجأة : « آه . » وتوقفت وهي تهز جداول شعرها .
ورأت نفسها في المرأة . وكان رأسها مندفعاً الى الخلف . وخيل اليها
أن الابتسامة الغامضة لعينيها المقلتين الى النصف ، ولشفثيها نصف
المفتوحتين ، تمنيهما تلك اللحظة بأشياء غريبة جداً تثير القلق
في نفسها .

ثم قالت أخيراً بعزم واصرار : « كلا ، الله وحده يعلم الى أين
سيجبرني هذا ، إنه رجل لا يمكن اللعب معه ، إن السلام والطمأنينة
خير شيء في العالم . »

إن طمأنينتها لم يعكر صفوها معكر ، ولكن الحزن تملكها ، بل
لقد سفحت بعض الدموع دون أن تدري لذلك سبباً ، وعلى كل حال ،
فإن ذلك لم يكن لمسح إهانة ، إذ لم تشعر بأنها قد أهينت ، ولكنها

شعرت بأنها قد أجزمت . إن العواطف المضطربة في نفسها ، ومملها
من مجرى الحياة الرتيب الذي لا دواء له ، ورغبتها في الجدة كل ذلك
جعلها تمسّ دفع إلى حد ما ، فلما ألقت نظرة إلى ما بعد ذلك ، لم تشاهد
هوة ، ولكنها أبصرت الخواء المرعب ، بل الثورة الجامحة .

الفصل التاسع عشر

بالرغم من أن مدام ادينتسوف كانت مهيمنة على نفسها ، متغلبة على عواطفها ، إلا أنها شعرت بضيق شديد عندما دخلت غرفة الطعام . ومع ذلك فقد كان كل شيء ، أثناء الطعام ، على مايرام . وجاء بورفيري بلاتونيتش ، وقص عليهم لطائف ونوادر مسلية ، وكان قادماً من المدينة . وبما رواه أن الحاكم بوردالو قد أزم الموظفين التابعين له ، أن يلبسوا المهامير عساهم أن يمتطوا خيولهم ، للقيام ببعض المهام المستعجلة ، وذلك أدعى للسرعة . وكان أركادي يحدث كاتيا هامساً ، بمنتهى الكياسة والذوق ، ويقدم للأميرة خدمات صغيرة . أما بزاروف العبوس فقد التزم الصمت بعناد واصرار . وحديثه مدام اودينتسوف بنظراتها مرة أو مرتين ، وما فعلت ذلك حذرة ، بل حدقت علناً بوجهه القاسي المر ، ذي العينين المغضبتين ، ذلك الوجه الذي طابعه الصلابة المتعجرفة ، وفكرت : « كلا ، وكلا وكلا » وبعد تناول الغداء خرجت الى الحديقة مع كافة الموجودين ، واذ رأت أن بزاروف يرغب في التحدث اليها ، خطت بضع خطوات الى الأمام ، وتوقفت .

فاقترب منها ، وعيناه ما زالتا مغضبتين ، وقال بصوت لا يكاد يسمع
« أقدم لك اعتذاري يا انا سرجيفنا . لا بد أن تكوني غضبي مني . »
فأجابته : « كلا ، يا ايفاجني فاسيليتش ، لست غضبي ، بل حزينه . »
« هذا أسوأ وعلى كل حال فقد عوقبت بما فيه الكفاية . إن وضعي
يسير من سيء الى أسوأ ، لقد أطعمتك إذ كتبت لي تقولين : « لماذا أسافر ؟ »
إلا أنني لا أستطيع البقاء ولا أريده . وغداً لن أكون هنا . »

« ايفاجني فاسيليتش ، لماذا ؟ »

« لماذا أسافر ؟ »

« كلا ليس ذلك ما أردت أن أقول . »

« لا مرد لما مضى يا انا سرجيفنا ... كان لا بد أن يحدث ما حدث
عاجلاً أو آجلاً . وعلى ذلك ، فيجب عليّ أن أرحل ، ولن أستطيع
البقاء إلا على شريطة واحدة . وهذه الشريطة لن تتحقق أبداً . إغفري
جرأتي ، ولكنك لا تحبينني قط ، أليس كذلك ؟ وانك لن تحبينني
أبداً ؟ »

وتأملت عينا بزاروف شرراً تحت حاجبيه الأسودين .

فلم تجب . ولكن راودها هذا الحاطر : « إن هذا الرجل يخيفني . »
وقال بزاروف : « الوداع إذن » وكأنه حزر ما في ضميرها ، وتوجه
صوب المنزل .

فتبعته بخطوات بطيئة ، ونادت كاتيا ، وأمسكت بذراعها ، ولم تفلته
حتى المساء . ولم تلعب الورق ، ولكنها ضحكت كثيراً وما انسجم ذلك

مع وجهها الشاحب القلق . ولم يفقه أركادي من حالتها شيئاً ، وظل ينظر إليها كما ينظر الشبان جميعاً ، ولعله كان يسائل نفسه باستمرار : ما معنى ذلك ؟ » وحبس بزاروف نفسه في غرفته . ولكنه هبط لتناول الشاي . وقد حاولت مدام اودينتسوف جهدها أن توجه إليه كلمة طيبة ، ولكنها لم تدر كيف تستهل حديثها .

وأقنذها من هذه الحيرة ظرف طاري ، فقد أعلن الخادم قدوم سينتسكوف .

من الصعوبة بمكان أن تتصور قدوماً باعثاً على العجب أكثر من قدوم هذا الشاب التقدمي . لقد عزم بكل بساطة وبرود ، وتلك شنشنة تعرفها عنه ، على زيارة امرأة لا يكاد يعرفها ، والتي لم يسبق لها أن دعت قط . ولكنه كان يدري أن عندها قد اجتمع القوم المثقفون الذين له معرفة بهم . ولم تكن دهشته ولا استحيائه أقل من غرابة زيارته ، وبدلاً من تقديم الاعتذارات والتحيات التي كان قد هيأها ، همهم ببعض السخافات : « إن افدوكسيا كوكشينا قد توسلت إلي أن أستقصي أخبار انا سيرجيفنا ... وكذلك عن أركادي نيكولايفيتش » وتكلم عن الأخير باللقاب التفخيم . وزيادة على ذلك فقد وصل اضطرابه وارتباكها إلى حد أن جلس فوق قبعته . ولكنه ما لبث أن استعاد هدوءه . لما وجد أنهم لم يطرده ، بل احتفوا به ، حتى أن انا سيرجيفنا قد قدمته إلى خالتها وأختها ، فلم يدركه الفشل . إن للحماقة في هذا العالم منفعة أغلب الأحيان . إنها ترخي الأعصاب المتوترة توتراً شديداً ، وتعيد العواطف

الجامحة الى توازنها . وذلك لأنها تذكر الانسان بما هو شديد الارتباط
بهذه العواطف . فبعد مجيئ سيتينيكوف بدا كل شيء ، وكأنه قد خمد
وأصبح أكثر تفاهة ، وأشد بساطة ، فتناولوا عشاءهم بأحسن شهية ،
وآووا في المساء الى مضاجعهم ، مبكرين نصف ساعة قبل المعتاد .

قال أركادي وهو في سريره مخاطباً بزاروف الذي كان قد تخفف
من ثيابه : « الآن قد جاء دوري لأعيد عليك ما قلته لي يوماً :
لم أنت حزين هكذا ؟ إنك تلوح كمن قد أخذ على نفسه أن يقوم بأداء
واجب خطير مقدس ؟ »

كان هذان الصديقان قد شرعا منذ مدة في ممارسة المباحكة بحماسة
ونشاط زائفين ، وتلك علامة أكيدة على عدم الوفاق ، أو على وجود
شكوك بينهما ، لم يتعاونوا فيزيلاها بالافصاح عنها .

قال بزاروف : « سأذهب الى بيت أبي غداً . »
فاستند أركادي الى وسادته ، وكان قد اعتدل ، وقد أدهشه هذا
الخطير ، كما أبهجه في آن واحد .

فأجاب : « آه . إذن فهذا ما يجعلك حزينا ؟ »
فقال بزاروف وهو يتأهب : « ما أشد حب الاستطلاع عندك !
سوف تشيخ قبل الاوان . »

فأجاب أركادي . « وانا سيرجيفنا ؟ »
« ما خطبها ؟ »
« هل تدعك تسافر ؟ »

« لست طوع أمرها . »

فشرع أركادي يفكر ، واستدار بزاروف الى الحائط .

ومرت دقائق من الصمت ، وصرخ أركادي بغتة : « ايفاجني ؟ »

« ماذا ؟ »

« سأسافر معك . »

فلم ينبس بزاروف ببنت شفة . وأردف أركادي : « أما أنا فسأعود

الى المنزل . وسوف نقطع الطريق سووية حتى نبلغ خوخلوفو ، ومن هناك

سنأخذ جياداً من عند فيدوت . وبودي أن أتعرف الى أهلك . ولكنني

أخشى أن أزعجهم وأزعجك ، وبعد ذلك هل سترجع لرؤيتنا ؟ »

فأجاب بزاروف دون أن يلتفت : « لقد تركت كل حوائجي

في بيتك . »

وفكر أركادي : « لماذا لم يسألني عن علة سفري ، سفري بهذه

السرعة كسفره ؟ والواقع ، لماذا أسافر أنا ، ولماذا يرحل هو ؟ »

ولم يستطع أن يجد لسؤاله جواباً شافياً ، وامتلاً قلبه غماً . وشعر بأنه

يصعب عليه أن ينتزع نفسه من هذه الحياة التي اعتادها جداً ، ولكن

كيف يبقى وحيداً ؟ وفكر : « لا بد أن تكون قد حدثت بينهما أشياء »

واذا سافر صديقه ، أفيامكانه أن يبقى وحده ، إنها لا تريده وسيؤدي

ذلك الى القطيعة ، وسأكون قد أضعت كل ما تبقى لدي . » واستحضر

في ذهنه صورة انا سيرجيفنا ، ولكن ملامح أخرى ، كسفت ، في الحال ،

وجه الارملة الجميلة ... وهمهم أركادي ورأسه على الوسادة ، وقد سالت

دمعته : « واأسفاه على كاتيا » ولكنه دفع رأسه الى الوراء بشدة ، وقال بصوت مرتفع :

« أي شيطان دفع بهذا المعتوه سيتنيكوف ؟ »

وتحرك بزاروف في سريره وقال أخيراً : « أرى ، يا شيخي ، بأنك ما زلت حيواناً . إن أمثال سيتنيكوف لا غنى لنا عنهم . إذن فاعلم أنني بحاجة الى معاتيه من أشباهه (ليس على الآلهة أن تفخر الطين) ^(١) » فقال أركادي لنفسه : « يا للعجائب يا للعجائب » واستطاع في تلك اللحظة أن يتبين مدى أنانية صديقه وحبه العظيم لذاته .

« إذن فنحن إلهان ؟ أو بالأحرى ، أنت إله . وأرجو ألا أكون المعتوه الذي تعنيه ؟ »

فأجاب بزاروف عابساً : « نعم أنت ما زلت معتوهاً . »

لم تظهر مدام اودينتسوف دهشة قط عندما أفضى اليها أركادي صباحاً بأنه سيرحل مع بزاروف ولاح عليها كأنها متعبة ذاهلة . ونظرت اليه كاتيا بذهول وامعان ، في سكون ، ورسمت الأميرة علامة الصليب تحت شالها بصورة خاصة ، أما سيتنيكوف فقد أهاجه الحبر تماماً . وكان قد نزل لتناول الطعام بثوب غاية في الأناقة ، لا يحوي هذه المرة شيئاً من الطراز السلافوفيلي ، وكان قد أدهش الخادم ، الذي ألحق بخدمته في الليلة المنصرمة ، بكمية الملابس التي جلبها معه . وها هم أولاء ، أصدقاؤه

يتركونه . فأخذ يضرب الأرض بقدمه وهو في مكانه ، متردداً كأنه
أرنب يطارده الصياد ، ثم أعلن فجأة ، وعليه علائم الارتباك والقلق ،
وصوته يكاد يكون صراخاً ، بأنه قد صمم على السفر هو أيضاً . فلم
تعترض مدام اودينيتسوف .

وقال الفتي التعس لأركادي : « إن مركبتي فارحة جداً وباستطاعتي
أن أحملك الى أهلك . أما ايفاجني فاسيليتش فسيأخذ مركبتك ، وهذا
ملائم مناسب . »

« أترى ذلك ؟ إن هذا الطريق ليس طريقك البتة ، وهو بعيد
جداً عن بيتك . »

« وما في ذلك ؟ إن الوقت كله لي . وفضلاً عن ذلك ، فإن أعمالي
تدعوني الى أن أسلك هذه الناحية . »

فسأله أركادي وهو لا يخفي احتقاره : « أعمال تجارة الحفرة ؟ »
ولكن سيتنيكوف كان قد أسقط في يده ، فلم ينفجر ضاحكاً ،
خلافاً لعادته .

ودمدم : « أوكد لك ان مركبتي هي الراحة بعينها ، وفيها
متسع للجميع . »

قالت انا سيرجيفنا : « لا ترفضوا عرض مسيو سيتنيكوف ولا
تجرحوا شعوره . »

فخدجها أركادي بنظرة وخفض رأسه علامة الموافقة .
وكان السفر بعد تناول الطعام . وبعد أن قالت مدام اودينيتسوف

وداعاً ، مدت يدها لزاروف قائلة : « الأيام بيننا ، أليس كذلك ؟ »
فأجابها : « الأمر يتعلق بك . »

« إذن الأيام بيننا . »

كان أركادي أول من بلغ الباب وصعد الى مركبة سيتنيكوف .
وأعانه رئيس الحزم على الصعود ، وكان يعمل في نفسه شيئاً متناقضاً ،
سرور قوي ، ورغبة في بكاء مر ، وتبوأ زاروف مقعده في المركبة .
وعندما وصلوا الى خوخلوفسكي ، انتظر حتى استبدل فيدوت ، مدير
المحطة ، الجياد ثم اقترب من المركبة بابتسامته المعهودة قائلاً : « خذني
يا أيفاجني ، فبودي أن أذهب معك الى دارك . »

قدم زاروف : « إصعد . »

أما سيتنيكوف الذي كان يطوف حول مركبته صافراً بمرح
واغتباط ، فقد غفر فاه لدى سماعه تلك الكلمات . ولكن أركادي كان
قد سحب أمتعته من المركبة ، وذهب فحس بجانب زاروف ، ثم حيا
بلطف وبشاشة ، صاحبه السابق في السفر ، وصاح : « الى الأمام »
فاهزت المركبة وغابت عن النظر في الحال .

فالتقى سيتنيكوف نظرة على حوزيه وقد بلغ به الأسى مبلغه ، ولكن
الحوزي كان مشغولاً عنه في قرعة سوطه على ذيل الحصان ، وعندها قفز الى
مركبته وصرخ بفلاحين عابرين : « أعيد اقبعتيكا الى رأسيكما أيها الاحمقان »
ووصل الى المدينة متأخراً جداً ، وغداة ذلك اليوم زار افدوكسيا
كوفشكينا ، وحمل حملة شعواء على « الشخصين المتعجرفين الكريهين . »

وبعد أن جلس أركادي بجانب بزاروف ، شد على يده بقوة ، وبقي مدة لا يفوه بكلمة ، فأدرك بزاروف مغزى هذا السكوت والشد على المعصم ، دون شك ، وتأثر بذلك . ولم يكن في الليلة الماضية قد نام أو دخن ، وما كان قد تناول طعاماً كافياً منذ عدة أيام تقريباً . وكان منظر وجهه الجانبي المظلم الناحل ، يظهر وحشياً من تحت قمعته التي غطس فيها رأسه الى أذنيه . وقال أخيراً : « اعطني سيكارة يا شبيخي ، وانظر . لا بد أن يكون لساني أصفر . »

فأجاب أركادي : « الواقع انه أصفر . »

« طيب وللسيجار طعم كريه . لقد تلفت الماكنة . »

فقال أركادي : « نعم . لشد ما تغيرت في هذه الأيام الأخيرة . »

« لا ضير . وسأعود كما كنت . لا يقلقني إلا شيء واحد ، حاجة

الوالدة ، إذ تقوم قيامتها اذا لم تجدني مبطناً ، واذا لم آكل عشرمرات في اليوم . أما أبي فلا بأس به ، لقد جاب العالم ، ورأى فيه من الألوان ما رأى » ثم أضاف مؤكداً : « محال أن أدخن . » وقذف بسيجاره الى التراب .

وسأل أركادي : « أتسكن على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من هنا ؟ »

« نعم . والأولى أن تسأل هذا الحكيم » وأشار الى الموجيك

الجالس فوق المقعد .

ولكن الحكيم اكتفى بأن قال : « يا صريم العذراء لا أعلم . إن

الفراسخ هنا ليست معينة . » ثم أخذ يدمدم بصوت خافت مع السائق

الذي كان مواظباً على إلهاب أعطاف الحيل بالسياط .

وأضاف بزاروف : « نعم . نعم . فليكن هذا درساً ومثالاً ،
يا صديقي اليافع . وإلى الشيطان بهذه البلاهات . إن الإنسان مربوط
بخيطة ، ومن المتوقع في كل لحظة أن تنفتح تحت قدميه هوة ، ومع ذلك
فهو يفكر بألف حماقة لتسميم الوجود . »

فسأل أركادي : « إلى مَ تشير ؟ »

« إلى لا شيء . أقول بلا مواربة بأنني أنا وأنت مقودان كما يقاد
المغفلون والبله . هذا هو الواقع ، ولكنني لاحظت في المستشفى أن
المريض الذي يتمتع من مرضه ، ينتهي دائماً بالانتصار على المرض . »
فقال أركادي : « لا أفهمك جيداً . يخيل إليّ أنه لم يكن لديك شيء
تشكو منه . »

« ألا تفهمني جيداً ؟ سأقول لك إذن رأيي . خير لك أن تكسر
الحجارة في الطريق العام ، من أن تسمح لامرأة أن تستحوذ ولو على
اصبعك الصغرى . وكل هذا كما ترى ، هو » وكان على وشك أن يقول ،
أمر خيالية ، كلمته المحببة ، ولكنه استدرك وأضاف : « حماقات . لن
تصدقني الآن ، ومع ذلك فأقول لك ، لقد وجدنا أنا وأنت في مجتمع
النساء . ذلك وحقك حلو لزيد ولكن إذا انتزعت نفسك منه ، فكأنك
تأخذ حماماً بارداً في نهار ملتهب . على الرجل أن يشغل نفسه بغير هذه
الحماقات . على الرجل أن يكون ضارياً كما يقول المثل الأسباني الرائع »
وأضاف مخاطباً الخوذي : « أنت مثلاً . عندك امرأة أليس كذلك ؟ »

فأدار هذا وجهاً مفلطحاً وعينين كعيني الحلد وقال : « امرأة ،
لا شك أن عندي امرأة ، امرأة واحدة . »
« أتضربها ؟ »

« امرأتي ؟ يحدث أحياناً . ولكني لا أضربها دون سبب . »
« طيب . وهل تضربك هي ؟ »

فشده الفلاح ، وقرقع السوط على أعطاف الحبل مستنكراً : « إنك
تتهكم يا مولاي . يلوح لي أنك تريد أن تضحك » قال هذا وقد بان
على وجهه الامتعاض .

« أسمع يا أركادي نيقولا يافيتش . لقد ضربنا نحن الاثنين ... وهذا
هو مصير المثقفين المستنيرين . »

ضحك أركادي ضحكة مغتصبة ، أما بزاروف فقد أشاح بوجهه ،
ولم يفتح فاه بقية الرحلة .

طالت هذه الخمسة والعشرون فرسخاً على أركادي حتى خلاها خمسين
فرسخاً . ولكن على حين غرة لاحت القرية الصغيرة ذات السفح الرائع
المنحدر من ربوة ، حيث يسكن أهل بزاروف ، وسط أجمة من أشجار
السدر الفتية ، هنالك يرتفع بيت السيادة ذو السقف القشي ، وكان أمام
العزبة اثنان من الموجيك ، وفوق رأس كل منهما طاقية ، وهما يتشاوران .
قال الأول : « لست إلا خنزيراً ضخماً . وإنك أشد حيوانية من

خنوص . » فرد عليه الثاني : « ما زوجتك إلا ساحرة . »

فقال بزاروف لأركادي : « هذا السلوك غير المتكلف ، وما في هذا

الشجار من مضحكات ، دليل كاف على أن الفلاحين عند والدي لا يظلمون .
ولكن ها هو ذا نفسه يخرج الى مدرج الباب . لا بد أنه قد سمع
الأجراس . إته هو ، انني أعرفه ، ولكن شد ما ابيض شعر هذا
الشيخ المسكين ! »

الفصل العشرون

مال بزاروف خارج المركبة ، ومد أركادي عنقه من فوق كتف صديقه ، فرأى رجلاً كبيراً ضعيفاً على عتبة باب بيت ريفي ، أشعث الشعر ألقى الأتف ، في معطف عسكري عتيق مفكك الأزرار ، منتصباً باعتدال على ساقين منفرجتين ، وكان يدخن غليوناً طويلاً ، ويفغر بعينه ليتقي وهج الشمس .

وقفت الجياد . وقال والد بزاروف وهو مستمر على التدخين : « أهذا أنت أخيراً ؟ » وكان غليونونه يتراقص بين أصابعه : « هيا انزل ودعني أعانقك » وسمع صوت يهتز انفعالاً : « انيوشا . انيوشا . » وانفتح الباب ، وظهرت على الوصيد عجوز قصيرة ، ضخمة بدنية ، معتمة ببطاقيّة يضاء ، مرتدية صدرية ذات ألوان صارخة . وأطلقت صيحة وترنحت ، وكادت أن تسقط لولا أن أسندها بزاروف . وانعقد ساعداها في الحال حول عنق ولدها ، وضمت وجهه الى صدرها ، وكان صمت طويل ، لا تسمع خلاله إلا جهشات الأم العجوز المتقطعة .

وتنفس الأب بصعوبة ، ورفرت عيناه كثيراً ، ثم تبادل نظرة مع

أركادي وقال : « هيا . هيا يا اريشا . حسبك . » وكان أركادي واقفاً قرب المركبة ، على حين أن الفلاح المتبويء مقعد السائق ، أدار وجهه متأثراً ، وأردف الأب : « ماذا تصنعين ؟ كفي أرجوك . »

فهمهمت : « آه يا فاسيلي ايفانوفيتش . لم أره منذ دهور ، وا حر قلباه ... انيوشكا المحبوب ، ولدي العزيز . »

وأبعدت وجهها المغضن المسكين عن ولدها دون أن تحل عنه ذراعها ، وجهها المبلل بالدموع ، الطافح حناناً ، وأجالت فيه نظراتها بعينين مترعتين بالأشواق ، فيهما شيء يضحك ، ثم ضمت نفسها اليه من جديد . فقال فاسيلي ايفانوفيتش : « انني أعلم جيداً أن هذا من طبيعة الأشياء ، ولكن فلنعد الى أنفسنا ، إن ايفاجني قد أتى معه بصديق . » ثم أضاف وهو يحمي أركادي ويقول : « إنك تفهم ضعف النساء قلب الأمهات ... »

ولكن شفتيه وحاجبيه تحركت منفعة دون إرادته ، وارتعشت لحيته ... وبذل مجهوداً ظاهراً لكي يسيطر على نفسه ، ويلعب دور عدم الاكتراث .

فانحنى أركادي بدوره .

قال بزاروف : « هيا يا أماء ، ألق مع والدي . » وأسند العجوز الطيبة التي حطمها الانفعال . وبعد أن أجلسها جلسة مريحة ، عانق أباه مرة أخرى ، بصورة مستعجلة ، وقدم له أركادي .

قال فاسيلي ايفانوفيتش : « يسرنا جداً أن نتعرف عليك ، وكل

ما أرجوه هو أن تعذرنا . سوف لا تجد عندنا أشياء عظيمة ، إنما نعيش ببساطة ، كما في الجيش تقريباً . ولكن هدي روعك يا أرينا فلا سيفنا ...
أهكذا تهازين ؟ لابد أن ينتقدنا المسيو على هذا الضعف .
فقالت العجور وهي غرقى بدموعها : « سيدي العزيز لم أتل شرف معرفة اسمك ولقبك ... »

فهمس فاسيلي ايغانوفيتش باحترام عميق : « أركادي نيتولا يافيتش .
« معذرة ليس الذنب ذنبي ... » وتمخطت ثم مالت يمنة ويسرة ،
ونشفت بعناية عينها ، الواحدة بعد الأخرى « اعذرني كنت خائفة جداً
أن أموت قبل رؤيته ثانية ... و... ول... ولدي العزيز .
فأجاب فاسيلي ايغانوفيتش بحرارة : « ولكنك رأيته ثانية
ياسيدي . » وأضاف موجهاً كلامه الى فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ،
حافية القدمين ، في ثوب أحمر صارخ ، وكانت واقفة على العتبة تنظر الى
المشهد بعين وجلة : « هاتي كأساً من الماء لسيدتك ، على صينية ، هل
سمعت ؟ » وأردف يخاطب الصديقين بعبارة التفخيم المعتادة : « وأتما
أيها السيدان ، اسمح لي أن أدعوكما الى دخول مكتب عجوز متقاعد .
وقالت أرينا فلا سيفنا بصوت مكتئب : « دعني أقبلك مرة أخرى
يا اينوتشكا » فاتجه بزاروف نحوها فقالت : « لشد ما أصبحت
جميلاً . »

فأجاب فاسيلي ايغانوفيتش : « اذا كان جميلاً أو غير جميل ، فهو
رجل ، رجل كامل الرجولة . والآن يا أرينا فلا سيفنا ، الآن وقدارتوى

قوادك الأموي ، أو مل أن تذهبي لتشتغلي باطعام ضيفينا ، لأنك تعلمين جيداً : أن القول الجميل لا يشبع حتى البلابل . »

فنهضت العجوز الصالحة وقالت : « ستكون المائدة معدة في الحال يا فاسيلي ايفانوفيتش ، سأهرع بنفسي الى المطبخ لأشير بأعداد السماور . وسيكون كل شيء جاهزاً . لم أره منذ ثلاث سنوات ، ولم أقدم له مشروباً ولا مأكولاً ، ثلاث سنوات ، يالها من سنوات .

» هيا اعلمي ما بوسعك ، ولا تخجلينا معهم ، وأتما أيها السيدان ، هلمنا . هو ذا تيموفيتش آت ليحييك ، يا ايفاجني ، لابد أن يكون هو أيضاً مغتبطاً ، أفهل أنت مبتهج ؟ هيا اعترف . هيا تعالا . »

وقادها فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يجر حذاءه البيتي القديم وراءه ، على خشب البلاط بقرقة .

كان البيت بأجمعه يتكون من ست غرف صغيرة . وتسمى الغرفة ، التي قاد فاسيلي ايفانوفيتش اليها صديقينا الشابين ، المكتب . وتحوي منضدة ذات قوائم غليظة ، محملة بكمية من الأوراق يحسبها الراي داخنة بسبب الطبقة الكثيفة من الغبار التي تغطيها . وكانت هذه المنضدة تشغل المسافة بين الشباكين كلها ، وعلقت على الحائط بندقيتان تركيتان ، وسيوف ، وخريطتان كبيرتان ، ورسوم للتشريح ، وصورة لهافلند^(١)

(١) هافلند كريستوف (١٧٦٢ — ١٨٣٦) طبيب وعالم الماني

حظقت شهرته الآفاق .

وقطعة مكتوبة حياكة من شعر، في إطار أسود، ودبلوم مغطى بالزجاج .
وفي الغرفة أيضاً أريكة من الجلد، قد نصل لونها وتمزقت في عدة أماكن ،
موضوعة بين خزانتيين واسعتين من خشب السدر من كاريليا . وكتب
وصناديق ، وطيور محشوة مخنطة ، ومقامم وقناني مبعثرة على الرفوف ،
وتلوح كذلك في إحدى الزوايا بطارية كلفن الكهربائية ، مكسورة
غير صالحة للاستعمال .

شرع فاسيلي ايفانوفيتش يقول : « أحذرك يا زائري العزيز ، إننا
هنا كما لو كنا جنوداً في حملة تستريح في العراء ... »
فقاطعه بزاروف : « كفاك اعتذاراً . إن كيرسانوف يعلم جيداً بأننا
لسنا من آل قارون ، وأن بيتنا ليس قصرأ . وأنتك لست رئيس خدم ،
ولكن أين سنسكنه ؟ تلك هي المشكلة . »
« كن مطمئناً يا ايفاجني . يوجد في الجناح غرفة فاخرة سيراتاح فيها . »
« ألك الآن جناح إذن ؟ »

فتدخل تيموفيتش قائلاً : « نعم هناك حيث يوجد الحمام . »
فأسرع فاسيلي ايفانوفيتش فصادق على قوله : « بل هي بجانبه .
إننا الآن في فصل الصيف . سأجري الى هناك . وسأذهب ، وسأسعى
في تهيئته ، وأنت يا تيموفيتش ، هات الأمتعة . وسأترك لك مكتبي ،
يا ايفاجني ، هذا أمر لا شك فيه . »

وقال بزاروف لما ابتعد أبوه : « أرايت ؟ إنه عجوز صغير يحمل
السلوى الى القلب ، وله قلب من ذهب . إنه غريب كأبيك ولكنه من

نوع آخر . وهو يفرط كثيراً في الكلام . »

فقال أركادي : « ويخيل اليّ أن أملك أيضاً ممتازة . »

« نعم إنها بسيطة طيبة . سوف ترى الغداء الذي ستصنعه لنا . »

وقال تيموفيتش ليزاروف وقد عاد بحقيقته يحجرها جرأ : « ما كنا

بانتظاركم اليوم ، ولذا فليس في الدار لحم بقر . »

« حسناً . سنستغني عن لحم البقر ، إذ لا التزام بمستحيل . وكما يقال

الفقر ليس برذيلة . »

فسأله أركادي بغتة : « كم يملك أبوك من الألقاب ؟ »

« الملك ليس له ، بل لأمي . خمسة عشر قنّاً لا أكثر ، كما أظن »

فقال تيموفيتش : « إثنان وعشرون من فضلك . »

وسمع صوت خفق النعال ، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد ، فقال

بوقار : « بعد بضعة لحظات ستكون غرفتك جاهزة ، يا أركادي .

نقولاً يايفيتش . أهكذا تسمى ؟ » ثم أضاف مشيراً الى صبي قد أتى معه ،

ذي شعر مقصوص قصير . يلبس قفطاناً أزرق ممزقاً من مرفقيه ، وحذاء

كبيراً : « هذا فيدكا لخدمتك . وأقول ثانية ، رغم أن ابني منعهني

من ذلك ، أرجوك أن تكون حليماً متسامحاً . إن الخادم يستطيع حشو

الغلايين ... إنك تدخن أليس كذلك ؟ »

فأجاب أركادي : « أدخن السيكار على وجه التخصيص . »

« الحق كل الحق معك ، إني أنا أيضاً أفضل السيكار ، ولكن

الحصول عليه في غاية الصعوبة في زاويتنا هذه ... »

فقال بزاروف : « كفاك شكوى من الفقر والبؤس . تعال واجلس على هذا الديوان . ودعني أتملى برؤيتك . »
فامتثل فاسيلي ايفانوفيتش الأمر ضاحكاً . وكان وجهه يشابه وجه ابنه كثيراً ، ولكنه يختلف عنه بانخفاض جبهته وضيقها وبسعة في فمه . وكان يحرك كنفه دائماً ، كما لو كان رداؤه يضايقه من تحت الأبط ، وكان يجول بعينه ، ويسعل ويحرك أصابعه ، على حين أن ابنه كان يتميز بجمود وتعال .

وأعاد فاسيلي ايفانوفيتش : « أشكو البؤس ؟ لا تنصور يا ايفاجني بأني أريد أن أثير شفقة ضيفنا ، وأني أريد أن أفهمه بأننا فقراء ، على العكس ، إنني أرى أن وجود الفكر عند الانسان لا يجعله فقيراً ، وعلى كل حال ، فاني أبذل كل ما في وسعي لكيلا أصدأ كما يقال ، أي أن لا أتخلف عن ركب الزمن . »

وسحب من جيبه منديلاً حريراً أصفر جديداً كل الجدة . كان قد أخذه وهو في طريقه عندما كان ذاهباً الى غرفة أركادي . وحركه في الهواء واستمر قائلاً : « هكذا لقد أخذت الفلاحين بنظام الاستئجار ، ووزعت عليهم الأرض ليشغلوا فيها بنصف الربيع . ولو كان ذلك قد جر عليهم خسائر محسوسة . وأحسب أنني لم أفعل سوى الواجب . وأن الذوق السليم البسيط يأمر بأن أعمل هكذا . ولو كان الملاكون الآخرون لا يحلمون بذلك . إنني أتبع الطرق العلمية ، وما تتطلبه الثقافة . »

فقال بزاروف ملاحظاً : فعلاً إني أرى لديك كتاب (صديق الصحة)

لسنة ١٨٥٥ . »

فأسرع فاسيلي ايفانوفيتش يقول : « لقد أرسله اليّ صديق قديم . »
وأضاف وقد توجه بصورة خاصة الى أركادي : « إننا نعلم ما هو علم
وظائف الدماغ وتأثيرها على قوى النفس ، فعلى سبيل المثال » وأشار
الى رأس من المرمر فوق خزانة ، قد قسمت حجمته الى مربعات صغيرة
مرققة . « نحن نعرف أيضاً شونلاين ورادماخر ^(١) »

فسأل بزاروف : « ألم يزل أهل الريف يؤمنون حتى الآن برادماخر ؟ »
فتضح فاسيلي ايفانوفيتش : « في الريف ... ؟ على وجه التأكيـد
أيها السادة . إنكم تعلمون أكثر مما نعلم ، وليس باستطاعتنا أن نفتني
أثركم لأنكم أولئك الذين سيخلفوننا . وأتذكر في زماني ، بأن العالمين
هوفمان وبراون ^(٢) صاحبي نظرية الحيوية ، كنا نعدّها من المضحكين ،
ومع ذلك فإن زمنهما كان يلهج بذكرهما ، وقد جاء باحث جديد أنزل

(١) شونلاين يوهان لوكاس (١٧٩٣ — ١٨٤٤) ورادماخر
(١٧٧٢ — ١٨٤٩) طبيبان ألمانيان .

(٢) هوفمان طبيب ألماني شهير ، مكتشف داء النقرس الذي يحمل
اسمه (١٦٦٠ — ١٧٤٢) وبراون جون (١٧٣٥ — ١٧٨٨) طبيب
ايقوسي ، صاحب نظرية طبية (الحوية) مؤداها أن الحياة هي نتيجة
قوة مستقلة عن المادة .

رادماخر عن عرشه ، فأتم تمنحون لهذا احتراماً . ولكن سيأتي دور
 هذا أيضاً بعد عشرين عاماً ، ويأتي من يسخر منه . »
 فقال بزاروف : « اذا كان ذلك يسليك ، فسأقول لك بأننا نسخر
 الآن من الطب بأجمعه ، وأننا لا نتحنى أمام أحد . »
 « كيف ؟ ومع ذلك تريد أن تكون طبيباً . »
 « ثم ماذا ؟ هذا لا يمنع ذلك . »

فأدخل فاسيلي ايفانوفيتش احدى أصابعه في غليونه وراء بقايا الرماد
 الساخن وقال : « ربما ، ربما ، لا أريد أن أناقش . من أكون ؟ جراح
 عسكري متقاعد ، وقد جعلني الحظ الآن مزارعاً . » وأضاف متوجهاً
 مرة أخرى الى أركادي : « لقد اشتغلت في فرقة جدك ، آه كم رأيت من
 العجائب في حياتي ؟ هل بقيت مجتمعات لم أغشها ، أو لم أخض غمارها ؟
 وها أنذا كما تراني . لقد جسست نبض الأمير ويتجنشتاين ^(١)
 وجوكوفسكي ^(٢) وفي الجنوب أبطال الاربعة عشر . لقد فهمت ما أعني ^(٣)
 أليس كذلك (وحين نطق بهذه الكلمات نطق بها بالهجة ذات معنى)
 لقد عرفتهم جميعاً بأن جسستهم بأطراف أنا ملي . وأنت تعلم بأن ذلك

(١) الأمير ويتجنشتاين (١٧٨٣ — ١٨٤٢) فيلد مارشال روسي ،
 كان يتألق نجمه خلال الحروب ضد نابليون .

(٢) جوكوفسكي (١٧٨٣ — ١٨٤٠) شاعر روسي رومانتسيكي شهير .

(٣) اشارة الى منظمي انقلاب ١٤ ديسمبر ١٨٢٥

لا يعني ، لا يعني سوى شيء واحد أدّ واجبك وليسبق من يشنق .
لقد كان جددك رجلاً كريماً فاضلاً وعسكرياً بحق .
فقال بزاروف بعدم اكتراث : « عليك أن تعترف بأنه كان رجلاً
فارغ الرأس . »

« أوه يا أيفاجني كيف تجرأ على هذا القول ؟ .. ناشدتك الله ...
لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد هؤلاء ، بالتأكيد ... »

فقاطعه بزاروف : « هيا . دعه في سلام . عند مجيئي كنت في منتهى
الشوق لرؤية أجمة الحور التي عندك . لقد نمت نمواً مرضياً . »
فتحمس فاسيلي أيفانوفيتش فجأة وقال : « ليس هذا شيئاً يذكر ،
عليك أن ترى الحديقة ، لقد زرعتها بنفسي . وهي تعطي كل أنواع
الثمرات والأعشاب الطبية ، وعبثاً تحاولون أن تحطوا أيها السادة الشبان ،
من قيمة الأعشاب ... لقد ذكر عنها باراسيلوس حقائق مقدسة ، وأعطاهها
حقها . لقد انصرفت نهائياً عن ممارسة المهنة ، ولكن لا يسعني إلا أن
أمارسها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع . إن الناس يأتون لاستشارتي ،
ولا أستطيع أن أدفع القوم وأطردهم . وبين الفينة والفينة يزورني أحد
الشياطين من الفقراء . إذ لا يوجد هنا طبيب . وعندنا جار هو ماجور
قديم ، وتصور أنه يعالج الناس أيضاً . وفي أحد الأيام حاولت أن أعرف
ما إذا كان قد درس الطب ، فأجابوني : كلا ، إنه يعالج الناس لأنه من
محبي البشر . ها ها ها من محبي الإنسانية . ها ها . ما قولكم في ذلك ؟
ها ها ها . »

وصرخ بزاروف بصوت غليظ : « فيدكا . احش لي غليوناً . »
وتابع فاسيلي ايفانوفيتش كلامه بحرارة : « في أحد المرات وصل
طبيب الى أحد المرضى ، فوجد أن المريض قد قضى نحبه ، ولما أراد أن
يتكلم منعه الخادم قائلاً : (لاحتاجة اليك الآن) فتماسكه الاضطراب ،
ونهمّ متسائلاً : (لا بد أن أسأل هل فهق قبل أن يموت ؟) ... (نعم .
فهقة قوية جداً) ... (نعم . إذن فكل شيء على مايرام) وانصرف .
ها ها ها . »

وكان الشيخ يضحك وحده ، أما أركادي فقد ابتسم بتكلف على
سبيل المجاملة ، واكتفى بزاروف بأن سحب نفساً من غليونه . وطال
الحديث ، ووجد أركادي فرصة للذهاب الى الغرفة المجاورة للحمام ،
فوجدها نظيفة مريحة جداً . وأخيراً جاءت تانيوشا معلنة أن الطعام
قد هبى .

فنهض فاسيلي ايفانوفيتش أول من نهض وقال : « هيا أيها السادة
كونوا كرماء ، واعذروني اذا كنت قد أضجرتكم ، وأعتقد أن زوجتي
الطيبة سترضيكم . »

كان الطعام فاخراً ، رغم أنه قد أعد على عجل ، وكان كثيراً ، أما الخمر
فلم تكن على أحسن ما يرام ، فقد كانت من نوع الشيري الأسود على
وجه التقريب ، قد اشتراها تيموفيتش من المدينة من حانوت خمر
معروف ، وكان ما يعيها طعم كطعم النحاس العفن . وكان الذباب
يضايقهم . وقد جرت العادة أن يطرده غلام بغصن أخضر كبير . ولكن

فاسيلي ايفانوفيتش أبعد له لئلا يستوجب انتقاد شبان الجيل الجديد .
 وكانت أرينا فلاسيفنا قد وجدت مجالاً واسعاً للترين ، فلبست طاقية
 ضخمة ذات شرائط حريرية ، وشالاً أزرق يليق بالصغار ، وطفقت
 تبكي منذ أن رأت عزيزها انيوشا ، ولم يتدخل زوجها لأجل أن
 يهدئها ، فقد أسرع هي بتنشيف دموعها لكيلا يتبقع شالها الجميل .
 وكان يقوم بالخدمة فيسدا ، والظاهر أنه كان غير مرتاح بحذائه الذي
 لم يكن معتاداً عليه ، والذي لبسه لأول مرة على ما يظهر ، وكانت تساعد
 امرأة عوراء ذات ملامح رجولية ، تسمى انفيسوشكا ، تقوم بوظيفة
 مدبرة البيت ، ومديرة أقنان الدجاج ، وغسالة للملابس . وكان فاسيلي
 ايفانوفيتش يروح ويغدو في الغرفة ، وعليه امارات السعادة ، الى حد
 أن أصبح وجهه جذاباً . وكان يعرض مخاوفه القاسية التي سببتها سياسة
 نابليون ، واضطراب المسألة الايطالية . ولم تكن أرينا تنظر الى
 أركادي ، فلم يحظ بشرف اهتمامها ولم تكن عيناها تنظران إلا الى ولدها ،
 وهي تتنهد بدون انقطاع ، وقد أسندت وجهها المستدير ذا الشفتين
 الممتلئتين الحمراوتين كحمرة الكريز . وعلى خديها رصع جميلة ، وفوق
 ذلك حاجبان يخلعان عليها معنى الطيبة ولين العريكة . وكانت تقتلها الرغبة
 الى معرفة عدد الأيام التي سيقضيها ولدها عندهم . ولكنها لا تجرأ على
 سؤاله ، وكانت تقول لنفسها : « لو قال لي ، حتى ولو كانت المدة يومين »
 وكان قلبها ينقبض .

واختفى فاسيلي ايفانوفيتش بعد انتهاء وجبة الشواء ، وعاد في الحال

تقريباً ، يحمل قنينة صغيرة من الشمبانيا مفضوذة الختم وصاح :
« ها أتم ترون ، أننا ولو كنا نعيش في القفر ، إلا أن لدينا ، مع ذلك ،
ما يساعدنا على الاحتفال في المناسبات العظيمة . »

وملاً ثلاث كؤوس وأخرى صغيرة ، وشرب نخب صحة « ضيفه
العزیز المحترم » بجمرة واحدة ، على الطريقة العسكرية ، واضطرت
أرينا فلاسيفنا الى أن تفرغ كأسها الى القطرة الأخيرة . وعندما
أحضرت الحلوى ، اضطرت أركادي الى أن يذوق أربعة أنواع مختلفة ،
قد صنعت حديثاً ، وما كان يهوى الأطعمة الحلوة . وقد رفض بزاروف
أن يمسه بكل اصرار ، وأشعل سيكاراً . وبعد الحلوى احضر الشاي مع
القشطة والرقاق مع الزبدة . ثم صحب فاسيلي ايفانوفيتش ، بعد ذلك ،
ضيفه ، الى الحديقة ليستمتعوا بجمال المساء . وعندما مروا بأحد المقاعد ،
همس في أذن أركادي :

« أحب أن أتفلسف هنا ، وأنا أتأمل غروب الشمس ، وهذا يلائم
معتزلاً مثلي . على بعد من هنا غرست أشجاراً عزيزة على هوراس . »
فسأله بزاروف : « أي أشجار ؟ »
« اوه . انها الاكاسيا . »

فتساءب بزاروف . وقال فاسيلي ايفانوفيتش : « لقد حان الوقت لأن
يستسلم المسافرون الى ذراعي مورفي ^(١) »

(١) إله الاحلام ، ابن الليل والنوم .

فأكّد بزاروف : « أو بعبارة أخرى . لقد حان الوقت للذهاب الى

النوم . صحيح انه وقت النوم . »

ثم قبل جبين أمه واستأذنها في الانصراف ، فاحتضنته ورست عليه
اشارة الصليب ثلاث مرات خفية . وقاد فاسيلي ايفانوفيتش أركادي الى
غرفة نومه ، وتمنى له الراحة الحلوة التي كان يتذوقها هو نفسه في مثل
هذه السن السعيدة . « وفي الواقع نام أركادي نوماً لذيذاً في غرفته ،
وكانت تفوح بشذى النعناع ، وكان اثنان من الصراصر قد أخذها شوق
الى الغزل ، خلف المدفأة . ولكن صراخهما كان مع ذلك منسجماً
كترنيمه للنعاس ، ومن غرفة أركادي عبر فاسيلي ايفانوفيتش الى مكتبه .
وبعد أن جلس على الديوان عند قدمي ابنه ، تهيأ ليثرثر قليلاً ، ولكن
بزاروف طرده قائلاً له انه في بحران من النعاس وبالرغم من ذلك
لم تغمض له عين في الليل . وكانت نظرات عينيه الواسعتين المفتحتين
تحدق في الظلام باصرار ، ولم يكن لذكريات الطفولة أي سلطان عليه ؛
ولكنه لم يفلح في انتزاع نفسه من مشاعره الهائجة التي أصابته في الليلة
المعلومة . أما أرينا فلاسيفنا فقد أخذت تدعو وتصلي بكل قواها ، ثم
ظلت مدة طويلة تتحدث مع انفيسوشكا التي كانت مسمرة كتمثال أمام
سيدتها ، ترمقها بعينها الوحيدة . ثم توشوش في اذنها بصوت خافت جميع
ملاحظاتها وأفكارها الخاصة فيما يتعلق بإيفاجني فاسيليتش ، وكان
الفرح والحيرة والدخان قد أحدث دوّاراً في رأس الام الصالحة العجوز ،
وحاول زوجها أن يتحدث معها ، ولكنه كف عن ذلك بحركة من

يده تدل على الخيبة .

كانت ارينا فلا سيفنا امرأة من تلكم النسوة من طبقة النبلاء الروس الصغار . كانت متمسكة بالأساليب القديمة . فكان يليق بها أن تولد قبل مائتي سنة من ذلك التاريخ ، في موسكو القديمة . ولشدة ورعها وفراط استجابتها للمؤثرات ، كانت تؤمن بالعرافة والتكهنات ، والتمائم والسحر والأحلام ، وكانت تعتقد بتنبؤات المشعوذين والدجالين والمجانين ، وبالأرواح التي تحتل المنازل والغابات ، وبالمصادفات السيئة ، وبالتعاويد وعقاير المرأة الصالحة ، وبتناول الملح الذي يوضع على الهيكل في الخميس المقدس ، وبنهاية العالم القريبة . وكانت تعتقد بأن محصول الحنطة السوداء يكون طيباً إذا لم تطفأ الأنوار ليلة عيد الفصح بعد قداس منتصف الليل ، وبأن الفطر لا ينمو إذا وقعت عليه عين رجل ، وبأن الشيطان يحب الأمكنة التي يوجد فيها الماء ، وبأن اليهود جميعاً يحملون بقعة من الدم فوق صدورهم . وكانت تخاف الفيران ، والأفاعي ، والضفادع ، والطيور ، والعلق ، والرجال الصهب ، والرعد ، والماء البارد ، وتيارات الهواء ، والحيل ، والتيوس ، والقنطريون . وتعتبر الصراير والكلاب حيوانات نجسة ، ولا تأكل لحم العجل ، ولا الحمام ، ولا السرطان ، ولا الجبن ، ولا الهليون ، ولا القلقاس ، ولا الأرنب ، ولا الرقي (لأن الرقية المقطوعة تذكرها برأس يوحنا المعمدان المقطوع) ولا تتحدث عن المحار والأصداف إلا وتأخذها الرعدة ، وتحب الأكل كثيراً ، ولكنها تأخذ نفسها بالصرامة أثناء الصيام ، وتنام عشر ساعات في اليوم .

ولكنها لا تهجع اذا كان فاسيلي ايفانوفيتش مصاباً بصداع . ولم تكن قد قرأت من الكتب إلا الكسيس أو الكوخ في الغابة ^(١) وكانت تكتب رسالة أورسالتين على أكبر تقدير في السنة ، وهي ربة بيت ممتازة ، ولها منتهى الامام بشؤون الطبخ ، ولو أنها لا تمد يدها الى شيء ، ولا تنقل من محلها .

وهي امرأة صالحة كل الصلاح ، بعيدة عن الحماقة ، وكانت تؤمن أن العالم طبقتان ، أسياد يأمررون ، وصعاليك يأتمرون . ولذلك فهي لا ترى بأساً ، لا في الذلة الى حد تعفير الجباه ، ولا في التحيات التي تؤدي بالركوع حتى الأرض ، ولكنها كانت مع أتباعها ، مفعمة وداعة فياضة بالبشاشة واللفظ ، فلا تدع مستجدياً يعبرقظ دون أن تنفحه بصدقة ، ولا تغتاب أحداً ، ولكنها كانت تحب أن تثرثر بالشائعات . وقد كانت حسناء في شبابها ، كانت تعزف على السنطور ، ولها إلمام باللغة الفرنسية . ولكنها خلال أيام اغترابها الطويلة صحبة زوجها ، الذي تزوجته ضد هواها ، سمت وترهلت ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية . كانت تحب ولدها وتحشاه بصورة تفوق الوصف .

وكان فاسيلي ايفانوفيتش يدير ثروتها ، وقد تركت له في ذلك منتهى الحرية في العمل ، وكانت تنهد وتن ، وتهز منديلها وترفع حاجبيها شيئاً فشيئاً ، وينتابها الخوف ، عندما يشرع زوجها في التحدث عن

(١) قصة لذكر ابي دومينيل (١٧٦١ - ١٨١٩)

الاصلاحات الحكومية المقبلة ، وعن تصاميمه هو . وكانت متشائمة
جداً ، تتوقع بدون انقطاع ، حلول كارثة عظيمة ، وتستخرط في البكاء
عندما تتذكر شيئاً محزناً ... إن النساء شبيهاً آخذة بالقدرة شيئاً
غشياً . والله وحده يعلم هل يجب أن تفرح بذلك ؟

الفصل الحادي والعشرون

كان أول ما فعله أركادي ، حين استيقظ في اليوم الثاني ، أن فتح النافذة ، وكان أول ما لاح لعينه فاسيلي ايفانوفيتش . كان الشيخ العجوز منهمكاً في بستانه ، وهو في رداء نوم شرقي ، وقد لف حول وسطه منديلاً كبيراً عوضاً عن الحزام . ولما شاهد ضيفه الشاب ، صاح ، بعد أن استند على منكاشه :

« صباح الخير ، صباح الخير ، كيف قضيت ليلتك ؟ »

فأجاب أركادي : « على أحسن ما يرام . »

« أما أنا ، فكما تراني ، مثل سنستاتوس ، أهبي ، مشتلاً للفت الحريف المتأخر . إننا والله الحمد ، نعيش في زمن ينبغي فيه على كل أحد أن يحصل على قوته بيديه ، دون اعتماد على الآخرين ، يجب أن نستغل بأنفسنا . لقد كان كل الحق مع جان جاك روسو . لو رأيتني ، يا سيدي العزيز ، قبل نصف ساعة ، لوجدتني مشغولاً بشيء آخر . لقد جاءني فلاحه تشكو لي من المغص ، اذ هكذا يسمون الزحار ، فأعطيتها ... كيف أعبر عن هذا ... أعطيتها حقنة من الأفيون . وقلعت سناً لأخرى ،

وقد اقترحت عليها أن أخدرها باللائير ، فلم توافق . فعلت كل ذلك مجاناً دون مقابل ، بوصفي هاوياً . وبعد ، فلا عجب من ذلك ، فاني من العامة والسوقة ، لست من عائلة شريفة الارومة كعجوزتي الصالحة ... ولكن هلا تفضلت الى الظل ، لاستنشاق نسيم الصباح البليل ، قبل تناول الطعام ؟ »

فخرج اليه أركادي واقتفاه .

قال فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يرفع يده بتحية عسكرية ، الى قبعته المدهنة التي تغطي رأسه : « على الرحب والسعة ، مرة أخرى ، انكم معتادون على الترف كما أعلم ، واسكن حتى العظماء في العالم ، لا يأنفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ . »

فصاح أركادي : « عجيب ، أنا من عظماء العالم ؟ وعلاوة على ذلك فلست معتاداً على الترف أصلاً . »

فأجابه فاسيلي ايفانوفيتش بتقطعية محيية : « انني وان كنت الآن من المهملين ، فقد تمرست بالناس يوماً ، وعرفت الطير من طيرانه ، ولولم أملك هذه الموهبة ، وأنا التافه الضئيل ، لسحقت سحقاً من زمن مديد . أقول لك ذلك بمنتهى الصراحة ... ان الصداقة التي أحظها بينك وبين ولدي لتملأني بهجة وحبوراً . انه يستيقظ مبكراً جداً ، كعادته ، وذلك ما لا بد أن عرفته ، ثم يجري يمنة ويسرة . اسمح لي بسؤال . هل معرفتك بايفاجني ترجع الى زمن طويل ؟ »

« لقد تعارفنا هذا الشتاء . »

« صحيح ؟ ساحني اذا سألتك سؤالاً آخر ... ولكن لنجاس ...
قل لي ، ولكن مهلاً ، قل لي بملء الاخلاص ، ما رأيك فيه ؟ »
فأجاب أركادي بحرارة : « ان ولدك من ألمع الرجال الذين صادفتهم
على الإطلاق . »

فحفظت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجأة ، وغمرت وجهه حمرة خفيفة
لونت خديه وأفلت المعزق من بين يديه ، وأجاب :
« اذن فأنت تنتظر له ... »

فواصل أركادي : « انني متأكد بأن مستقبلاً عظيماً ينتظره ،
وأنه سوف يخلد اسمك . انني مقتنع بذلك منذ لقائنا الأول »
فقال فاسيلي ايفانوفيتش بصعوبة ، كن يعاني ألماً ، وقد استقرت على
فه الواسع ابتسامة انتصار : « كيف ؟ ... قص علي . »
« أتريد أن تعلم كيف تقابلنا ؟ »

« نعم ... وكل شيء ... »

وشرع أركادي يتحدث عن بزاروف بحماسة بالغة متزايدة ،
وبحرارة أشد من حرارة حديثه ذلك المساء ، حين رقص المازوركا مع
مدام اودينيتسوف .

وكان فاسيلي ايفانوفيتش يصغي اليه دون أن يعتريه الملل ، فيتمخط
ويلف منديله على يديه ، ويسعل ، وينكش شعره ، وأخيراً لم يتمالك
نفسه ، فقال على أركادي وقبل كتفه ، دون أن يكف عن الابتسام وقال :
« لقد جعلتني أسعد الرجال . ويجب أن أقول لك بأنني أعبد ولدي



عبادة الأصنام ، انني لا أتكلم عن عجوزتي الصالحة ، انها أم ، وهذا يعني كل شيء ، اني لا أجراً على التعبير عن مشاعري أمامها ، إنه لا يحب ذلك ، انه عدو كل إعلان عن العواطف ، وكثيرون ينعون عليه هذه الصرامة في الخلق ، ويرون فيها عبقرية وبلادة في الاحساس ، ولكن يجب أن لا نطبق عليه المقاييس التي تنطبق على الرجال الآخرين ، أليس ذلك صحيحاً ؟ ان أقرانه يفرقون ذويهم بكثرة مصاريفهم ومطالبتهم المستمرة ، أما هو ، هل تصدق أنه لم يسألني كوبكاً واحداً أكثر من حاجته ؟ إني أقسم لك على ذلك . »
فقال أركادي : « انه رجل أمين نزيه . »

« نزيه ، هذه هي الكلمة . اني ، يا أركادي نيقولايفيتش ، لا أعبده فحسب ، ولكني فخور به أيضاً ، وكل طموحي أن يقرأ الناس في ترجمة حياته في المستقبل : ابن جراح عسكري بسيط ، استطاع أبوه ، بالرغم من ذلك أن يفهمه مبكراً ، ولم يدرجهداً في سبيل تعليمه ... »
واختنق صوت الشيخ العجوز في حنجرتة . فشد أركادي على يده .

قال فاسيلي ايفانوفيتش بعد لحظة من الصمت : « ما رأيك في الأمر ؟
لن يحوز مطلقاً على الشهرة في المسلك الطبي ، كما تنبأت »

« كلا ولا شك ، ولو أنه سيكون بين الأطباء ممن يشار إليهم بالبنان . »

« اذن ما العمل يا أركادي نيقولايفيتش ، كيف اذن ... »

« من الصعوبة أن تشكهن بذلك الآن ، ولكنه سوف يصبح

مشهوراً . »

فردد الشيخ ، وقد استغرقته أفكاره : « مشهور . »

وقالت انا فيسوشكا ، التي خطرت ببطبقها الكبير ، المترع بالعليق

الاحمر : « ان أرينا فلا سيفنا تدعوكم لتناول الشاي . »

فارتجف فاسيلي ايفانوفيتش وقال : « هل هنالك قشدة طرية

لهذا العليق ؟ »

« نعم . »

« انه بارد يا أركادي نيقولايفيتش ، تمنع به ، خذ كمية أخرى ،

بدون مراسيم من فضلك ، ولكن لماذا لم يعد ايفاجني ؟ »

فهتف بزاروف من غرفة أركادي : « انني هنا . »

فالتفت فاسيلي ايفانوفيتش ، وقال بحرارة ولهفة : « آه آه ، لقد

أردت أن تفاجأ رفيقك ، ولكنك متأخر يا ولدي ، لقد كنا نحوض

في الحديث منذ مدة ، والآن هيا الى شرب الشاي ، فان أمك تنتظرنا ،

وبهذه المناسبة ، فان لدي ما استشيرك به . »

« وما ذلك ؟ »

« هنا فلاح مصاب باليرقان . »

« تعني أنه مصاب بالصفرة ؟ »

« نعم صفرة مزمنة وعنيدة . لقد وصفت له حشيشة القنطاريون ،

وحشيشة القديس جون ، وأوصيته بأكل الجزر ، واستعمال ييكاربونات

الصودا . ولكن هذه ليست سوى مسكنات وقتية ، والمطلوب شيء

آخر . انك عبثاً تسخر من الطب . انني متأكد أن باستطاعتك أن

تتحفني بمشورة جيدة . ولكننا سنسلكم عن هذا فيما بعد . هيا
لشرب الشاي .

ونهض فاسيلي ايفانوفيتش ، بعد ذلك عن مقعده فوراً ، وشرع
ينشد لحن رويير الشيطان :

غرامي بالقمار وبالنساء يعادله غرامي بالطلاء

فغادر بزاروف النافذة وهو يهمهم : « يا لها من حيوية فريدة ! »
حلت الظهيرة وكانت الشمس ملتهبة وراء ستار رقيق من السحب
الضاربة الى البياض . كان كل شيء في القرية ساكناً ، الا الديوك التي
كانت تتناجى مرحة في القرية ، فتبعث في كل من يسمعها شعوراً عجبياً
بالنعاس والسأم . وفي جهة مرتفعة جداً ، في قمة شجرة ، كان يرن
صراخ باز يافع . متواصل كأنه صياح شكوى . وكان أركادي وبزاروف
مضطجعين في ظل كومة صغيرة من القش ، على حضينة منه ، ذي خشخشه
عند اللمس ، ولو انه لم يبرح أخضر عاطراً .

قال بزاروف : « ان شجرة الحور هذه تذكرني بطفواني ، كانت
تنمو على حافة حفرة يستخرج منها الطين ، فيما مضى ، لصنع القرميد .
وكنت مؤمناً في ذلك الحين بأن الحفرة والشجرة طلسماً ، وأن الضجر
لن يجد طريقاً الى نفسي حين اكون قريبهما . ولم أدرك آنذاك أن
الطفولة هي سبب تلك الغباوة لأنني كنت طفلاً . أما الآن ، وقد كبرت ،
فقد عدم الطلسم سحره . »

فسأله أركادي : « كم من السنين قضيت هنا ؟ »

« سنتين متتابعتين ، وعلاوة على ذلك ، فقد كنا نجبي ، الى هنا بين حين وآخر . وكنا نحيا حياة أفاكين ، فكنا ننقل بين بلدة واخرى . »
« وهل هذا المنزل قديم ؟ »

« نعم . لقد شيده جدي والد أُمي . »

« وما كان جدك ؟ »

« يلعبني الشيطان ان كنت أعرف ، وفي ظني أنه كان مساعد ميجر .
لقد خدم تحت امرة سوفوروف ، وما كان يمل قط من رواية قصص
عن عبور الألب ، ربما كانت كلها مختلفة . »

« اذن لهذا السبب قد علقتم صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال ؟
انني ، أنا أيضاً ، أحب الدويرات الصغيرة أمثال دويرتكم ، عتيقة شيئاً ،
جميلة بالذكريات ، وذات نكهة خاصة . »

فقال بزاروف متثائباً : « نعم ، فان روائح الزيت والحمدقوق تتأثر
منها ، وبعد فما أكثر البعوض والذباب في هذه الدويرات الساحرة ...
أف . ؟ »

وقال أركادي بعد سكوت قصير : « هل كانت تربيتك قاسية
في صغرك ؟ »

« انك تعرف أهلي . انهم ليسوا صارمين ، بل هم بعيدون عن
الصرامة جداً . »

« وهل تحبهم . »

« نعم يا أركادي . »

« ليتك تعرف كم يحبونك ؟ »

فلم يجب بزاروف بشيء . ولكنه قال أخيراً ، ويداه تحت ذقنه :
« أتدري فيم أفكر ؟ »

« كلا فيم تفكر ؟ »

« أرى أنهم يحبون حياة سعيدة . فان والدي مشغول دائماً ، رغم
سنه الستين ، فهو يتكلم عن المسكنات ، ويعالج المرضى ، ويسخو على
الفلاحين ، وهو ، على الاجمال ، قرير العين ، طرب الفؤاد . أما والدتي
فسعيدة ، هي أيضاً . ان نهارها مشحون بالمشاغل الكثيرة من « أوه ،
وآه » حتى أنها لا تجد وقتاً كافياً للخلو بنفسها . على حين أنني ...

« على حين أنك ؟ »

« على حين أنني أفكر ، أنني متمدد هنا ، بجانب كومة من القش ...
هذا الموضع الحقير غاية الحقارة اذا قيس ببقية العالم ، حيث لا أعد أنا
إلا ذرة متناهية في الصغر ، وما تبقى من حياتي تافه كل التفاهة بجانب
الخلود الذي لم أنله ولن أناله ... ومع ذلك ، في هذه الذرة ، في هذه
النقطة الرياضية ، دم يدور ودماع يعمل ، ويريد أشياء ... يا للهوس ،
يا للحماقة ... »

« اسمح لي أن ألفت نظرك الى أن ماقلته ينطبق على كل الرجال ... »
فأجاب بزاروف : « ألق معك ، أردت أن أقول أن أهلي مشغولون
بهذا وذاك ، وأنهم لا يأنهون للعدم ، ولا يثير اثمزازهم شيء ... أما
أنا ... فاني لا أستشعر إلا الضجر والهياج . »

« الهياج ، ولماذا ؟ »

« لماذا ؟ أتسألني لماذا ؟ هل نسيت اذن ؟ »

« لم أنس شيئاً ، ولكني لا أعرف بأن لك الحق بأن تغضب وتهتاج .

انك شقي ، أوافقك على ذلك ، ولكن ... »

« عجب ، عجب ، يا أركادي نيقولا يافيتش ، أرى أنك تفهم الحب

كما يفهمه كل شبان اليوم . انهم ينادون الدجاجة ، كلك . كلك . كلك ،

فاذا ما اقتربت الدجاجة منهم هربوا منها . لست على هذه الشاكلة ،

ولكن فلندع هذا . فعندما لا يستطيع الانسان أن يداوي شيئاً ، فعليه

أن ينجل من الكلام فيه . » ثم انقلب على جانبه وعاد يقول : « آه ،

هذه نملة صغيرة غاية في الجرأة تسحب ذبابة نصف ميتة . على رسلك ،

على رسلك يا شيختي ، لاترتبكي من مقاومتها ، فأنت حيوانة لك الحق في

التخلص من كل شعور بالرحمة . انتفعي من ذلك . لاتتصرفي كما تتصرف

نحن حين نحطم أنفسنا بأنفسنا . »

« أمثلك يقول ذلك يا ايفاجني ؟ اخبرني اذن متى حطمت نفسك

بنفسك ؟ »

فرفع بزاروف رأسه وقال : « اذا كان هنالك ما أفتخر به فهو

أني لم أحطم نفسي بنفسي ، ولن تصل امرأة الى ذلك أبداً . آمين .

انتهى كل ذلك ولن تسمع مني كلمة أخرى في هذا الموضوع بعد اليوم . »

وبقي الصديقان ساكتين بضع لحظات ، ثم قال بزاروف : « نعم .

ان الانسان كائن غريب ، فعندما نلقي نظرة من بعيد على الحياة الغابرة

المنذرة التي كان يحياها (آباؤنا) فاننا نتفكر ونقول ، هل ثمة ما هو
أحسن من ذلك ؟ كل واشرب ، واعلم بأنك تسلك سلوكاً غاية في النظام ،
ومثلاً أعلى في الانطباق على العقل ، فان خرجت عن ذلك قتلك السأم .
يريد الناس أن يتدخلوا في شؤون غيرهم ، ولو أدى ذلك الى إهاتهم . «
فأجاب أركادي مفكراً : « يجب علينا أن ننظم الحياة تنظيماً يجعل
كل لحظة من لحظاتها مفعمة بالمعاني والمغازي .

« لمن تقول هذا ؟ ان الناس يحبون ما هو مثقل بالمعاني والمغازي ،
ولو كان ذلك اكذوبة من الأكاذيب . ولكن الحقائق ، تلك الحقائق
التافهة الصغيرة هي المصيبة كل المصيبة . «

« ان الحقائق لا توجد بالنسبة لمن يرفض الاعتراف بها .

« همم . ان ما تقول معنى مقلوب رأساً على عقب . «

« كيف ؟ ماذا تعني بقولك ؟ «

« أعني هذا . اذا تأكدت مثلاً بأن التعليم مفيد ، فهذا معنى عام ،
ولكن اذا صرحت بأنه يؤدي ويؤلم ، أصبح معنى (١) عاماً مقلوباً .
ويخيل اليك أن الأمرين مختلفان ، ولكنهما في الحقيقة شيء واحد
ذو وجهين . «

« ولكن الحقيقة ؟ أين الحقيقة ؟ في أي جانب تكون ؟ «

(١) يقول المتنبي في هذا المعنى :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخوال الجهالة في الشقاوة ينعم

« أين ؟ سأجيبك كما يجيب الصدى ، أين ؟ »

« انك ذو مزاج كئيب هذا اليوم . »

« حقيقة ؟ لا بد أن الشمس قد ألانت مخي ، وكان عليّ أن لا آكل

كثيراً من العليق الأحمر . »

فقال أركادي : « اذن فلنجمع قليلاً . »

« فليكن ، ولكن أرجو منك ألا تراقبني ، فان الانسان يكتسب

سحنة حيوانية أثناء نومه . »

« إذن فأنت تكثر بأراء الناس فيك ؟ »

« لا أستطيع أن أوضح ذلك لك . ان الرجل الجدير بهذا الاسم

حقيقة ، ينبغي عليه ألا يكثر بذلك ويشغل نفسه به ، والرجل الجدير

بهذا الاسم ، هو ذلك الرجل الذي لا يحكم الناس عليه ، وهو ذلك الذي

يجب أن يطاع أو يكره . »

« هذا مضحك ، إنني لا أكره أحداً . »

« أما أنا فأكره كثيراً من الناس . انك ذو روح لطيفة وديعة ،

روح مهذبة تهذيباً راقياً ، فكيف تستطيع أن تذكره ؟ انك حيي

خجول ، ولا ثقة لك بنفسك ... »

« وأنت ؟ ألك ثقة بنفسك ؟ ألك آراء محترمة عن نفسك ؟ »

ظل بزاروف ساكناً لحظة ثم أجاب ببطء ، وهو يؤكد على كل مقطع

من كلامه : « عندما أصادف نداءً ، فحينئذ سوف أغير من رأيي بنفسي ،

ولنرجع للكره ، فعلى سبيل المثال ، لقد قلت أنت منذ مدة وجيزة ،



ونحن نمر بكوخ شيخ القرية فيليب ، الأنيق الجميل ، ان روسيا ان تبلغ
درجة الكمال ، حتى يملك أحقر فلاح روسي مسكناً كهذا ، ويجب أن
يساهم كل واحد منا في تحقيق ذلك ... حسناً لقد شعرت بالكراهة على
الفور ، نحو الفلاح الروسي الحقير ، ونحو فيليب وغيره ، وكل أولئك
الذين سأنزل ما في وسعي من جهود في سبيل اسعادهم ، أولئك الذين
لن ينفعني أحدهم حتى بكلمة شكر ، وعلاوة على ذلك فما حاجتي الى
شكرهم ، فساكون حين يقطن هؤلاء أكوأخاً جميلة ، تحت الثرى
أسمد حشيشة القراص وماذا بعد ذلك ؟ »

« حسبك يا ايفاجني ... ان من يسمعك تتكلم هكذا ، سيكون في
صف أولئك الذين يلوموننا حين يتهموننا بالمروق من المبادئ . »
« انك تتكلم كما يتكلم عمك . ليس ثمة مبادئ . وانك لما تزل
تشك في ذلك . ليس هنالك غير الأحاسيس والأمر كله متعلق بها . »
« كيف ذلك ؟ »

« في غاية البساطة . فأنا مثلاً اذا كنت أحب الكفر والانكار ،
فصدر ذلك الاحساس ، انه يلذني الانكار والجحود ، هكذا يسير
عقلي ، وهذا كل ما في الأمر ، لماذا تستهويني الكيمياء ؟ ومن أين جاء
حبك للتفاح ؟ القضية دائماً قضية احساس ولا شيء ، أعظم من ذلك أبداً .
وقليل هم أولئك الذين يصارحونك بذلك ، وأنا نفسي لم أكن
لأحدثك عن هذا في غير هذه اللحظة . »
« اذن فالأمانة أيضاً قضية احساس ؟ »

« بدون شك . »

فقال أركادي محزوناً كل الحزن : « يا ايفاجني ؟ »

فأجاب بزاروف : « آه آه ، أهذا الأمر لا يسرك ؟ برحى لك ، اذا كنت يا أخى ترثى لكل شيء ، فلا تستن ساقيك . ولكن كفانا خوضاً في فلسفة ما وراء الطبيعة . لقد قال بشكن : (ان الطبيعة تدعونا الى النوم) . »

فاعترض أركادي قائلاً : « ان بشكن لم يقل أبداً شيئاً من هذا القبيل . »

« اذا لم يكن قد قال ذلك ، فقد كان باستطاعته أن يقول ذلك ، وكان يجب عليه أن يقول ، بوصفه شاعراً ، وعلى ذكره لقد كان عسكرياً ؟ »

« لم يكن بشكن عسكرياً . »

« عجيب ، لا تخلو صفحة من صفحاته دون أن يصرخ فيها : (الى المعركة ، الى الامام ، في سبيل شرف روسيا) . »

« أين وجدت هذه الجنونيات ؟ ان هذا افتراء محض . »

« افتراء ؟ يا للعجب العجيب ! أعتقد بأنك تفزعني بهذه الكلمة ؟ . »
« هما كانت الافتراءات التي تعلق بهذا الشخص فانه يستحق أكثر منها عشرين مرة . »

فقال أركادي مقهوراً : « دعنا نحاول أن ننام . »

فأجاب بزاروف : « بكل طيبة خاطر . »

ولكنهما لم يفلحا ، فقد انساب في قلب كل منهما شعور عداوي
تقريباً . وبعد خمس دقائق فتح كل منهما عينيه ، ونظر الى صاحبه
في سكون .

وقال أركادي على حين غرة : « انظر الى هذه الورقة المصوحة التي
انفصلت عن شجرة الاسفندان والتي تسقط على الأرض ، انها تحوم كما
تحوم الفراشة تماماً . أليس ذلك غريباً ؟ ان ما هو محزن كل الحزن ،
وما هو ميت غاية الموت ، شبيه بما هو مرح كل المرح . »

فصرخ بزاروف : « يا عزيزي أركادي نيقولايفتش ، انني لا أسألك
إلا شيئاً واحداً ، تكلم دون أن تتكلف الجمل المصطنعة . »
« انني أتكلم بقدر ما أستطيع ... ولكن هذا استبداد منك .
اذا طرقتني خاطرة فلم لا أقولها ؟ »

« حسن جداً . ولكن لماذا لا أقول أنا ما أفكر به ؟ أرى أن
تكلف الجمل المصطنعة مناف للآداب . »

« اذن فأنت ترى أن الأفضل استعمال الحشونة والفظاظة ؟ »
« مهلاً مهلاً ، أرى أنك قد عقدت العزم على اقتفاء خطى عمك ،
لشد ما يكون هذا المعتوه سعيداً لو استطاع أن يسمعك . »
« كيف أميت بول بتروفيتش ؟ »

« كما يستحق ، معتوهاً . »
فصرخ أركادي : « لقد أصبح الأمر لا يطاق . »
فأجاب بزاروف : « ان الشعور برابطة الاسرة يتكلم فيك . لقد

لاحظت أنه راسخ كل الرسوخ في كل فرد ... ان الانسان مستعد
للتنازل عن كل شيء ، وأن يتجرد من الاعتبارات كافة ، ولكن لاتسأله
أن يعترف ، مثلاً بأن أخاه ، يسرق المناديل ، سارق ، فان ذلك
فوق طاقته ، كيف ؟ أخي ، أخي أنا ؟ كيف لا يكون عبقرياً ؟ »

فأجاب أركادي بجدة : « ان الشعور بالعدالة هو الذي تكلم على
لساني ، وليس الشعور بالرابطة العائلية . ولكن بما أنك لا تفهم ذلك
الشعور ، وبما أن هذا الاحساس ينقصك ، فالأفضل لك أن تسكت . »
« معنى ذلك أن أركادي كيرسانوف متفوق علي كل التفوق بحيث
لا أستطيع أن أفهمه ، انني أنحني وأسكت . »

« حسبك ، يا ايفاجني ، حسبك ذلك ، والا فسينتهي أمرنا الى
الحصام والمشاجرة . »

« نعم نعم يا أركادي ، فلنتشاجر جيداً ، وليضرب بعضنا بعضاً حتى
نخر منهوكين ، فلنتعارك حتى الموت . »
« ولكن قد ينتهي بنا الأمر الى الـ ... »

فأجاب بزاروف : « الملائكة ؟ وماذا بعد ؟ هنا ، على القش ، في
هذا النطاق الضيق الساذج ، بعيداً عن العالم وعن أنظار البشر . ولن
يكون لذلك عواقب . ولكن ليس لديك قوة تقابل بها قوتي ... سوف
أخذ بعنقك ... »

وفتح بزاروف أصابعه الطويلة القاسية ... والتفت أركادي ، كمن
يريد أن يمزح ، للدفاع عن نفسه ... ولكن وجه صديقه بدا له فظيلاً

خيفاً ، وكان في ملامحه تهديد صريح ، في الابتسامة التي زمت شفثيه ،
وفي عينيه اللتين التهبتا فجأة ، الى حد أخافه على الرغم منه ...

ورن صوت فاسيلي ايفانوفيتش في هذه اللحظة الحرجة قائلاً :
« آه لقد وجدتك أخيراً » وظهر الجراح العسكري العجوز في سترته
البيئية ، وفي قبعته القشبية المصنوعة في البيت أيضاً .

« لقد قتشت عنكما ، نقت عنكما في كل مكان ... ولكنكما قد اخترتما
مكاناً رائعاً ، إنه لعمل غاية في الحلاوة أن يبقى الانسان متمدداً هكذا
على الأرض ينظر الى السماء ... أتدركان أن هذا مترع بمغزى عميق ؟ »
فقال بزاروف بفضاضة : « انني لا أنظر الى السماء إلا حين أريد
أن أعطس . » ثم اقترب من أركادي وأضاف بصوت خفيض : « يا لسوء
المصادفة بمداهمته ايانا في هذا الوقت ! »

فهمس أركادي وهو يعصر خلسة يد صديقه : « هيا ، في هذا كفاية .
ان الصداقة مهما كانت وطيدة ، لا تستطيع أن تقاوم محناً كهذه
مدة أطول . »

فأردف فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يهز رأسه ، مسنداً أصابعه
المشبكة ، على عكازته التي صنعها بنفسه بمحذق وبراعة ، وكانت على شكل
حلزوني ، ورأسها بشكل التفاحة ، مركب على الطراز التركي : « انني
أتفحصكما يا صديقي اليافعين . انني أجلو ناظري بمرآة ، وانه منظر
لا أمله . يا للقوة التي فيكما ، ويا للفتوة المزهرة ، ويا للمواهب .
ويا للقرايح ... حقاً انكما ... حقاً انكما كاستور وبولكس . »

فصرخ بزاروف : « حسناً ، هو ذا ينساب في الأساطير ، آه لقد عرفنا الآن أنه كان بارعاً في اللغة اللاتينية أيام شبابه . ألم تحصل على وسام من الفضة مكافأة لك على حسن أداء واجباتك المدرسية ؟ »

فردد فاسيلي : « أجل أجل »

« حسبك يا والدي كفاك حزيناً . »

فتمتم العجوز : « المرة الواحدة ليست عادة . على كل حال ، انني أيتها السيدان ، لم آت لأحييكم فقط ، فقبل كل شيء ، أريد أن أقول لكم بأننا سنتناول الطعام ، ومن ثم لاجل أن أخبرك ، يا أيفاجني ... انك ولد طيب ذكي ، وأنت تعرف قلوب الامهات ، انك ستفهم ... ان أمك قد نذرت أن تقيم لك قداساً حين عودتك ، ولا تتصور بأنني قد جئت لأحملك على حضوره ، لقد انتهى القداس ، ولكن الأب الكسيس ... »
« الكاهن ؟ »

« نعم القسيس . سوف يبقى معنا لتناول الطعام ... ولم أكن أنتظر ذلك ... لو أن الأمر بيدي لكان خلاف ذلك ... لقد أساء فهمي ... ومن الطبيعي أن أرينا فلا سيفينا ... بالاختصار ، انه رجل طيب ، وهو من أصحاب الذوق . وسوف ترى . »

فسأل بزاروف : « المفروض أنه لن يأكل وجبتي . »

فانفجر فاسيلي أيفانوفيتش ضاحكاً وقال : « كلا ، ولا شك . »

هذا كل ما أطلبه . اني مستعد لتناول الطعام من أي كان . »

فنصب فاسيلي أيفانوفيتش قبعته وأجاب : « لقد كنت أعرف جيداً

أنك فوق الطقوس ، وأنا الشيخ العجوز الذي دخل في الثالثة والستين من عمره ، لا أحبها (ولم يجراً على الاقرار بأنه هو أيضاً كان يشتهي هذا القداس ، لأنه لم يكن أقل تديناً من زوجته) ان للأب الكسيس رغبة عظيمة بالتعرف عليك . سوف يسرك ويرضيك ، وأنا بذلك زعيم . انه مستعد في كل وقت للعب الورق ، بل انه ... والكلام بيننا ، أليس كذلك ؟ انه يدخن الغليون . »

« حسناً ، بعد الغداء ، سنقوم بلعبة ورق أكون أنا رابحها . »

« عجيب ، عجيب هذه مسألة فيها نظر . »

وقال بزاروف بلهجة ذات معنى : « أهى صدفة كالسابق أن ... » فتوردت وجنتا فاسيلي ايفانوفيتش بحمرة خفيفة : « ألا تخجل يا ايفاجني . ان ما فات مات . نعم اني أعترف أمام هذا السيد ، بأني كنت ذا نزوات كهذه ، يوم كنت شاباً ، ولكنني دفعت ثمن ذلك غالياً . أف ما أشد الحر . دعاني أجلس بجانبكما . هل أثقل عليكم بذلك ؟ » فأجاب أركادي : « كلا ، كلا ، أبدأ . »

جلس الشيخ على القش وهو يتنهد ويقول : « ان هذا يذكرني أيها السيدان بحياتي في الجندية ، وباستراحات الجنود في العراء ، لقد كان يحدث ذلك كما هو الحال الآن ، قرب حزمة من القش ، ان وجدت (وتنهد) آه لشد ما عانيت في حياتي من أمور . مهلاً ، اسمح لي أن أقص عليكم فصلاً غريباً عن الطاعون في بسرايا . »

فقال بزاروف : « الحادثة التي قلدتك صليب سان فلاديمير ؟ هذا

معروف معروف ... وبهذه المناسبة ، لماذا لم تحمل الوسام ؟
فهمهم فاسيلي ايفانوفيتش : « لقد قلت لك بأنني لا أهتم بالشكليات »
(ولكنه كان قد فتق الشريط الأحمر من عروة سترته في الليلة المنصرمة) ثم شرع يروي قصة الطاعون .

وهمس على حين غرة في اذن أركادي ، مشيراً الى بزاروف : « أنظر ،
انه نائم . »

ثم صرخ : « انهض يا ايفاجني ، وهيا الى الغداء . »

كان الأب الكسيس رجلاً ضخماً ، حسن السميت ، ذا شعر غزير
كثيف ، مسرح بعناية ، وحزام مطرز يشد ثوبه الكهنوتي الحريري ،
الليلاكي اللون ، وكل ذلك يعرب عن اناقة ودقة ومهارة ، وسرعان
ما مديده الى الشابين الصديقين : فقد كان يعلم أنهما لا يكثران بركاته ..
وظل طوال الوقت محتفظاً ببشاشته وانبساط أساريه ، ولم يخرج عن
وقاره ، ولا حاول أن يهاجم أو يلوم ، وكان يتندر ، ببراعة ، باللاتينية
التي تعلمها في مدارس القسس ، ويدافع عن اسقفه ، وقد شرب كأسين
من الخمر ، ورفض الثالثة ، وقبل السيكار الذي قدمه له أركادي ، ولكنه
صرح بانه سيدخله في بيته . وكانت له عادة بغیضة الى حد ما ، تلك
أنه يذني من وجهه ، كل لحظة ، يداً حذرة بطيئة ، لاقتناص الذباب
الذي يحط على وجهه ، وقد يفلح في سحقه . وأخذ محله الى مائدة القمار
دون أن يبالغ في اظهار السرور ، وانتهى بأن ربح من بزاروف روبلين
وخمسين كوبكاً ، عملة ورقية ، وما كان القوم يعرفون شيئاً عن العملة

الفضية في بيت ارينا فلا سيفينا ... وكانت هذه قرب ولدها دائماً ، ولم
تلعب الورق ، بل جلست واطعة يدها تحت خدها كعادتها ، وكانت
لا تهض إلا لاصدار أمر يجلب أطعمة جديدة ، وكانت تخشى أن تبدي
حنانها لبراروف ، وكان هو من جانبها لا يشجعها على ذلك . وكان
فاسيلي ايفانوفيتش قد حذرهما كذلك وأوصاهما بعدم ازعاج ايفاجني ،
فقال لها ملحاً : « ان الشباب لا يحبون ذلك . » (ومن فضول القول
أن نذكر بأنها بذلت كل ما في طاقتها لاجادة تحضير الطعام ، فقد خف
تيموفيتش بنفسه فجراً الى المدينة لشراء لحم البقر ، وقد ذهب الوكيل
للمبحث عن السمك النهري بأنواعه ، وعن السرطان البحري . وقد
أعطت الى فلاحه اثنين وأربعين كوبكاً لشراء السمكة) وظلت عينا
ارينا تمجدقان بامعان في وجه ابنها ، لا تعبران عن الشفقة والاخلاص
فحسب ، بل أن الناظر ليقرأ فيهما أيضاً حزناً مزوجاً بالفضول والخوف ،
وكذلك بالتأنيب المتواضع الخاشع . وعلى كل حال فان براروف كان
قليل الاهتمام بما تعبر عنه عينا أمه ، وقليلاً ما كان يحادثها ، واذا فعل
أوجز . ومع ذلك فقد سألهما أن تعطيه يدها : « لتجلب له حظاً
حسناً . »

وسأله بعد لحظات : « حسناً ، هل حمات يدي لك الحظ ؟ »
فأجابها ضاحكاً دون اكتراث : « الامر يسير من سيء الى أسوأ . »
فقال الأب الكسيس باهجة تشف عن الحنو والشفقة ، وهو يداعب
لحيته الجميلة : « انك تجاوزف كثيراً . »

فاجاب فاسيلي ايفانوفيتش وهو يرمي ورقة آس: « مناورة نابليونية
يا أبي ، نعم مناورة نابليونية . »

فقال الاب الكسيس وهو يقطع الآس بورقة رابحة : « ولكن
لا تنس أن المجازفة أدت به الى سنت هيلانة . »
فسألت أرينا فلا سيفنا : « اينوشكا ، هل تريد كأساً من ماء
غضب الثعلب ؟ »

فاكتفى بزاروف برفع كنفه .

وقال بزاروف لأركادي في اليوم التالي : « نعم ، اني أسافر غداة
الغد . انني سئم ، بودي أن أشتغل ، ولكن يستحيل عليّ هنا أن أعمل
شيئاً . انني أريد العودة الى بيتك ، لقد تركت هناك كافة لوازمي . هناك
يستطيع الانسان أن يخلو بنفسه ، على الأقل ، ومع أن أبي يكرر عليّ
قوله : « ان مكتبي تحت تصرفك ، ولن يجي ، أحد لازعاجك ، فهو
نفسه لا يتركني أبداً ، ذلك لأنني لا أستطيع أن أوصد بابي دونه .
وكذلك الامر بالنسبة الى أمي ، انني أسمعها تنهد في الغرفة المجاورة ،
وحينما أذهب اليها لا أدري ماذا أقول لها . »

فأجاب أركادي : « انك ستحزنها كثيراً ، وكذلك ستحزن أباك . »
« ولكنني سأعود . »

« متى . ؟ »

« قبل العودة الى سنت بترسبورج . »

« إنني أرثي لحال امك على الأخص . »

« لماذا ؟ هل وجدت طريقاً الى قلبك باكتارها من الفواكه ؟ »
فغض أركادي بصره وقال : « انك لاتعرف أمك جيداً ، يا ايفاجني .
انها ليست عظيمة الطيبة فحسب ، بل انها ذكية جداً ايضاً ، أوكد لك
ذلك . لقد تحدثنا أكثر من نصف ساعة في الصباح ، وكان حديثها مفعماً
بالذوق السليم والذلاقة . »

« أتعشم أنها حدثتك عني طول الوقت ؟ »

« ليس هذا فقط . »

« أياً كان الأمر ، فربما كانت الحق معك . انك في وضع تصالح
أن تكون حكماً خيراً مني ، فعندما تأخذ امرأة بأطراف الحديث
مدة نصف ساعة يكون ذلك دلالة طيبة ، ولكني سأسافر بالرغم
من ذلك . »

« ليس من السهولة اخبارهم بذلك . انهم الآن يفكرون فيما سيعمله
منذ اليوم حتى نهاية الاسبوعين القادمين . »

« كلا ليس ذلك سهلاً ، لا أدري أي شيطان ساقني اليوم الى رؤية
والدي وهو يجلد أحد القلاحين ، وكان الحق معه . نعم ، نعم لا تؤاخذ
على هذه الفعلة ، لقد أحسن في ذلك كل الاحسان ، لأن ذلك الفلاح
سارق وسكير لا يرجى إصلاحه ، وما كان والدي يدرك أنني أعلم حقيقة
الأمر . لقد ظل مضطرباً ، سأسبب له كثيراً من الازحان ، يالسوء
الطالع ، ولكن ذلك لن يدوم . »

ومع ذلك فقد انقضى النهار بأكمله دون أن يجد الشجاعة اللازمة

لإعلام والده بما اعتزمه . وفي ختام اليوم ، لحظة حياه تحية المساء ، قال له ، وهو يتظاهر بالتشاوب :

« يا أبي كدت أنسى ... أحضر الحيل غداً في بيت فيدوت لأجل

الرحلة . »

فظل فاسيلي ايفانوفيتش مبهوتاً ، فاعرباً فاه ، ثم سأل أخيراً :

« أريد السيد كيرسانوف أن يرحل عنا ؟ »

« نعم وسأرحل معه . »

فذهل الشيخ الطيب وتساءل : « كيف ؟ أتسافر أنت ؟ »

« نعم ... ينبغي أن أرحل . تكرم بارسال الحيل الى فيدوت . »

فهمهم الشيخ : « مفهوم ... لأجل الرحلة ... مفهوم ... فقط ...

فقط ... رباه ، هل هذا ممكن ؟ »

« يجب أن أذهب معه ولن يطول غيابي . بل سوف أعود . »

« آه ولكن ليس لمدة طويلة ... طيب » وتناول منديله وتمخط ،

وقد حناه الحزن حتى كاد أن يبلغ الأرض : « حسناً ... قضي الأمر .

ظننتك ستبقى هنا مدة أطول ... ثلاثة أيام بعد ثلاث سنوات ؟ هذا

قليل قليل جداً يا ايفاجني . »

« قلت لك سأذهب معه لقضاء فترة من الزمن وسأعود بعد حين

قريب ... هذا ضروري لي . »

« آه لضرورة ... هذا أكيد ، ألوجب قبل كل شيء ، ... اذن هل

أرسل الحيل ؟ مفهوم . لقد كنا بعيدين عن انتظار هذا الأمر ، لقد

أوصت والدتك توأ إحدى جاراتها بجلب الأزهار لتزيين غرفتك (ولم
ينوه فاسيلي ايغانوفيتش بأنه كان يجتمع كل يوم بتيموفيتش ، عند الفجر ،
عاري القدمين ، في مداسه الخلق ، يعد الروبل بعد الروبل ، بيده
المرتجفة ، وهو يسرد له ما يجب أن يشتريه ، مؤكداً بصورة خاصة ،
على وجوب اختيار الحبوب الجيدة الحمراء ، والماء كل الطيبة ، وكل
ما يحبه الشبان .) انك نعرف مبدئي ، الحرية قبل كل شيء ... دون
إزعاج أحد ... ولا ... » وندت من الشيخ حركة تدل على الآسى
والاستسلام ، وخرج دون أن يلتفت الى ابنه ، ووجد زوجته قد
نامت ، فشرع يصلي بصوت منخفض لكيلا يعكر صفو نومها . ومع
ذلك فقد سمعته ، فسألته : « أهذا أنت يا فاسيلي ايغانوفيتش ؟ »
« نعم يا عزيزتي . »

« هل جئت من عند انبوشا ؟ أخشى ألا يكون مرتاحاً في نومه .
لقد قلت لافيسوشكا أن تحمل اليه منامك العسكري ، والوسائد الجديدة .
لقد كان بودي أن نعطيه اللحاف المحشو بالريش ، ولكنني تذكرت أنه
لا يجب أن ينام نومة ناعمة . »

فقال الأب وهو يتمم صلاته : « اطمأني يا عزيزتي ، إنه في حالة
جيدة ... إرحمنا يا إلهي ، نحن المساكين الخاطئين . »
لقد كان يخاف على عجوزه المسكينة . ولذلك فقد أجل إعلان هذا
الخبر المفجع لها .

وفي الغداة سافر بزاروف وأركادي ، وبدا كل شيء في الدار حزينا

كثيلاً عند الصباح . فقد سقطت الآنية من يد انفيسوشكا ، وكان فيدكا
نائماً ، وقد انتهى به الأمر أن ترك لبس الحذاء ، وبدأ فاسيلي ايفانوفيتش
منهمكاً في العمل ، لقد كان يحاول عبثاً إخفاء حزنه ، كان يتكلم بصوت
عال ، ويصفق بحذائه ، ولكن وجهه كان باسراً ، وكان يتحاشى النظر
الى ولده . وكانت ارينا فلاسيفنا تبكي بهدوء ، ولو لم يعظها زوجها
طوال ساعتين متواليتين ، لاختل عقلها ، وبعد أن وعد بزاروف عدة
مرات بأنه سيعود قبل انقضاء شهر ، انتزع نفسه من بين الأذرع التي
كانت تحتجزه ، وركب المركبة . وعندما تحركت الحيل ورنت الأجراس
ودارت العجلات ، وابتعد الركب عن مدى النظر ، وهبط وراءه ستار
من الغبار ، رجع تيموفيتش مترنحاً الى غرفته الصغيرة وقد قصم الحزن
ظهره . وعندما وجد العجوزان نفسيهما داخل البيت الذي بدا في
أعينهما غاية في الضيق والصغر ، جلس فاسيلي ايفانوفيتش على كرسي ،
وترك رأسه يتدلى فوق صدره ، وكان قد أظهر جلدأ وصبراً عندما لوح
بمنديله أمام المدرج .

وشرع يهمهم : « لقد تركنا ، هجرنا ، لقد تملك الضجر بين
ظهرائنا . انني الآن وحيد ، وحيد كل الوحدة . »
وكان يكرر هذا عدة مرات ، وذراعه ممدودة أمامه وسبابته مرفوعة .
فاقتربت منه ارينا وأسندت رأسها الأبيض الى رأسه المشتعل شياً ،
وقالت له : « ماذا تنتظر يا فاسيا ، الولد فلذة الوالد الذاهبة ، انه
كالعصفور ، يطير جيئة وذهاباً كما يشتهي . أما نحن ، فانا ، فطرتان

داخل شجرة ، تكون أحدها قرب الأخرى دوماً . أنا الوحيدة التي
ستكون بقربك الى أبد الآبدين ، دون تغيير ، وكذلك أنت
بالنسبة لي . »

فأزاح فاسيلي ايفانوفيتش يديها اللتين تغطيان وجهها ، وعانق
شريكة حياته بلهفة من لم يفعل ذلك قبلاً ، حتى في شبابه ، لقد عرفت
كيف تأسو جراحه .

الفصل الثاني والعشرون

ظل صديقانا صامتين ، ولم يتبادلا إلا بعض كلمات لا معنى لها ، حتى اللحظة التي وصلا فيها الى فيدوت ، ولم يكن بزاروف راضياً عن نفسه كل الرضا ، وكان أركادي غير راض عنه أيضاً ، وكان علاوة على ذلك حزيناً بدون سبب ، ذلك الحزن الذي يعرفه الشبان اليافعون وحدهم . وبعد أن أبدل الحوذني الخيول ، صعد ثانية الى مقعده وسأل : « أئمنة أم يسرة ؟ »

فاختلج أركادي ، فالطريق الايمن يؤدي الى المدينة ، ومن هناك الى بيت أيسه ، والطريق الايسر يقود الى مدام اودينتسوف ، فألقى نظرة خاطفة على بزاروف وقال له : « ألى اليسار يا ايفاجني ؟ »

فالتفت الثاني ودمدم : « يا للحماقة »

فأجابه أركادي : « أعلم أنها حماقة ... ولكن ما أهمية ذلك ؟ ليست

هذه هي الاولى . »

فقال بزاروف أخيراً : « كما تشتهي . »

فصاح أركادي : « الى اليسار . » وتحركت المركبة في اتجاه نيكولوسكوي .



ولكن بعد أن صمم الصديقان على ارتكاب هذه الحماقة حبس كل منهما نفسه في صمت لا يأتيه النطق من بين يديه ولا من خلفه فكأنهما في خصام مخدّم . ولم يدركا أنهما قد ركبا متن الطيش والتهور وراء أهوائهما إلا عندما استقبلهما الخادم . لم يكن أحد يتوقع مجيئهما ، وهذا واضح ، فظلا فترة طويلة في التوي ، في حالة يرثى لها .

ثم ظهرت مدام اودينتسوف أخيراً ، واستقبلتهما بما عهد فيها من لطف ، ولكنها بدت مشدوّهة من عودتهما السريعة ، التي لم تكن لتسرّها قط ، هذا ما كان يستخلص من حديثها وحركاتها .

وأسرعا فأعلنّا اليها بأنهما لم يأتيا إلا عابري سبيل . وأنهما سيرحلان الى المدينة بعد أربع ساعات ، فاكثفت باظهار التعجب ورجت من أركادي أن يذكرها عند أيّيه نيقولاى بتروفيتش ، وأرسلت من يخبر عمّتها . فنزلت الأميرة ، وهي نعسى جداً ، فأضفى ذلك على وجهها المغضن ما زاده خبشاً . أما كاتيا فقد لزمت غرفتها لوعكة في صحتها ، فأدرك أركادي في الحال بأنه يشتهي أن يراها بقدر ما يشتهي أن يرى انا سيرجيفنا . ومضت أربع ساعات في أحاديث لا معنى لها ، في الكلام عن الآخرين . كانت مدام اودينتسوف تتكلم وتصغي دون أن تبتسم ، ولم تستيقظ بشاشتها القديمة إلا لحظة السفر .

قالت لهما : « انني ضجرة متبرمة ، ولكن لاتهما بذلك ، وعودا لرؤيتي بعد زمن قصير . هل تفهما في أتما الاثنين ؟ »

فلم يجيبا بغير الانحناء ، وصعدا الى المركبة ، وفي هذه المرة لم يتوقفا

في أي مكان ، بل واصلا سفرها الى مارينو ، حيث وصلا في مساء اليوم التالي ، دون حادث ، وفي خلال الطريق كله لم يلفظ أحدهما اسم مدام اودينتسوف . بل لم يفتح بزاروف فاه على وجه التقريب ، بل كان يسرح نظره بعناد واصرار في نقطة بعيدة في الأفق .

واحتفل بهما في مارينو . فقد كان نيقولا يبتروفيتش قد شرع يقلق لغياب ابنه الطويل ، وحينما هرعت مينيچكا راكضة لتعلن قدوم « السيدين الشابين » وعيناها تلتمعان فرحاً ، صرخ جبوراً ، وحرك ساقيه وتمايل طرباً فوق الأريكة . وحتى بول بترفيتش نفسه قد شعر بانفعال عذب ، وابتسم بتلطف ، وتنازل فhez ، بقوة وعنف ، يدي القادمين .

وأكثروا الزثرة والكلام ، وكان أركادي أكثرهم كلاماً ، خصوصاً عند العشاء ، الذي امتد الى ما بعد منتصف الليل . وقدم نيقولا يترفيتش بعض القناني من خمرة بورتر المجلوبة من موسكو ، وانغمس هو نفسه أيضاً في الفرح والمرح ، حتى احمر خداه ، وكان يطلق ضحكات صبيانية نوعاً ما ، لا تخلو من حكمة ، وسرى الابتهاج حتى شمل الخدم ، فكانت دنيا شاتروخ وتغدو كالجنونة ، وهي تصفق الأبواب ، وما برح يتر ، حتى الساعة الثانية صباحاً ، يعزف على القيثارة ، محاولاً اخراج لحن فالس قوزاقي ، فرنت الاوتار مرسله في الفضاء الساكن لحناً شاكياً لطيفاً ، ولسكنها كانت محاولة من خادم مدرب ليس غير ، فلم تتجاوز حداً معيناً . ان الطبيعة قد رفضت أن تمنحه الموهبة الموسيقية ، كما رفضت منحها

لكثيرين غيره في العالم .

ومع ذلك فلم يكن كل شيء على ما يرام في مارينو . فقد كان في
مزرعة نيقولايتش بتروفيتش المسكين اضطراب وارتباك . ففي كل يوم
مصاعب جديدة . فالعمال المهاجرون قد أصبحوا لا يطاقون . فبعضهم
يطلب بالزيادة أو بالحساب ، وبعضهم يهرب بعد استلام السلفة ، وكانت
الخيول تتساقط مريضة ، وبعضها يغدو غير صالح للاستعمال لحظة
استخدامه ، والأشغال لا تنفذ كما يجب ، وظهر أن النورج الذي أرسل له
من موسكو ثقيل جداً الى درجة تعذرت الاستفادة منه . وتلف النورج
الآخر بمجرد البدء في استعماله ، وقد احترق نصف الاصطبل لأن خادمة
عجوزاً عمياء ، ذهبت اليه في يوم عاصف أهوج لترقى بقرتها بجذازة
ملتهبة (وقد كانت ترى ، في الحقيقة ، أن السيد هو الذي جر الكوارث ،
بشروعه في صنع الجبن والمنتجات الحليبية الأخرى على طريقته) وانتاب
رئيس الخدم الكسل فجأة ، فشرع في البدانة والاكتناز ، شأن أي
روسي يأكل دون أن يقوم بعمل . أما نيقولايتش بتروفيتش فكان يرمي
خزيراً عابراً بحجر ، أو يهدد صبيلاً نصف عار ، ليدل على نشاطه وغيرته ،
وفيما عدا ذلك كان يقضي الوقت في النوم . وما كان الفلاحون يؤدون
الديون في مواعيدها ، وكانوا يسرقون الحشيش من الغاب ، وفي كل يوم
تقريباً ، كان الحراس يلقون القبض على خيول الفلاحين وهي ترعى في
مروج المزرعة ، فلا يستطيعون طردها إلا بعد معارك . وقد فرض
نيقولايتش بتروفيتش غرامة نقدية على كل ضرر يحدث من جراء ذلك ،

ولكنه كان ، في أغلب الأحيان ، يعيد الحيوانات الى مالكيها بعد أن تقضي بضعة أيام في اسطبلاته . ويتزوج كل ذلك أن الفلاحين غالباً ما كانوا يشرعون في المنازعات والقتال ، فهؤلاء اخوة يطلبون القسمة ، لأن زوجاتهم لا يستطعن العيش تحت سقف واحد ، ثم ينشب القتال على حين غرة ، كأنه حدث بإشارة متفق عليها ، وسرعان ما تقوم القرية على قدم وساق ، فيجتمع الفلاحون أمام مكتب السيد ، ممزقي الوجوه ، يترنحون سكرأ ، وصراخهم قد بلغ غنان السماء ، يطلبون العدالة والقصاص ، وفي هذه الجلبة والصخب والضجيج ، تختلط شكاوى النساء الحادة ، بشتائم الرجال ولعناتهم . فكان ينبغي لحسم النزاع الصراخ الى أن يبح الصوت ، مع العلم مقدماً ، بأنه يستحيل الوصول الى حل عادل منصف تماماً . وكان هنالك نقص في الأيدي الحاصدة ، وتعهد مالك صغير مجاور ، يوحى وجهه بالثقة ، بتجهيز الشغيلة ، على أن يتقاضى روبلين عن كل كيلة روسية ، ولكنه نكث عهده دون حياء أو خجل ، وطلبت الفلاحات اللواتي أرسلهن ثمناً فاحشاً . ولطول بقاء الحنطة في سنا بلها بدأت تنفرط حبوبها ، فلم يبق إلا الهشيم . وعندها يطالب ، وكلاء العملاء ، برد الثمن المدفوع قسم منه مقدماً ، مع الفوائد المستحقة .

وقد صرح نيقولاى عدة مرات جازعاً : « لم تعد بي طاقة ، بل لن أتنازع مع هؤلاء الناس . ان مبادئى تمنعني من الاستعانة بالشرطة . ومع ذلك فلا شيء يمكن عمله بدون الخوف من العقاب . »

فأجابه بول بتروفيتش وهو يترنم مقطباً حاجبيه فاتلاً شارييه :

« هدى، روعك ، هدى، روعك . »

وانتحي بزاروف ناحية ، بعيداً عن هذه « التماسات » وفضلاً عن ذلك فبوصفه ضيفاً في البيت ، لم يكن له أن يدس أنفه في أمور لا تخصه . وفي غداة عودته الى مارينو ، انهمك في ضفادعه ونقايساته وتفاعلاته الكيميائية التي استغرقته بكامله . أما أركادي ، فكان على النقيض شاعراً بواجبه ، فان لم يساعد أباه فعلاً ، فلا أقل من أن يظهر نفسه مستعداً لمساعدته ، وكان يصغي اليه في صبر ، وجازف مرة بأن قدم له نصيحة ، لا على أمل اتباعها ، بل لأجل أن يظهر نياته الطيبة . ولم يستنكف من العمل في الامور المنزلية . وكان يعلم أيضاً ، دون أن يسره ذلك ، بأنه سيقف نفسه يوماً على الامور الزراعية ، أما في الوقت الحاضر فتعمر رأسه أفكار أخرى . كان يفكر دائماً في نيكولسكوي ، وما اذا كان سينال إعجاب سيدتها ، وكان في الأيام الخوالي ، يرفع كتفيه سخرية ، لو أن أحداً قال له بأنه سيضجر يوماً ، وهو مع بزاروف تحت سقف واحد ، تحت سقف أبيه . ومع ذلك فقد ملك عليه السأم أقطار نفسه ، وأصبح منتهى أمله أن يرحل . وداوى العلة بأن صار يقوم بنزهات وتجولات طويلة ، حتى يسقط من التعب ، ولكن هذا لم يعد عليه يجدي . وتحدث ذات يوم مع أبيه ، فعلم بأنه يملك عدة رسائل في غاية الاهمية ، كانت ام مدام اودينتسوف قد كتبتها في الأيام الماضية الى زوجته فلم يكف عنه حتى سلم اليه هذه الرسائل ، بعد أن نقب عنها في أكثر من عشرين درجاً وحقيبة . وبعد أن استولى على هذه الأوراق ، التي

الفصل الثالث والعشرون

انقرذ بزاروف بنفسه نهائياً بعد أن ودع أركادي ، بأن صحبه الى مركبته ، وأبدى له تأسفه الساخر ، وأفهمه بجلاء بأنه قد أدرك ما يعني نفسه به ، والغرض الحقيقي من رحلته . وكان بزاروف فريسة انهماك في الشغل والعمل حقيقة فلم يتجادل مع بول بتروفيتش ، خصوصاً وأن هذا الأخير كان يتظاهر بالارستقراطية ، أكثر من أي وقت مضى ، فلا يكاد يعبر عن آرائه إلا بمقطع واحد . وخاض مرة واحدة فقط في مناقشة مع انهليستي ، في موضوع حقوق الطبقة العلية البلطيقية ^(١) . وكان الحديث يجري على ما يرام ، ولكنه انقطع فجأة ، حين قال بول بلمهجة أدب باردة :

(١) كان النبلاء البلطيقيون أحفاد الغزاة الألمان يقيمون في مقاطعات البلطيق منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولم يكونوا ليشكلوا أكثر من عشرين بالمائة من مجموع السكان ، ومع ذلك ، فقد كانوا يتمتعون بالامتيازات الخاصة ، التي منحتها لهم الحكومة القيصرية ، وكانوا يحتلون مكانة فائقة في الحياة الاقتصادية ، كما كانت لهم اليد الطولى في ادارة القطر .

« على كل حال نحن لا نستطيع أن نفاهم . وليس لي ، على الأقل ،
شرف تفهيمك . »

فصرخ بزاروف : « أهكذا ؟ ان الانسان يستطيع أن يفهم كل شيء ،
يفهم ارتعاشات الأثير ، وما يحدث في الشمس . ولكنه لا يستطيع أبداً
أن يفهم كيف يتممخط غيره بطريقة غير طريقته . »

فقال بول بتروفيتش وهو يبتعد : « أتعد هذه ظرافة ؟ »

ومع ذلك فقد كان يسأل بزاروف أحياناً ، أن يسمح له بمشاهدة
تجاربه ، بل أنه أذني مرة وجهه الذي عطره بأخضر الروائح ، وغسله
بأحسن الصابون ، من المجر ، لمشاهد نقاعية شفاقة تمتص حبيبة خضراء
مسحوقة ، بواسطة كاشتين سريعتين في عنقها .. وكان نيقولايتروفيتش
يقوم بزيارة بزاروف أكثر من أخيه ، وكان بوده أن يأتيه كل يوم
« ليأخذ دروسه » كما كان يقول ، لولا أن أشغاله تمنعه . ولم يكن ليثقل
على الشاب بشيء ، كان يجلس في زاوية من زوايا الغرفة ، ويتابع تجاربه
باهتمام وانتباه ، ولا يسمح لنفسه إلا بسؤال حصيف بين حين وآخر .
أما وقت الغداء والعشاء ، فكان يجتهد في إدارة الحديث حول الفيزياء
والجيولوجيا والكيمياء ، وكل المواضيع الأخرى ، حتى قضايا الاقتصاد
المنزلي ، دون أن يتكلم ، بطبيعة الحال ، في السياسة ، لأنها ان لم تخرج
الى المنازعات ، فهي تنتهي بالشحناء ، على الأقل . وكان نيقولايتروفيتش
على علم بكره أخيه لبزاروف . وقد وقعت حادثة أقرته على رأيه . فقد
انتشرت الكوليرا في الأنحاء ، وأودت بحياة اثنين من سكان مارينو .

واصيب بول بتروفيتش في احدى الليالي بنوبة خطيرة ، فأخذ يتألم حتى
الصباح ، ولكنه رفض الاستعانة بـزاروف . وفي الغداة ، حين سأله هذا
عن السبب في عدم استدعائه ، أجابه ، وهو ما يزال شاجباً ، وكان قد
قد سرح شعره وحلق وجهه على أحسن ما يرام : « ألم تصرح أنت
نفسك بأنك لا تؤمن بالطب ؟ » وهكذا انقضت الأيام ، وـزاروف
عابس يواظب على عمله في نشاط وحرارة ، ومع ذلك فقد كان في المنزل
مخلوق يحب بزاروف أن يحادثه ، دون أن يتعمق معه ويتبسط ، ذلك
هو ثينجكا . كان يصادفها في الصباح عادة ، في ساعة مبكرة ، في الحديقة
أو في باحة الدار ، وكان لا يدخل مطلقاً غرفتها ، ولم تقترب هي من
بابه إلا مرة واحدة ، لتسأله اذا كان غير ضار أن تسبح ميتيا . وكانت
بعيدة كل البعد عن الخوف منه ، بل كانت تثق به ثقة تامة ، وكانت ترتاح
لوجوده غاية الارتياح ، وتفرح بوجوده أكثر مما تفرح بوجود
نيقولايتروفيتش نفسه . وكان من الصعب عليها أن تبين السبب .
كانت تشعر بصورة غريزية بأنه ليس ذلك المثير النبيل ، وليس فيه من
التعالي ما يجذب ويخيف معاً ، وكان في نظرها ، طبيباً بارعاً ، كما كان
إنساناً بسيطاً . وكان وجوده لا يمنحها من الاعتناء بولدها . وقد تناولت
يوماً ملعقة دواء ، بعد أن أذهلها صداد غنيف ألم بها . وكانت تتجنبه
أمام نيقولايتروفيتش ، لاعتن مكر وخداع ، بل مراعاة للمواضع .
وكان خوفها من بول بتروفيتش في ازدياد مطرد ، وكان يلوح لها أنه
يترصدها ويراقبها منذ حين ، فقد كان يبرز أمامها فجأة كأنه قد خرج

من الأرض ، في زيه الانكليزي ، وبوجهه الجامد ، ونظراته النفاذة ،
ويداه في جيبه . فتقول لـ دنيشا : « انه يرعش الانسان ، كجردل من
ماء بارد قد صب فوق راسه » فتجيبها هذه متنهدة ، مفكرة في آخر :
(لا قلب له) وكان بزاروف دون علمه ، هو الطاغية القاسي على قلبها .
واذا كان بزاروف قد راق مينجكا ، فانها قد راقته هي أيضاً ،
فكان عندما يتحدثها ، يتألق وجهه ، وتنبسط أساريره ، وترق ملامحه ،
وتستحيل عجرفته الى بشاشة ولطف . وكانت مينجكا تزاد جمالاً يوماً
بعد يوم . وللنساء الشابات أوان ، يشرعن فيه بالازدهار والانتعاش
خفاة ، كأنهن أزاهير الصيف . وكان هذا الأوان قد حل بالنسبة لها .
وقد ساعدها على ذلك كل شيء ، حتى حرارة تموز ، وكانت تلوح وهي
في ثوبها الأبيض الخفيف ، أشد بياضاً ، وأكثر خفة . أما بشرتها فلم
تدركها السمرة . لقد لونت الحرارة ، التي كانت لا تحتمي منها ، خديها حتى
أذنيها ، ونثرت على كيانها بأسره هوداً حلواً ، ووضعت في عينيها الجملتين
نعاسة كسلى . فغدا من المستحيل عليها أن تقوم بعمل ، تقريباً ،
فدراعاها ساقطان بجانبها دون حول ، واذا ما مشت وجدت صعوبة كلية
في المشي ، وكانت لا تنقطع عن التنهد والشكوى في عناء مضحك ،
ونصحها نيقولاي بـ تروفيتش بقوله : « عليك أن تستحمي كثيراً ، »
وكان قد هياً لهذه الغاية مكاناً واسعاً ، مغطى بخيمة في إحدى بركه
التي لم تحف بعد تمام الجفاف .

فأجابته : « اوه ، يانيقولاي بـ تروفيتش ، سوف أموت قبل الوصول ،

أو بالأحرى حين أعود . لا يوجد ظل في الحقيقة . »

فأجابها وهو يمسح حاجبيه بيده : « صحيح ، لا يوجد ظل . »
وفي الساعة السابعة ، من صباح ذات يوم ، عندما كان بزاروف
عائداً من جولته ، وجدها في جوسقها حيث أزهار الليلاك ، الذابلة من
عهد طويل ، ولكن أشجارها لم تزل خضراء مورقة . كانت المرأة
الشابة جالسة ، وعلى رأسها شال أبيض ، كعادتها ، وكانت بجانبها كومة
من الورود البيضاء والحمراء ، رطبة لم يجف عنها الندى . فتمنى لها
صباحاً جميلاً .

فقالت : « آه ، يا أيفاجني فاسيليتش ، أهذا أنت ؟ » وبغية أن تراه
جيداً ، رفعت حافة شالها قليلاً ، كاشفة عن ذراعها الى المرفق .
فقال لها بزاروف وهو يجلس بقربها : « ما تصنعين هنا ؟
باقات أزهار ؟ »

« نعم لتزيين المائدة ساعة الغداء . هذا يسر نيقولايتروفيتش . »
« الغداء ما زال بعيداً . يا لها من أزهار ! »
« لقد قطفتها قبل أن تشتد حرارة الجو ، اذ من المستحيل عليّ أن
أخرج بعد ذلك . انني لا أتشم الهواء إلا خلال هذه الساعات القلائل ،
ان هذه الحرارة تقتلني ، ألن أسقط مريضة ؟ »
« يا لها من فكرة . فلا تجس نبضك قليلاً . »

وأمسكها من معصمها ، ووضع ابهامه على شريانها ، ولم يكلف نفسه
حتى عناء حسابان دقات النبض المنتظمة .

وقال لها وهو يفلت يدها : « ستعيشين مائة سنة . »

فصرخت : « آه وقائي الله منها . »

« لماذا ؟ ألا تريدن اذن أن تعيشي طويلاً ؟ »

« مائة سنة ؟ لقد عاشت جدتي خمسة وثمانين عاماً ، ولكن يا لها من

شهيدة ، لقد أصبحت عمياء صماء ، حذباء ، تسعل دائماً ، فما أتعس أن

يعيش الانسان هكذا . هل تساوي الحياة هذا العناء ؟ »

« اذن فالأحسن أن يكون الانسان شاباً ؟ »

« أعتقد ذلك كل الاعتقاد . »

« ولماذا ؟ أخبريني . »

« كيف لماذا ؟ فأنا على سبيل المثال ، حينما أكون شابة ، أستطيع

أن أعمل كل شيء ، بنفسني ، أذهب وأجيء ، وأجلب ما أحتاج اليه ، دون

أن اكلف أحداً بذلك ، فهل ثمة ما هو أجمل من ذلك ؟ »

« أما أنا فسيان عندي أن أكون شاباً أو عجوزاً . »

« سيان عندك ؟ عجيب غريب ، إن ما تقوله مستحيل . »

« احكمي بنفسك يا فيودوسيا نيقولايفنا . ما فائدة شبابي ؟ انني

أعيش وحيداً ، وليس لدي شخص ... »

« اوه ، ان هذا يتوقف عليك . »

« أنت واهمة . ليت هنالك شخصاً يعطف علي ! »

فألقت عليه مئبجاً نظرة رائعة . ولكنها لم تجب . ثم سأله بعد

ذلك : « ما كتابك هذا ؟ »

« هذا كتاب علمي عسير فهمه . »

« أما تزال تدرس ؟ ألا يضجرك هذا ؟ لا بد أنك تعلم كل شيء . »

« يظهر أنني لا أعرف كل شيء . حاولي أن تقرأي قليلاً . »

فسألته مينجكا وهي تتناول المجلد السميك بكلتا يديها : « ولكنني
لن أفهم منه قطرة ، هل هو مكتوب باللغة الروسية ، على أقل تقدير ؟
ما أضخمه ! »

« باللغة الروسية ، باللغة الروسية . »

« الأمر سواء ، فلن أفهم منه شيئاً . »

« اوه ، ليس لأجل أن تفهمي ، ولكنني أردت أن تقرأي . فحينما
تقرأين تتحرك نهاية أنفك حركة غاية في اللطافة والعذوبة » فانفجرت
مينجكا ضاحكة ، وأفلت الكتاب فوق على الأرض ، وكانت قد بدأت
تهجى بصوت هامس كلمة صادقتها ، عن أحد العقاقير التي تستعمل ضد
السل وأمراض الأسنان . وقالت : « كفى ، كفى . »

« أحب أن أسمعك تتكلمين . لكان حديثك خير جدول . »

فأدارت رأسها وقالت وهي تمسح الأزهار بأصابعها : « يالك من
ماكر ! أية لذة تجدها في سماعي ؟ ينبغي لك أن تحاور سيدات على جانب
عظيم من الثقافة . »

« آه يا يودوسيانيقولايفنا ، صدقيني اذا قلت لك أن جميع سيدات

الأرض المثقفات لا يساوين مرفقك . »

فهممت مينجكا وهي تضم ذراعيها إلى جسمها : « أية حكاية تقصها علي ؟ »

فالتقط الكتاب وقال : « هذا كتاب طب ، كيف ساغ لك أن
تطرحيه على الأرض ؟ »

فرددت ثينجكا وهي تلتفت اليه قائلة : « كتاب طب ؟ من يوم أن
أعطيتني القطرات ، وميتيا ينام نوماً يبعث على السرور . هل تذكر
ذلك ؟ لست أدري كيف أشكرك ، انك طبيب طيب جداً . »
فأجابها بزاروف مبتسماً : « الطبيب يتقاضى حقه . انك تعرفين
جيداً أن الأطباء ليسوا نساكاً . »

فرفعت الى بزاروف عينين قد أكسبهما الضوء الباهر المنعكس عن
وجهها كثيراً من الغموق . ولم تدر أكان يتكلم جاداً أم هازلاً وأجابته :
« بكل سرور . يجب أن نتحدث في ذلك الى نيقولاى بتروفيتش ... »
فقاطعها بقوله : « أعتقد انني أريد نقوداً ؟ كلا ، ما أريده
ليس نقوداً . »

« فما هو اذن ؟ »

« احزري . »

« لست عرافة . »

« حسناً . سأقول لك . انني أريد ... أريد احدى هذه الازهار . »
فقهقهت ضاحكة وشرعت تضرب يداً بيد من فرط ما بدا لها بزاروف
مضحكاً مسلياً . وكان ضحكها مشوباً بزهو وخيلاء . فأخذ
يحددونها بنظراته .

وقالت أخيراً : « بكل طيبة خاطر ، بكل طيبة خاطر » ومالت على

المقعد واختارت زهرة وقالت : « أحمرء تريدها أم بيضاء ؟ »
« حمرء غير كبيرة . »

فاعتدلت في جلستها وقالت له : « هاك . » ولكنها سرعان ما سحبت يدها ، وعضت على شفتيها ، وصوبت عينيها شطر مدخل الجوسق ، وأرهفت أذنيها .

فسألها بزاروف : « ما الخبر . ؟ نيقولا يتروفيتش ؟ »
« كلا ... انه في الحقول ... وفضلاً عن ذلك ، فاني لا أخافه ...
ولكن هنالك بول بتروفيتش ... لقد خيل اليّ . »
« كيف ؟ »

« خيل اليّ أنه هناك . ولكن لا ... لا يوجد أحد . هاك . »
وأعطته الزهرة .

« ولكن لماذا تخافين بول بتروفيتش ؟ »
« انه يخيفني . انه لا يقول لي شيئاً ، ولكنه يحدجني بنظرة غريبة ،
وفضلاً عن ذلك ، فأنت أيضاً لا تحبه . لقد أوشكت بادی الامر أن
تشاجر معه ، وأنت تشاحنه كل حين . ولم أفهم موضوع النقاش .
ولكني رأيتك تلعب به هكذا ... » ومثلت يديها كيف عبث به
بزاروف ، كما تصورت . فطافت ابتسامة على شفتيه .

وقال لها : « لو تغلب عليّ ، فهل تخفين الى نجدتي ؟ »
« أنا ؟ أخف لنجدتك ؟ ولكن ليس من السهولة التغلب عليك . »
« أتعقدين ذلك ؟ أما أنا ، فاني أعلم أن هنالك يداً تغلب عليّ متى تشاء . »

« وما هذه اليد ؟ »

« تبدين وكأنك لا تعرفين ، تنسمي الزهرة التي أعطيتها ، إنها

فواحة الشذى . »

فاشرأبت مئنجكا بعنقها ، وأدنت وجهها من الزهرة ... فزلق الشال
عن رأسها الى كتفها ، فكشف عن شعر شزير أسود لامع لا يخلو
من الشعث .

وقال لها : « انتظري » ثم مال فطبع قبلة قوية على شفتي المرأة
الشابة المفتوحتين الى النصف .

فارتعشت ودفعته بكلتا يديها دفعة بلغت حداً كبيراً من الضعف جعلته
يجدد قبلته ويطيلها . «

وجاء صوت سعال جاف من وراء أزهار الياك . وأصبحت مئنجكا
في نهاية المقعد بطرفة عين . وظهر بول بتروفيتش ، وأوماً بتحية خفيفة ،
وقال بصوت حزين : « أهنا أتما ؟ » وابتعد .

فالتقطت مئنجكا جميع أزهارها في الحال ، وخرجت من الجوسق ،
وهي تهمس بصوت ينم عن التأنيب الخالص .
« شر ما صنعت يا ايفاجني فاسيليتش ! »

وتذكر بزاروف مشهداً آخر ، حديثاً كل الحداثة ، فاعتراه الحجل
والأسف ، واحتقر نفسه ، ولكنه سرعان ما هز رأسه وسخر من
نفسه ، وهرع الى غرفته .

أما بول بتروفيتش ، فقد خرج من الحديقة بخطى بطيئة ، وسار

حتى بلغ الغابة ، حيث هام الى أن حان موعد تناول الطعام . فسأله
أخوه على المائدة ، ما اذا كان منحرف المزاج ، لفرط ما خيم على وجهه
من ظلام وعبوس .

فأجابه بول بتروفيتش في هدوء : « إنك تعلم بأنني أشتكي أحيانا
من كبدي . »

الفصل الرابع والعشرون

بعد ساعتين ، قرع بول بتروفيتش باب غرفة بزاروف ، وشرع يقول ، وهو يجلس على كرسي ، قريباً من النافذة ، متكئاً بكلتا يديه على عصا جميلة ، ذات مقبض من العاج على هيئة تفاحة (وما كان من عادته أن يخرج بعضاً)

« عذراً اذا أزعجتك ، وأنت منهمك في مشاغلك العلمية ، ولكنني ملزم بأن أرجوك أن تمنحني خمس دقائق من وقتك ... لا أكثر »
فأجابه بزاروف ، وكان قد شعر بانقباض خفيف ، سرى في وجهه عندما اجتاز بول بتروفيتش عتبة الباب :

« كل وقتي طوع أمرك . »

« حسبي خمس دقائق . لدي سؤال القيه عليك . »

« سؤال ؟ وما هو ؟ »

« هو ذا . في مطلع إقامتك في هذا البيت ، عندما كنت لا احرم نفسي من لذة التحدث اليك ، أتيت لي فرصة سماع رأيك حول مسائل كثيرة ، ولكنني ماعهدتك تشكلم أبداً ، لالي شخصياً ، ولا في حضوري ، عن المبارزات ، وعن موضوع المبارزة بوجه عام . فاسمح لي أن أسألك

رأيتك في هذا الموضوع . »

جلس بزاروف على حافة المنضدة ، وشبك ذراعيه ، بعد أن كان قد نهض لاستقبال بول بتروفيتش ، وقال :

« أما رأيي فإليك ، المبارزة من الناحية النظرية سخافة ، أما من الناحية العملية فثني ، آخر . »

« اذن ، فهما يكن رأيك من الوجهة النظرية ، بقدر ما فهمتك ، فانك لا تسمح ، من الناحية العملية ، أن تهان دون أن تطلب الثأر والانتقام . »

« كما تقول تماماً . »

« صحيح . انني لسعيد جداً إذ أسمعك تقول ذلك . وان كلمتك لتضع حداً لارتياحي . »

« تريد أن تقول لحيرتك وترددك . »

« الأمر سواء ، يكفيني أنك تفهمني ، لست ... فأراً في مدرسة اكليركية . لقد أغنتني كلماتك عن الالتجاء الى وسيلة حقيرة أخرى . لقد عزمت على مقاتلتك . »

فجحظت عيننا بزاروف وقال : « معي ؟ »

« تماماً . معك . »

« ولماذا ؟ أرجوك . »

« في استطاعتي أن أخبرك بالسبب ، ولكنني أفضل السكوت عنه . انني أرى أنك قد تجاوزت حدودك هنا . اني لا أستطيع احتمالك ،

انني أحتقرك ، واذا كان ذلك لا يكفيك ... » وتطاير الشرر من عينيه .
وتأججت عينا بزاروف كذلك وقال : « حسناً ، كل شرح آخر
يكون من فضول القول . لقد تملكك هوى ممارسة الفروسية ، المتشبعة
بها روحك ، معي . باستطاعتي أن أرفض اشفاء غليلك هذا ، ولكنني
لا أفعل . »

فأجابه بول بتروفيتش : « إنني ممتن لك غاية الامتنان ، أستطيع إذن
أن أومل بأنك تقبل دعوتي للقتال ، دون أن تضطرنني أن ألتجئ الى
اجراآت عنيفة أخرى . »

فأجابه بزاروف بيروود : « تعني بذلك استعمال العصا ؟ اذا أردنا
الحقيقة فالحق معك ، بإمكانك أن تعني نفسك منها ، فلا يصيبك من
ذلك خطر . ابق رجلاً مهذباً ... وبما أنني رجل مهذب أيضاً ، فاني
أقبل دعوتك . »

فقال بول بتروفيتش وهو يضع عصاه في زاوية من زوايا الغرفة :
« حسن جداً . والآن اليك بعض الايضاحات حول شروط منازلتنا .
ولكنني أود أن أعلم قبل كل شيء ، اذا كنت ترى من الضروري اصطناع
منازعة تبرر دعوتي من الناحية الشكلية ؟ »

« كلا على العكس . »

« كذلك رأيي ، وأرى أيضاً أن من الخير ألا تتعمق في البواعث
الحقيقية على خصامنا . نحن لا نستطيع أن يحتمل أحدهنا الآخر ، ماذا
يقتضي أكثر من هذا ؟ »

فردد بزاروف بسخرية : « حقا ، ماذا يقتضي أكثر من هذا ؟ »
« أما عن شروط منازلنا ، فبما أنه لا شهود لنا ... وإلا فأين
نجدهم ؟ »

« نعم أين نجدهم ؟ »
« اذن فلي الشرف أن اعرض عليك الاقتراح التالي ، سنتنازل في
مطلع صباح الغد ، في الساعة السادسة ، وراء الغابة بالمسدس ، وستكون
المسافة عشر خطوات ... »

« عشر خطوات ، فليكن . إتنا تتباغض حتى على هذا البعد . »
« ثماني خطوات اذا كنت تشتهي . »
« لم لا ؟ بطيبة خاطر . »

« ستكون هنالك طلقتان لكل منا ، ومهما يحدث ، فسيكون في
جيب كل منا رسالة يتهم نفسه بها بقتل نفسه . »
فقال بزاروف : « أما على هذه النقطة الأخيرة فلا أوافقك ، هذه
طريقة القصص الفرنسية . »

« ربما ، ولكنك توافق على أن الإنسان يكره أن يسمى قاتلاً . »
« أوافقك . ولكن هناك وسيلة لإنجاة الإنسان من هذا الاتهام
المحزن . فلن يكون لنا شهود بالمعنى الصحيح ، ولكن في الامكان أن
نجعل بعض الناس يشاهد المعركة . »
« ومن هو هذا ؟ »

« بيتر . »

« اي بيتر ؟ »

« خادم أخيك . إنه خادم بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، يقوم بدوره كما ينبغي ، وكما يطلب في مثل هذه الحالة . »

« أعتقد أنك تمزح يا سيدي العزيز . »

« كلا البتة . تدبر أمرك ، وستعلم أن اقتراحي مفعم بالتفكير السليم ، وتحقيقه سهل ، كل شيء سيتم على ما يرام ، سأقوم أنا بأعداد بيتر ، واحضاره الى المكان . »

فنهض بول بتروفيتش قائلاً : « إنك ما تفتأ تمزح . وإن السرعة الجميلة التي قبلت بها طلبي قد دفعتني الى أن أحملها على محمل غير حسن ... هكذا إذن كل شيء قد تمهاً ... وبالمناسبة ، هل عندك مسدسات ؟ »
« كيف يكون عندي مسدسات ، يا بول بتروفيتش ، إنني لست من المحاربين . »

« في هذه الحالة سأقدم لك مسدساتي ، لقد مضى عليها خمس سنين دون استعمال ، تستطيع الاعتماد عليّ . »
« لقد طمأنني . »

فتناول بول بتروفيتش عصاه وقال : « وعلى ذلك يا سيدي العزيز فلم يبق عليّ إلا أن أشكرك وأدعك لمشاغلِكَ . ولي الشرف أن أحييك . »
فأجابه بزاروف وهو يتناول يده : « يسرني أن ألقاك مرة أخرى يا سيدي العزيز . »

ومضى بول بتروفيتش . أما بزاروف فقد لبث في مكانه أمام الباب ،

وصرخ فجأة :

« لا بأس ، هذا جميل جداً ، ولكنه سخي . أية مسخرة تمثلها !
إننا كالكلاب المروضة التي ترقص على أرجلها الخلفية . لقد كان
الرفض مستحيلاً حينئذ (وشحب وجه بزاروف لمجرد الفكرة ،
وثار كبرياؤه) لو ضربني لما استطعت ردع نفسي عن خنقه كما
يخنق الكتكوت . »

وعاد فانكب على مجهره ولكن قلبه كان في غاية الاضطراب . لقد
زاياله الهدوء الذي لا يستغني عنه الفاحص بالمكرسكوب وقال لنفسه :
« لقد رأينا هذا الصباح ، ولكن هل من الممكن أن تتور ثائرته لأجل
أخيه ؟ إنها قبلة ، فيا لها من مشكلة خطيرة ، لا بد أن في الأمر سرّاً .
باه ، أهو مغرم بها ؟ ذلك واضح وضوح النهار ، لقد وقعت في ورطة
عظيمة ، يا لها من قضية مشؤومة ، هل ثمة أفضع من أن يعرض الإنسان
جبهته للرصاص ؟ وعلى كل حال فليكن ما يكون . ثم هناك أركادي
ونيقولايتروفيتش الطيب الكريم . مشؤومة ، يا لها من قضية مشؤومة ؟ »
وانقضى النهار ، أشد هدوءاً ، وأكثر عبوساً مما هو معتاد . ولم تظهر
تنبجكا علامة لوجودها في الدار ، فقد ظلت في غرفتها كالقارة في جحرها .
وكان نيقولايتروفيتش مغموماً ، فقد تراسى إليه أن آفة الجبوب قد
بدأت تعبت في قمحه الذي كان يعلق عليه أعظم الآمال ، وأصبحت كياسة
بوليتروفيتش الثلجية تثقل على كل أحد ، حتى على بروكوفيتش . وبدأ
بزاروف يكتب رسالة الى أبيه ، ولكنه مزقها ورماها تحت المنضدة ،

وهجست في نفسه هذه الحاطرة : « اذا مت فسيبلغهم الخبر ، ولكنني لن أموت ، وما زال لدي وقت طويل أجز نفسي فيه على هذه الأرض . »
ورجا بيتر أن يجيئه عند انبثاق ضوء النهار ، لأمر خطير ، فتصور بيتر أنه يريد أن يأخذه معه الى بترسبورج . ونام بزاروف متأخراً ، وعذبه أحلام مقلقه متقلبة طول الليل . . . فترأت له مدام أودينتسوف دون انقطاع ، ثم حلت أمه محلها ، ورأى هراً اذا شاربين أسودين يتبعها . وكان هذا الهر نينجكا . ورأى بول بتروفيتش خشبة عظيمة عليه أن يصارعها . وأيقظه بيتر في الساعة الرابعة صباحاً ، فارتدى ثيابه على عجل وخرج معه .

كان صباحاً رائعاً رائعاً . وكانت غمامات مختلفة الألوان قد تناثرت في الأفق الشاحب الصافي ، وكان الندى الرقيق يغطي الأوراق والأعشاب ، وكانت قطراته الفضية تسلاً في الحقول ، وكانت التربة السمراء تلوح وكأنها ما زالت تحتفظ بآثار حمرة الفجر ، وكانت أغاني القنابر تنبعث من كل أقطار السماء . فوصل بزاروف الى الغابة ، وجلس في الظل ، وحينئذ فقط ، أعلم بيتر بالخدمة المنتظرة منه . فتملك الخوف خادمنا المتمدن ، ولكن بزاروف طمأنه مؤكداً له بأنه ليس عليه إلا أن ينظر من بعيد ، وأن لا مسؤولية عليه قط ، وأضاف : « ثم فكر بالدور المهم المسند اليك . »

وخفض بيتر ذراعيه ورأسه ، وازرق وجهه ، ومضى الى شجرة من أشجار الحور واستند اليها .

كان طريق مارينو يدور حول الغابة الصغيرة ، ولا عجلة فيه ، لا عجلة ولا قدم ، ولم يتحرك الغبار الخفيف الذي يكسو الطريق ، منذ الليلة ، وكان بزاروف يلقي بين حين وآخر ، دون ارادته ، نظرة على طول الطريق ، بينما كان يقطف بعض الأوراق ويمضغها مردداً : « يالها من سخافة » وقد جعله نسيم الصباح يرتجف مرتين أو ثلاث مرات ... ورفع يتر اليه عينين مفعجعتين ، ولكن بزاروف اكتفى بالابتسام فما كان خائفاً .

وسمعت قرعة سنايك الخيل على الطريق .. وبعد قليل ظهر فلاح بين الأشجار ، وكان يسوق أمامه جوادين مقيدين ، وحين مروره ببزاروف حذجه بنظرة غريبة ، دون أن يرفع قبعته ، فاضطرب يتر ، إذ لا شك أنه وجد في ذلك شؤماً ، وفكر بزاروف : « لقد استيقظ هذا الرجل مبكراً ، هو أيضاً ، وسيقوم بعمل نافع ، على أقل تقدير ، على حين أننا ... »

فقال يتر على حين غرة : « أعتقد أن هذا هو السيد . »
فرفع بزاروف رأسه ، ورأى بول بتروفيتش يتقدم في الطريق بخطى سريعة مرتدياً سترة خفيفة ذات مربعات ، وسروالاً أبيض يابض الثلج ، متباطأً تحت ذراعه علبة ذات غلاف أخضر .

وقال ، محيياً بزاروف أولاً ، ثم يتر الذي اعتبره الآن رجلاً آخر : « معذرة . أخشى أن أكون قد جعلتك تنتظر ، لم أشأ أن أوقف خادمي . »

فأجاب بزاروف : « لا تثريب عليك . لقد وصلنا قبل مدة قصيرة . »
« آه ، هذا حسن جداً . »

وسرح بول بتروفيتش بصره حوله وقال : « لا يوجد أحد فلن
يزعجنا مزعج ... هل نبدا ؟ »
« اذا شئت . »

« المفروض أنك لا تحتاج الى ايضاحات جديدة ؟ »
« قطعاً . »

قال بول بتروفيتش وهو يخرج المسدسات من العلبة : « أتريد
حشوها ؟ »

« كلا احشها أنت نفسك . سأقيس أنا المسافة . » ثم أضاف مبتسماً :
« ان ساقى طويلتان جداً ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ... »

فهمهم بيتر في جهد (وكان يرتجف كما ترتجف الورقة) : « يا ايفاجني
فاسيليتش ، افعل ما تريد ، ولكنني سأبتعد قليلاً . »

« أربعة ... خمسة . نعم نعم ابتعد يا بطلي ، باستطاعتك أن تختبئ
وراء شجرة ، وتضم أذنيك ، ولكن لا تغمض عينيك ، فاذا سقط
أحدنا فاهرع وانفضه ... ستة ... سبعة ... ثمانية ... » ثم توقف
بزاروف ، والتفت الى بول بتروفيتش متسائلاً : « أهذا كاف ؟ أم
نضيف خطوتين أخريين ؟ »

فأجابه وهو يدس رصاصة في أحد المسدسين : « كما تهوى . »
« إذن فلننصف خطوتين . »

وخط بزاروف بنهاية حذائه خطأ على الأرض ، وقال : « هذا هو
الحاجز ، ولكن على أي بعد من الحاجز نقف ، هذه أيضاً مسألة مهمة
لم تدبرها أمس . »

فأجاب بول بتروفيتش وهو يقدم المسدسين : « على بعد عشر خطوات
كما يبدو لي . كن طيباً واختر أحدهما . »

« سأكون طيباً كما تحب ، ولكن وافقني على أن هذه المباراة
تضحك التكللي . تأمل قليلاً وجه تابعنا بيتر . »

فأجاب بول بتروفيتش : « إنك ما تزال تمزح . ولا أنكر بأن
نزلنا غاية في الغرابة ، ولكنني أرى من واجبي أن أحذرك بأنني سأقاتل
جاداً لا هازلاً . واللبيب بالإشارة يههم . » وكانت العبارة الأخيرة
بالفرنسية .

« إنني لا أشك بأننا قد عزمنا على أن يتخلص أحدنا من الآخر
ولكن لماذا لا تضحك قليلاً ونمزح ، ونضيف كلمة حتى النهاية (قلها
باللاتينية) فأنت ترى بأنك إذا خاطبتني بالفرنسية أجبتك باللاتينية . »
وكرر بول بتروفيتش وقد احتل مكانه : « سأقاتل جاداً . »

وعد بزاروف عشر خطوات ثم توقف ، وسأل بول بتروفيتش :
« أمستعد أنت ؟ »

« نعم . »

« إذن هيا . »

فتقدم بزاروف دون عجلة ، وكذلك صنع بول بتروفيتش ، ويده

اليسرى في جيبه ، رافعاً فوهة مسدسه يبطء ... وقال بزاروف لنفسه :
« انه يسدد الى أنفي ، وينظر خلسة لتصويب رصاصته ، ياله من شقي ،
انه يروم أمراً غير مستحب . سأنظر الى سلسلة ساعته ... » ومرق شيء
قريباً من أذنه على حين فجأة ، وهو ينظر . وفي اللحظة ذاتها دوت
قرقرة . فكان له من الوقت أن يفكر قائلاً لنفسه : « لقد سمعتها ، فلا
خوف عليّ » ثم خطا خطوة ، وضغط على الزناد دون أن يعين الهدف ،
فارتعش بول بتروفيتش ارتعاشة خفيفة ، ووضع يده على فخذه .
وجرى خط من الدم على سرواله الأبيض .

فرمى بزاروف مسدسه ، وهرع اليه سائلاً : « هل جرحت ؟ »
فأجاب بول بتروفيتش : « كان لك الحق أن تجعلني أقدم حتى الحد ؟
ولكن لا بأس ، إن لكل منا أن يطلق رصاصة أخرى حسب اتفاقنا . »
فأجاب بزاروف : « المذرة ، سنترك هذا للمرة الاخرى . » وحمل
جسم بول بتروفيتش ، وكان قد شحب وجهه وقال : « انني قد انتهيت
بوصفي مبارزاً ، فأنا الآن طبيب . وينبغي قبل كل شيء ، أن أخفص جرحك .
يا بيتر ، تعال هنا ، يا بيتر أين أخفيت نفسك ؟ »

فأجاب بول بتروفيتش يبطء وتراخ : لا بأس عليّ ... لست في حاجة
الى معونة أحد ... فلنحاول ... مرة أخرى ... » وأراد أن يرفع يده
الى شاربه ، ولكن يده الضعيفة سقطت ثانية ، وزاغت عيناه ،
وفقد وعيه .

فصرخ بزاروف ، دون إرادته ، وهو يمدد بول بتروفيتش على

العشب : « كيف ؟ أتسقط مغمى عليك ؟ ولسبب تافه ؟ ... فلننظر قليلاً
ماذا ألم به . »

وسحب منديله ، وقطع نزيف الدم ، وجس حافة الجرح ، وقال
وهو يصك أسنانه : « العظم سليم . والرصاصة لم تنفذ الى الأعماق ،
ولم تقطع إلا عضلة واحدة ، وسوف يستطيع أن يرقص بعد ثلاثة
أسابيع . ولكنه وقع مغشياً عليه ، آه يا هؤلاء الرجال العصاةيين ،
ويا لبشرته الرقيقة ! »

ورن صوت يتر المرتجف وراء ظهره : « هل قتل سيدي ؟ »
« اذهب سريعاً وابحث عن الماء يا شيخى ، سيعيش أكثر
منى ومنك . »

ولكن هذا الخادم المدرب بدا وكأنه لم يفهم قط ، وظل واقفاً في
مكانه . ففتح بول بروفيتش عينيه ببطء . فرسم يتر علامة الصليب وهو
يهمهم : « إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة . »

فقال الجنتلمان الجريح ، وهو يتسم ابتسامة مغتصبة : « ألحق معك ..
فما أفضع سحنتي ! »

فصرخ بزاروف : « اذهب وابحث عن الماء أيها الآخرق . »
« لا فائدة من ذلك ... دوار بسيط لن يدوم طويلاً ... أعني على
الجلوس ... هكذا ... يكفي أن تعصب هذا الحداث وسأعود على قدمي
الى البيت ، وإلا فباستطاعتهم أن يبعثوا الى بعربة ، وستبقى هنا اذا شئت .
لقد تصرفت معي تصرفاً شريفاً ... اليوم ... اليوم . سجل ذلك . »

« لا فائدة من استذكار الماضي . أما عن المستقبل ، فلا تكلف نفسك غناء التفكير فيه ، لأنني عازم على الرحيل بأسرع ما يمكن ، دعني الآن أعصب ساقك . ان جرحك غير بليغ . ولكن من الضروري إيقاف الدم . ولكن يجب أن أعيد هذه الجثة الهامدة الى الحياة وأمسك يتر من ياقته وهزه هزاً عنيفاً ، وأرسله ليفتش عن عربة . وقال له بول بترفيتش : « إتبّه ، حذار أن تفزع أخي ، لا تقص عليه شيئاً مما حدث . »

فضى يتر راكضاً ليفتش عن عربة ، وظل الحصان جالساً جنباً الى جنب دون أن يتبادلا كلمة . وتجنب بول بترفيتش النظر الى بزاروف اذ ليس في العالم قوة تستطيع أن تحمله على مصالحته . كان خجلاً من مظهره المتعجرف ، ومن رعوثه ، ومن جميع تصرفاته في هذه القضية ، ولو أنه كان يشعر كل الشعور بأن المسألة لا يمكن أن تنتهي بخير مما انتهت اليه ، وقال لنفسه معزياً : « مهما كان الثمن فقد اتقينا الفضيحة ، واني لمسرور بذلك . » وطال الصمت ، الصمت المؤلم المخرج ، وشعر كل منهما بسأم وضيق ، واستيقن كل منهما بأنه يفهم صاحبه ، وذلك حلوا بين الاصدقاء ، ولكنه في غاية المرارة بين الأعداء ، وخصوصاً حين لا يستطيع أن يبت كل منهما ما به للآخر ، ولا يستطيعان انفصالاً . وسأله بزاروف أخيراً : « أخشى أن أكون قد شددت ساقك شداً قوياً ؟ »

« كلا ، كلا ، كل شيء على ما يرام . » وأردف بعد لحظة : « ليس

من السهل خداع أخي . سأقول له بأننا قد تخاصمنا من جراء السياسة . «
فأجاب بزاروف : « حسن جداً . تستطيع أن تقول له بأنني قد
قدحت في جميع المتأكلين . »

« أحسنت . » وأضاف بول بتروفيتش مشيراً الى فلاح على الطريق ،
وهو الذي مر أمام بزاروف بخيوله المقودة قبل المبارزة ، والذي خبأ
نفسه احتراماً حين رأى الأسنيد : « ماذا يقول عنا هذا الرجل
حسب رأيك ؟ »

فأجاب بزاروف : « أكثر ما يحتمل أنه لا يفكر بشيء . إن الفلاح
الروسي هو الغامض المجهول الذي تتكلم عنه كثيراً مدام رادكليف (١)
من يدري ؟ إنه هو لا يعرف نفسه . »

فقال بول بتروفيتش : « آه ، هذه هي المسألة » وصرخ في نفس
اللحظة : « انظر ما صنع خادمك الأحمق العظيم بتر ، هو ذا قادم
الينا خيباً . »

فالتفت بزاروف وشاهد نيقولا بتروفيتش في العربية ، شاحباً
شحوباً فظيعاً ، وقفز الى الأرض قبل أن تقف العربية ، وهوى نحو أخيه
وسأل مشدوهاً : « ما معنى كل هذا ناشدتك الله ؟ يا ايها جني فاسيليتش
ما الخبر ؟ »

(١) مدام رادكليف ، نبي وورد (١٧٦٤ — ١٨٢٨) قصة
انكليزية كتبت « أسرار ادولفو » وغيرها . وقد سافرت كثيراً .



فأجاب بول : « لا شيء ، لقد أخطأنا في ازعاجك . لقد تنازعنا أنا
والسيد بزاروف ، فموقبت على ذلك بعض العقاب ، وهذا كل ما في الأمر . »
« ولكن متى حدث ذلك خبرني بحق الاله ؟ »

« كيف أشرح لك القضية ؟ ان السيد بزاروف لم يرع حرمة للسير
روبرت بيل حين تحدث عنه ، ولا سرع فأضيف بأنني كنت المجرم في
كل هذا . وان السيد بزاروف تصرف تصرف رجل مهذب ، وأنني
أنا الذي استفزته . »

« ولكنني أرى دماً ؟ »

« اذن فهل كنت تتصور أن ماء يجري في عروقي ؟ باه ، إن هذا
الفصاد لا يعود عليّ إلا بالخير ، أيها الدكتور أعني على الصعود الى المركبة
ولا تتخذ هذه الهيئة الحزينة ، ولن يبق الى الغد شيء من كل هذا ،
وعلاوة على ذلك فاني في منتهى السلامة . قرع صوتك أيها الحوذي . »
وتبعه نيقولاي بتروفيتش راجلاً ، وتأخر بزاروف عنه قليلاً ،
فقال له نيقولاي بتروفيتش : « أرجوك أن تعالج أخي بعناية ، حتى
يقدم طبيب من المدينة . »

فانحنى بزاروف دون أن ينبس ببنت شفة .

بعد ساعة واحدة كان بول بتروفيتش مسجى على سريريه ، وقد
ربطت ساقه رباطاً جيداً . وكان البيت في هرج ومرج . فقد كانت ثينجكا
في حالة سيئة ، وانتحى نيقولاي بتروفيتش ناحية وهو يلوي أصابعه ،
وكان بول هو الوحيد الذي يضحك ويتندر ويتفكك ، وعلى الأخص مع

بزاروف . كان يرتدي قميصاً رقيقاً فاخراً من الباتيست . وسترة صباحية
أنيقة ، وطاقية ، ولم يرض بأن يرخوا الأستار وكان يشكو ضاحكاً من
الحمية التي فرضت عليه .

ولكنه أصيب بالحمى مساءً ، وانتابه صداع شديد . وقدم طبيب من
المدينة (فلم يشأ نيقولاي بتروفيتش أن يصغي الى رجاء أخيه بعدم
استقدام طبيب ، وكان بزاروف من جانبه يتمنى أن يكون الأمر كذلك)
وقد بقي محبوساً في غرفته طوال النهار ، أصفر السحنة ، عكر المزاج ،
لا يزور الجريح إلا زيارات قصيرة . وصادف ثينجكا مرتين ، فتحاشته
فرقة . ووصف الطبيب القادم مشروبات منعشة ، وأكد عدم الحشية من
حدوث اختلاطات . وقد أخبره نيقولاي بتروفيتش بأن أخاه قد جرح
نفسه قضاءً ، وقدراً ، فهمهم الدكتور شاكا ، ولكنه أضاف لما دسوا في
يده خمسة وعشرين روبلاً : « كثيراً ما يحدث ذلك حقيقة . »

ولم يهجع أحد من سكنة الدار تلك الليلة ، وكان نيقولاي بتروفيتش
يدخل غرفة أخيه في كل لحظة ، على رؤوس أصابعه ، ثم يخرج على تلك
الصورة ، وكان بول بتروفيتش أيضاً لا ينام إلا غراراً ، فيستيقظ كل
لحظة من نعاسه فيقول لأخيه بالفرنسية : « نم » أو يطلب ما يشربه .
واضطر نيقولاي بتروفيتش ثينجكا مرة على أن تحمل له كوباً من
الليمون ، فخدجها بول بنظراته ملياً ، ثم رشف الكأس الى آخر قطرة .
وارتفعت حرارته في النهار قليلاً ، وأخذ يهذي . شرع في بادئ الأمر
يلفظ كلمات متقطعة متنافرة ، ثم فتح عينيه بغتة ، وحينما رأى أخاه مكباً

عليه في اهتمام زائد ورعاية قال له :

« أليست نينجكا تشبه نيلي قليلاً ؟ »

« عن أية نيلي تتحدث يا بول ؟ »

« كيف تسأل عن هذا ؟ إنني أتحدث عن الأميرة (ل) خصوصاً

في أعلى الوجه . إنها من العائلة نفسها . »

فلم يجب نيقولاوي بتروفيتش ، وعجب في نفسه من دوام العواطف
الانسانية . وجال في فكره : « هاهو كل شيء ، قد طفا على السطح . »
وانتحب بول بعد لحظة ، وهمهم ويداه مشبكتان خلف رقبتة : « آه لشدما
أحبها ، هذه المخلوقة الساقطة ... إنني لا أحتمل أن يمسيها أحد الأوغاد ... »
فاكتفى نيقولاوي بتروفيتش بأن تنهد ، ولم يشك في حقيقة الشخص
الموجهة اليه هذه الكلمات .

وجاء اليه بزاروف في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثاني . وكان
قد هياً حقايبه ، وأطلق سراح صفادعه وحشراته وعصافيره .

قال له نيقولاوي بتروفيتش وهو ينهض للقائه : « هل أتيت لتوديعي ؟ »

« نعم . »

« اني أفهمك وأوافقك . لقد كان أخي المسكين مخطئاً ، ولاريب ،
ولقد نال جزاءه . لقد قضى على نفسه بيده . لقد جعلك في وضع لا يمكنك
من سلوك طريق آخر . إنني أعتقد تمام الاعتقاد بأنك لم تستطع أن
أن تتحاشى هذه المبارزة ، يجب أن نلقي اللوم على سوء التفاهم بينكما ،
وعلى اختلاف وجهة نظريكما » وتلعثم قليلاً عند هذه العبارة : « ان أخي

من المدرسة القديمة ، وهو شرس مشاكس سريع البادرة . لقد أعددت
العدة لكتمان القضية . »

فقال بزاروف بعدم اكتراث : « سأترك عندك عنواني ، فلفل
القضية تتطور ؟ »

« أومل أن لا يحدث ذلك ، يا ايفاجني فاسيليتش ، واني لآسف
كثيراً أن تكون إقامتك هنا قد انتهت الى هذه النهاية ، واني مغتم
لأن أركادي ... »

« سأراه قريباً دون ريب ، والا فأرجوك أن تحمل اليه تحياتي ،
وتبدي له أسفي الشديد . »

فأجاب نيقولا ي بروفيتش منحنياً : « وأنا أيضاً أرجوك ... »
ولكن بزاروف أدار ظهره ، وخرج دون أن ينتظر ختام الجملة .

وعندما علم بول بروفيتش بأن بزاروف سيرحل ، أعرب عن رغبته
في أن يراه . وهز يده مودعاً ، ولكن بزاروف ظل جامداً جمود الثلج ،
فقد أدرك جيداً بأن خصمه أراد ، بكل بساطة ، أن يظهر نفسه شهماً .
ولم يستطع أن يستأذن من ثينجكا ، فتبادلا نظرة من خلال النافذة .

ولاحت له حزيمة واجمة . فقال لنفسه : « بسببها وقعت الواقعة ، ولاشك ،
سوف تتمسكن من نسيان القضية . » أما بيتر فقد غلبه التأثر الى حد أن

شرع يكي على كتف بزاروف بالرغم من أن بزاروف لم يقصر في تهدئته
فقال له : « أتريد أن تحيل عينيك ماء ؟ » وهربت دنياشا الى الحديقة
لتخفي انفعالها . وصعد مسبب هذه الاحزان الى عربة السفر ، وأشعل

سيكاراً ، وعلى أربعة فراسخ ، في منعطف الطريق ، لاح له قصر
كيرسانوف الفخم لآخر مرة فبصق قائلاً : « تف على هؤلاء النبلاء
القذرين » والتف متدثراً بمعطفه ما وسعه الالتفاف والتدثر .

ما لبثت حالة بول بتروفيتش أن تحسنت ، ولكنه كان مضطراً الى
ملازمة الفراش لمدة اسبوع تقريباً ، وتحمل سجنه هذا على حد تعبيره ،
بصبر فائق ، ولكنه عوض عن ذلك باعتناؤه البالغ بهندامه ، بالرغم مما
يسببه ذلك له من ألم ، وباهراقه ماء السكولونيا على كل شيء . وكان
نيقولاي بتروفيتش يقرأ الجريدة له ، وئينجكا تقوم على خدمته ،
كالعادة ، فتجلب له الحساء ، والليمون والبيض المسلوق الى النصف ،
والشاي ، ولكنها كانت تشعر بائسزاز عظيم كلما دخلت الى غرفته . وقد
أفزع عمل بول بتروفيتش هذا غير المنتظر ، جميع أهل الدار ، وخاصة
ئينجكا ، وبروكوفيتش وحده هو الذي ظل هادئاً ، فكان يقول : « ان
السادة النبلاء في زمانه كانوا يتناحرون أيضاً ، ولكن فيما بينهم فقط ،
إلا أنهم كانوا يجلدون قليل الأدب ، مثل بزاروف ، بالسوط ، في
الاصطبل ، عندما تبدر منهم وقاحة . »

وكانت ئينجكا ، في قرارة نفسها ، لا تشعر بندم أو تأنيب ضمير .
ولكنها كانت تتألم وتتعذب ، بين حين وآخر ، حينما تخالجهما الشكوك
حول السبب الحقيقي للمعركة ، وعدا ذلك ، فقد كان لبول بتروفيتش
طريقة غريبة جداً في النظر اليها . وكانت تشعر بثقل وطأة هذه النظرة ،
حتى حينما تدير ظهرها له ، وقد لحقها الهزال من هذا القلق الدائم ،

ولكنها ، كما يحدث في مثل هذه الحالات دائماً ، لم تزد إلا جمالاً .

وفي صباح ذات يوم ، شعر بول بتروفيتش بتحسن صحته ، فغادر فراشه الى الديوان ، وبعد أن استفسر نيقولاوي عن صحته ، ذهب الى ساحة الدرس حيث كان يدرس القمح ، فجاءت ثينجكا بقدرح من الشاي وضعت على المائدة ، وأرادت أن تنسحب فاحتجزها بول .

قال لها : « الى أين تركضين هكذا ، يا ثيودوسيا نيقولايفنا ؟ هل لديك ما تصنعيه ؟ »

« كلا ، كلا ... أو بالأحرى ينبغي أن أذهب لصب الشاي . »

« تستطيع دنياشا أن تصبه دونك ، تلبي قليلاً مع مريض مسكين . وعلى كل حال ، ان لدي ما أقوله لك . »
فجلست ثينجكا صامتة ، على حافة الأريكة .

قال بول بتروفيتش بارماً شاربيه : « انصتي الي . لقد أردت أن أسألك هذا السؤال من عهد بعيد . هل أخيفك ؟ »
« تخيفني أنا ؟ »

« نعم . أخيفك أنت . أنت لا تنظرين الى وجهي أبداً . ويخيل لرائيك أنك غير مرتاحة الضمير . »

فاحمرت ، ولكنها بالرغم من ذلك ، رفعت عينيها الى بول بتروفيتش ، وكان في قول بول شيء غريب جعل قلبها يرتعش منه .

« ليس ثمة ما تلومين نفسك عليه ، مع كل هذا ، أليس كذلك ؟ »

فلهت قائلة : « وما هو هذا الشيء اذن ؟ »

« وهل أدري أنا ؟ ثم ، انك مسؤولة تجاه من ؟ تجاهي ؟ هذا غير
محتمل ، أتجاه شخص آخر ؟ في هذا البيت ؟ وهذا مستحيل أيضاً .
تجاه أخي ؟ ربما ، ولكنك تحبينه ؟ »

« اوه ، اوه ، نعم أحبه . »

« من كل قلبك ؟ من كل روحك ؟ »

« أحب نيقولايتش بتروفيتش من كل روحي . »

« حقيقة ؟ انظري في وجهي جيداً يا مينجكا (وهذه هي المرة
الاولى التي يدعوها باسمها المجرد) ... إنك تعلمين أن الكذب
خطيئة كبيرة . »

« إنني لا أكذب ، يا بول بتروفيتش ، أنا لا أحب نيقولايتش
بتروفيتش ؟ أليس هو حياتي كلها ؟ »

« ولا تفضلين عليه أحداً ؟ »

« ومن تراني أفضل عليه ؟ »

« من يدري ؟ السيد الذي غادرنا مثلاً ؟ »

فنهضت وقالت : « ناشدتك ، باسم السماء يا بول بتروفيتش ، لم تعذبني
هكذا ؟ بم أسأت اليك ؟ كيف تستطيع أن تكلمني هكذا ؟ »
فأجابها باكتئاب : « يا مينجكا ، ذلك لأنني رأيت في ذلك اليوم ... »
« ماذا رأيت ؟ »

« هنالك ... في الجوسق ... »

فاحمرت حتى اذنيها ، حتى عروق شعرها ، وقالت بصعوبة ومشقة :

« لم تكن غلطتي ... »

فاتكأ بول على مرفقه وقال ؟ « لم تكن غلطتك ؟ أصبح هذا ؟
أصبح ؟ كلا ، أبدأ ، أبدأ . »

فأجابت نينجكا ، وصدرها يصعد الزفرات المكتومة : « لقد كانت
مفاجأة ، إنني لا أحب إلا رجلاً واحداً في الدنيا ، ذلك هو نيقولاي
بتروفيتش ، ولن أحب سواه مدى حياتي ، أما العمل الذي شهدته ، فأنني
سأقول بخصوصه ، يوم الدينونة ، لم أرتكب يوماً جرماً ، وليس في
ضميري ما أستحق التأنيب عليه ، وأفضل أن أموت في هذا المكان ،
لوحامت حولي أمثال هذه الشبهات ، وإذا اعتقد الناس بأنني قد خنت عهد
من أحسن إليّ . »

واختنق صوتها وتلاشى ، وفي تلك اللحظة شعرت بان بول بتروفيتش
قد قبض على يدها وضغطها بقوة ... فحملت فيه وظلت مصعوقة ، وكان
وجهه قد ازداد شحوباً ، وتطاير الشرر من عينيه ، وكان أشد ما يبعث
على التأثر والألم ، أن انحدرت على خده دمعة كبيرة .

وقال في صوت مغمغم : « أيتها الفتاة الغريبة ، أحبي أخي ، إنه طيب ،
إنه كريم ، لا تخدعيه مع شخص آخر . لا تستمعي إلى ما يلقى في أذنيك
من عبارات الاغراء . واعلمي أنه ليس هناك ما هو أشد فظاعة من أن
يكون الانسان محباً غير محبوب . لاتهجري أخي المسكين نيقولاي أبدأ . »
جفت دموع نينجكا ، وزال خوفها من شدة هول المفاجأة ، وبلغ
مصائبها أوجه حينما أطبق بول بتروفيتش — نعم بول بتروفيتش — أطبق

شفقيه على يدها ، هي ثينجكا ، دون أن يقبل تلك اليد ، ولكنه أخذ يصعد الزفرات بين حين وآخر ، زفرات تشنجية .

فقالت لنفسها : « يا إلهي ، أعتقد أنه سيصاب بنوبة . »

لقد تحرك فيه كل ماضيه ، وكل حياته الضائعة .

وقرعت درجات السلم تحت خطى سريعة ... فدفع المرأة الشابة ، وطرح رأسه على الوسادة ، وانفتح الباب ، ليفسح مجالاً لدخول نيقولاي بتروفيتش ، مرحاً غضاً متورداً . كان مرتدياً قميصه دون سترة ، وقد حمل ميتيا بين ذراعيه ، مرحاً ، غضاً متورداً مثله ، يتحرك على صدره ، مسنداً قدميه الصغيرتين الى أزرار معطفه الضخمة .

فاندفعت ثينجكا نحوه ، وطوقت الاثنين بذراعيها ، وأسندت رأسها الى كتف نيقولاي بتروفيتش . فتعجب من ذلك ، لأنه عهدا حية خجولة متحفظة ، وما كانت تبدي حنانها إلا عندما يكونان وحيدين . فقال :

« ما الخبر ؟ » والقي نظرة على بول ، وسلم الطفل الى ثينجكا ، ودنا

من أخيه وسأله : « هل تشعر بأن حالتك تسوء ؟ »

فأخفى بول وجهه في منديل من الباتيست وأجاب : « كلا ... إنني

على ما يرام ... بل اني لأشعر بتحسن عظيم . »

فقال نيقولاي : « لقد تسرعت بترك الفراش » وأضاف متوجهاً

الى المرأة الشابة ، ولكنها كانت قد انسحبت ، وأطبقت الباب خلفها :

« الى أين تذهبين ؟ لقد جئت لأريك طفلي الصغير ، لقد أسأمه عدم

رؤية عمه . لم أخذته ثينجكا معها ؟ ولكن ما بك ؟ هل حدث
بينكما شيء ؟ »

فقال بول بتروفيتش بوقار وصرامة : « يا أخي ؟ »
فارتعد نيقولا بتروفيتش وخالجه احساس بقلق لا يستطيع فهمه .
وعاد بول يقول : « عدني يا أخي بالاستجابة للطلب الذي
سأوجهه اليك . »

« ماذا تريد ؟ تكلم . »

« ما أريد غاية في الخطورة . انه امر يتعلق بسعادتك بأسرها .
لقد فكرت في هذه الأيام الأخيرة بما سأقوله لك الآن ... يا أخي ،
قم بواجبك ، بواجب الرجل الشريف ، رب القلب الكريم . ولا تكن
مثلاً سيئاً للآخرين ، وأنت من خيرة الرجال »
« ماذا تقصد ؟ »

« تزوج ثينجكا . إنها تحبك . وانها أم ولدك . »

فراجع نيقولا بتروفيتش الى الورا ، وضم يديه وقال : « أنت
تتكلم هكذا يا بول ؟ أنت الذي عهدتكم أبداً ، ألد أعداء مثل هذه
الزيجات ، أشير علي بهذه ؟ أن أفعل ما تسميه أنت واجباً ؟ »

فأجاب بول بابتسامة حزينة : « آسف على ذلك . لقد بدأت أعتقد
بأن بزاروف لم يكن مخطئاً حين اتهمني بالارستقراطية . نعم يا أخي
العزیز ، ينبغي أن نرضي الناس ونتجنب سخطهم ، لقد تراكت علينا
السنون ، وأصبحنا شيوخاً ، وحصلنا على الحكمة ، فلنطرد من قلوبنا

كل غرور . ولنصدع بواجبنا ، كما تردد أنت كثيراً ، فعسى أن ننال
السعادة ، علاوة على ذلك . »

فعانق نيقولاي بتروفيتش أخاه وقد فاضت عواطفه ، وصاح :
« لقد فتحت عيني تماماً . لقد كنت أعتبرك دائماً ، خير الرجال وأذكاهم
وأرى الآن ، أنك حكيم أيضاً ، بالإضافة الى كرمك . »

فأجاب بول بتروفيتش : « على رسلك لا تؤذ ساق أخيك الحكيم ،
الذي تبارز بالرغم من أن سنه تناهز الخمسين ، كما لو كان ضابطاً شاباً .
هكذا اذن ، لقد قر القرار ، ستصبح ثينجكا زوجة أخي . »

« ولكن ما الذي سيقول أركادي ، يا عزيزي بول ؟ »
« أركادي ، فليذهب الى الملائكة . أجل ليس الزواج من مبادئه ،
ولكن سيظمن غروره حبه للمساواة . ولكن ، لو أردنا الحقيقة ،
فلم هذه الفروق الطبقية في القرن التاسع عشر ؟ »

« آه بول ، بول ، دعني أعانقك مرة أخرى ، ولا تخف ، فسأحافظ
على ساقك . »

وتعانقا ، وسأل بول : « ما رأيك في اعلان عزمك اليها الآن ؟ »
فأجاب نيقولاي : « فيم العجلة ؟ هل تحدثتما في الأمر سوية ؟ »
« نحن ؟ ما هذه الفكرة ؟ »

« المهم أن تتأمل للشفاء ، أما الأمر الآخر فالوقت له متسع ، ينبغي
علينا أن نفكر ، ونزن الأمور ... »
« ولكنك قد عازمت . »

« عزمت كل العزم . وأشكرك من كل قلبي . فلا أدعك الآن ، وعليك أن تستريح ، فالانفعالات لا تعود عليك بجدوى ، وسنتكلم ثانية في الأمر ونقلبه على أوجهه ، حتى يحين الحين . نم قليلاً شافاك الله ، والبسك ثوب العافية . »

وتساءل بول بتروفيتش حين أصبح وحيداً : « لم شكرني كثيراً ؟ كأن الأمر لا يعنيه وحده ، سأرحل بعيداً عندما يتزوج ، الى درسدن ، أو الى فلورنسا ، وسأملك هناك حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة . »
وبل جبهته بماء الكولونيا ، وأغمض عينيه ، وغمر نور الصباح الرائع رأسه الناحل الجميل الملقى على الوسادة ، فلاح كأنه رأس ميت .
وحقاً لقد كان الرجل في عداد الأموات .

الفصل الخامس والعشرون

وفي نيكولاسكوي ، كان أركادي وكاتيا ، جالسين على مقعد في الحديقة ، في ظل شجرة دردار ، وكانت فيني منبطحة على الأرض بجانبهما ، وقد استرخى جسمها بشكل قوس ، في حلاوة ولطافة ، بذلك الوضع الذي يسميه المولعون بالكلاب ، حنية الأرنب ، ولزم أركادي وكاتيا جانب الصمت ، وكان يبد الأول كتاب نصف مفتوح ، وكانت الثانية تلتقط فئات الحبز الأبيض المتخلف في قعر سلتها ، وترميه لعائلة من العصافير ، فتقفز زاعقة حتى قدميها ، جريئة قلقة ، وذلك ما يميز العصافير عن بقية الطيور . وهب نسيم رخاء فحرك أوراق شجرة الدردار ، حركة خفيفة ، جعلت بقع الضياء الذهبية الصفراء في الممشى المعتم ، وعلى ظهر فيني الأصفر ، تتحرك حركة مستمرة ، وتغطي أركادي وكاتيا بظل كثيف دائم ، ولكن كانت تخطف بين الحين والحين ، حزمة فضية ، كالشعلة ، في شعر الفتاة الشابة . كانا صامتين . ولكن أسلوب ذلك الصمت ، وهما جالسان جنباً لجنب ، يشهد على وجود تقارب بينهما ، تغمره الثقة ، فكان يبدو أن كلاهما غير مهتم بالآخر ، ولكن كلاهما كان في قرارة نفسه مرحاً طروباً بوجود الآخر معه . وقد تغير وجهها منذ أن

رأيناها آخر مرة ، فأركادي يبدو أكثر هدوءاً ، وكاتيا أشد حيوية ، وأعظم جرأة .

قال أركادي : « ألا تجدين أن شجرة الدردار تحمل اسمها باللغة الروسية بحق ^(١) (باسنو) انني لا أعرف شجرة ورقها أخف وأشف من هذه .

فرفعت كاتيا عينها يبطء وأجابت « نعم . »
وفكر أركادي : « إنها لا تؤاخذني ، على الأقل ، على انتهاج التعبير الشعري . »

وقالت كاتيا مشيرة الى الكتاب الذي يمسكه بيده : « انني لا احب هايني ، لا حين يضحك ، ولا حين يبكي . بل احبه عندما يكون حالماً مكتئباً . »

فأجاب أركادي : « أما أنا فأحبه عندما يضحك . »
« تلك بقية قديمة من ميولك الساخرة . » فقال أركادي في نفسه :
(بقية قديمة ؟ ليت بزاروف يسمعها !) « ولكن صبراً فسوف نصوغك من جديد . »

« من يصوغني من جديد ؟ أنت ؟ »

« من ؟ هي اختي ، وبورفيري بلاتونيتش ، الذي انقطعت عن مخاصمته ، وعمتي التي رافقتها أول أمس الى الكنيسة . »

(١) معنى الكلمة في الروسية : واضحة مشرقة شفافة .

« لم أستطع في الحقيقة أن أمتنع عن مرافقتها . أما عن أنا سيرجيفنا ،
فهل تذكرين ؟ انها كانت تتفق مع ايفاجني في كثير من الآراء . »
« لقد كانت أختي تحت تأثيره كما كنت انت . »
« تماماً ، ولكن من قال لك بأنني قد تخلصت من تأثيره ، ونفوذ ؟ »
فسكتت كاتيا ؟ وأردف أركادي : « انني أعلم بأنك ما كنت تحبينه
كل حين . »

« لا . اذ ليس لي رأي عنه . »
« آه يا كاترين سيرجيفنا . هذا كلام لا أصدقه أبداً . لا يوجد انسان ،
لا يستطيع كل منا ، أن يصدر حكماً عليه . ولكنه غامض لا أكثر . »
« اذا كان الامر كذلك فأقول لك بأنه ... لم يكن ليسوءني ،
ولكنني أشعر بأنني غريبة عنه ... كما أنه غريب عني كل الغربة ، وهو
فضلاً عن ذلك غريب عنك أيضاً . »
« غريب ؟ »

« نعم كيف أفسر ذلك ؟ ... انه مستوحش ، أما نحن فداجنان . »
« أنا داجن ؟ »
« فأومأت برأسها : « نعم . »

فهرش أذنه وقال : « هل تعلمين يا كاترين سيرجيفنا ، بأنني ، في
أعمامي ، مغتاض مما تقولين ؟ »
« هل تؤثر بأن تكون مستوحشاً ؟ »

« كلا ، ولكنني أفضل لو كنت قوياً نشيطاً . »

كهذه . فمن الصعب على الحقائق أن تجد طريقها اليهم ، وهذا شأن
القياصرة أيضاً . »

« ولكنني لست غنية كما ترى . »

فظل حائراً مرتبكاً ، ولم يفهم شيئاً مما تقصد باديء الأمر ، ولكنه
ما لبث أن قال لنفسه : « آه نعم ، ان جميع الثروة تعود لأختها » وما كان
ذلك بغيضاً الى نفسه .

وصاح : « ما أحسن ما قلت . »

وجاء دور كاتيا في عدم فهمه . فقال أركادي : « نعم ، ما أبسطك
حين تقولين ذلك ، دون تظاهر زائف بالحجل والتأثر . وبهذه المناسبة
انني أتصور أن كل شخص يدرك فقره ويؤمن به ، ينبغي أن تكون
لديه كرامة . »

« لم يخالجنني شعور من هذا القبيل ، بفضل أختي ، ولم أحدثك عن
ثروتي إلا لأن الحديث جرني الى ذلك . »

« طيب ، ولكن سلمي جدلاً بأن لديك شيئاً من الكرامة التي
نحن بصدددها . »

« هات مثلاً . »

« مثلاً ؟ معذرة اذا سألتك ، هل توافقين على التزوج من

رجل مثري ؟ »

« أجل اذا كنت أحبه كثيراً ... بل انني لا أتزوجه حتى ولو كنت

قد أحبيته . »

فصرخ : « آه . هو ذا أنت . » ثم أضاف بعد لحظة من الصمت
« ولماذا لا تتزوجينه ؟ »

« لأن الشائع حتى في الأغاني ، أن الزيجات بين غير الأكفاء تكون
تعسة جداً . »

« لعلك تحبين السيطرة ؟ »

« اوه ، كلا ، علام السيطرة ؟ اني ، على النقيض ، مستعدة للخضوع
كل الاستعداد ، بالرغم من علمي بأن عدم المساواة بكل ألوانها لا تحتمل .
اني أفهم أن الانسان يخضع اذا ضمن احترام نفسه ، وهذه هي السعادة ،
ولكن أن أكون خاضعة خضوعاً مطلقاً ؟ ان هذا مما لا أستطيع
حتى تصوره . »

فردد أركادي : « هذا ما لم أكن أتصوره . انك من طينة أختك
انا سرجيفنا ، انك مستقلة مثلها ، بل أنت أشد صلابة وعزيمة . ان
فيك مجموعة من الصفات النبيلة ، في أعماق نفسك ، ولكنك من جهتك
لا تريدن الافصاح عنها . »

فقالت كاتيا : « ولكن هذا طبيعي جداً . »

« وأنت ذكية حاذقة مثلها ، ولك نفس المقومات الشخصية التي
لديها ، بل لعلها أقوى عندك . »

« لا تقارني باختي ، من فضلك ، إنها موازنة ضيزى . يبدو أنك
نسيت بأنها جميلة ومتقفة معاً ... وأنت بصورة خاصة ، يجب أن
لا تتحدث عنها ، وعلى وجهك هذا الطابع غير الجدي . »

« ما تعنين (بصورة خاصة) هذه ؟ ومن اين جاءك أنني أمرح ؟ »

« أما أنك تمنح فأمر أكيد . »

« أتعقدين ؟ وماذا لو كنت مقتنعا بما أقول ، ولو كنت أيضاً

لم أستطع أن أعبر عن شعوري بوضوح كافٍ ؟ »

« انني لا أفهمك . »

« أصحيح ؟ اذن فقد بالغت في تقدير موهبة الملاحظة عندك ؟ »

« كيف ؟ »

فأدار أركادي رأسه دون أن يجيب ، والتقطت الفتاة آخر ما في

سلتها من الفتات ، وألقته للعصافير ، مرة واحدة ، وبحركة مباغتة ،

فطارت العصافير خوفاً من حركتها الشديدة ، دون أن تغتم شيئاً .

وقال أركادي فجأة : « يا كاترين سيريغيفنا ، وقد يكون ما سأقول

عديم الأهمية عندك ، اعلمي اني لا افضل عليك أختك ، ولا أية امرأة

أخرى في الدنيا . »

ونهض وابتعد بخطى كبيرة ، كما لو كانت الكلمات التي أفلمت منه

قد أفرغته .

وألقت كاتيا يديها الاثنتين والسلة التي تمسكانها ، على ركبتيها ، وأحنت

راسها ، ونظرت وراء أركادي نظرة طويلة ، وسرت في خديها حمرة

خفيفة ، ولكن نغرها لم يتسم ، وعبرت عيناها الغامضتان عن البقعة ،

وعن شعور آخر لم تسمه بعد ، ورن صوت اختها بجانبها يقول : « هل

أنت وحيدة ؟ لقد ظننت أركادي بصحبتك ؟ »

فرفعت كاتيا عينها دون استعجال ، الى انا سيرجيفنا ، وكانت هذه
تداعب اذن فيني بمظلتها المفتوحة ، وهي واقفة في الممشى ، مرتدية رداء
أنيقاً ، غاية في الاناقة ، وأجابت : « نعم وحيدة . »

فأجابت أنا ضاحكة : « أرى ذلك جيداً ، لقد رجع الى غرفته اذن ؟ »
« نعم . »

« هل كنتم تقرأان معاً ؟ »

« نعم . »

فدلت أنا يدها تحت ذقن اختها ، ورفعت وجهها اليها بلطف وقالت :
« لم تتشاجرا كما أتعشم ؟ »

فأجابت كاتيا ، ذائدة يد اختها بلطف : « كلا . »

« يا لها من أجوبة كئيبة . لقد أتيت الى هنا لأصحبه في تزهة ، فقد
طالما سألتني مثل هذه التزهة . ولكن فلذنتقل الى شأن آخر . لقد
جلبوا لك من المدينة أحذية جديدة ، فاذهبي وجريها ، لقد لاحظت
أمس فقط ، كم قد أصبح حذاءوك العتيق قديماً ، إنك لاتهتمين هنا ،
يا كاتيا بمثل هذه الأمور ، مع أن لك قدماً صغيرة ساحرة ، ويداك أيضاً
جميلتان ولكنهما كبيرتان قليلاً ، عليك أن تقدري قدميك حق قدرهما .
ولكن أختي الصغيرة ليست مغناجاً . »

وابتعدت انا سيرجيفنا يصحبها حفيف ثوبها الجميل . وغادرت كاتيا
مقعدها ، بعد أن أخذت كتاب هايني ، وخفت الى البيت ولكنها
لم تجرب الأحذية .

وفكرت على مهلها ، وهي تصعد درجات الشرفة الحجرية ، التي
ألمبتها الشمس ، بخطوات خفيفة : « قدمان ساحرتان ، أجل ، وسيكون
عن قريب ، عند هاتين القدمين الساحرتين ، كما تسمينها . » ولكنها
ما لبثت أن اعتراها الحجل ، فركضت هاربة من خواطرها .

ولما اجتاز أركادي الدهليز الموصل الى غرفته ، لحقه الخادم ، وأخبره
بأن السيد بزاروف في انتظاره .

فهمهم أركادي ، وقد تولاه دعر مفاجي ، غامض : « ايفاجني ؟ هل
هو هناك منذ مدة طويلة ؟ »

« لقد وصل توأ ، ولم يشأ أن نخبر انا سيرجيفنا ، وطلب أن يقاد
رأساً الى غرفتك . »

وقال أركادي لنفسه ، بعد أن صعد درجات السلم أربعاً فأربعاً ، وهو
يدفع الباب بعنف : « أتمنى ألا يكون حدث شيء في البيت » وطمأنته
رؤية بزاروف في الحال ، ولكن عيناً أخرى أكثر خبرة من عينه ،
تستطيع أن تكتشف ، في ملامح هذا الزائر الغير المنتظر ، الفوارة دائماً
بالحياة ، المقطوبة قليلاً ، علامات تتم عن الاضطراب الداخلي والقلق
الخفي . كان جالساً على سناد النافذة ، ومعطفه المعفر بالغبار على كتفيه ،
وقبعته على رأسه ، ولم يتحرك ، حتى حين ارتدى أركادي على كتفيه صارخاً :
« هذه مفاجأة ، فأية ريح رخاء جاءت بك ؟ هل الحال على ما يرام
في البيت ؟ هل الأهل في خير وعافية ؟ »

وكان أركادي يروح ويغدو في الغرفة شأن من يتصور نفسه

مغبطاً ، ويريد اظهار اغتباطه .

فرد بزاروف : « ان الحال على ما يرام في البيت ، ولكن ليسوا كلهم في خير . كف عن الثثرة ، ومر لي بكأس من الكفاس ، واجلس واستمع لما سأقوله لك ، في كلمات وجيزة ، ولكنها وافية بالمرام . »
فسكت أركادي ، وقص عليه بزاروف قصة مبارزته مع بول بتروفيتش ، فشدّه أركادي ، وتأثر تأثراً بالغاً ، ولكنه حاول اخفاء انفعالاته .
واكتفى بالسؤال عما اذا كان جرح عمه طفيفاً حقاً ، وحينما أجابه بزاروف ، بأنه مرضي كل الرضى ، ولا أتكلم من الوجهة الطبية ، اضطر على الابتسام ، ومع ذلك فقد شعر ، من أعماق نفسه ، بالحجل والقلق ، وظهر على بزاروف بأنه قد فهم صاحبه فقال :

« نعم يا صديقي ، هذه هي حالة العيش مع السادة النبلاء . انهم عبيد لعاداتهم ، وأهوائهم ونزواتهم . والآن سأذهب لرؤية والدي العجوزين ، وقد عرجت الى هنا ، في طريقي ، لأجل أن أطلعك على جملة الامر ، ولكن أرى أن الكذبة التي لا تجدي لامعنى لها ، كلا ، لقد جئت الى هنا لسبب يعلمه الله . ألا ترى معي أنه من الخير أحياناً أن يقبض على الانسان من عفرة رأسه ، وينتزع انتزاعاً كما تنتزع اللفطة من عروقها ؟ وهذا ما صنعت به نفسي منذ أيام ... ولكنني أردت أن أرى ، للمرة الأخيرة ، المنبت الذي انتزعت منه هذه اللفطة ، أي القاعدة التي كانت العروق ناشبة فيها . »
فقال أركادي متأثراً : « أو مل أن تكون هذه الكلمات غير منطبقة علي ، وأنت لا تؤثر الانفصال عني ؟ »

فحده بزاروف بنظرة ثابتة فاحصة وقال : « هل يؤمك ذلك حقيقة ؟ ان لدي قناعة بأنك قد انفصلت عني . انني أراك غصاً طرياً في أوج الترف والالاقة ... ولا بد أن تكون علاقاتك مع انا سيرجيفنا سائرة على ما يرام . »

« علاقاتي مع انا سيرجيفنا ؟ »

« ألم تترك مارينو وتأتي الى هنا في سبيلها ، أيها الطائر البري ، وبهذه المناسبة ، كيف حال مدارس الأحد ؟ أفلست مغرمّاً بها اذن ؟ كلا ، فهل بقي مجال للكتان ؟ »

« انك تدري يا ايفاجني أنني كنت صريحاً معك على الدوام . وعلى ذلك فأؤكد ، وأقسم أمام الله بأنك واهم . »

فقال بزاروف هامساً : « هم ، تعبير جديد . ولكن لماذا تأخذ الأمر بمثل هذا الجذ ؟ ما دام الأمر عندي سيان . ولو كان مكاني رجل خيالي لقال — انني أشعر بأن طريقتنا قد اختلفت — أما أنا فأقول بكل بساطة ، بأن أحدهنا قد أصبح يكره الآخر . »

« ايفاجني . »

« لا ضرر من ذلك قط ، يا فؤادي ، فالانسان حري بأن يترك أشياء كثيرة ممتلئة في حياته ، وأنا الآن أسائل نفسي عما اذا كان قد حان الوقت لأن يودع كل منا صاحبه ، فاني منذ ألقيت عصا الترحال هنا ، أشعر بالقرف الشديد ، كما لو كنت قد قرأت للمرة ، الثانية رسائل كوكول

الى زوجة حاكم كولوكا (١) ... انني لم أطلب تبديل الحيل بعد .
« ولكن ليس من الصحيح أن تتصرف مثل هذا التصرف .
« ولم لا ؟ »

« لن أتحدث عن نفسي ، اما ما يخص انا سيرجيفنا فالامر خلاف
ما تنصور تماماً ، انها مشتاقة الى رؤيتك ، على وجه التأكيد .
« أما من هذه الناحية ، فأنت مخطئ .
فأجاب أركادي : « انني ، عكس ما تقول ، متأكد بأنني على صواب ،
أما وقد صممت على ما تريد ، فهل تريد أن تنسكرك أنك أتيت الى هنا
من أجلها ؟ »

« هذا ممكن ، ولكنه لا يمنع أن تكون واحماً . »

ومع ذلك فقد كان الحق بجانب أركادي ، فان انا سيرجيفنا كانت
تشتهي أن ترى بزاروف . وقد أعلمته بواسطة أحد الخدم بأنها تنظره .
فاستبدل ملابسه ، وكان قد حزم أمتعته ، بحيث يسهل عليه استخراج
الحلة التي ارتداها .

(١) تولى هذه الرسائل قسماً من الإنتاج الذي نشره كوكول
تحت عنوان - منتخبات من مراسلاتي مع أصدقائي - وفيها امتدح
الادوقراطية . وكان قد كتبها في اخريات أيام حياته ، حين كان يجتاز
أزمة نفسية خطيرة ، وقد تناقض المؤلف العظيم تناقضاً صريحاً مع ما كتبه
سابقاً . وقد انتقده الناقد العظيم ييلنسكي انتقاداً حاداً ، في رسالته الشهيرة
(الى كوكول .)

واستقبلته مدام اودينتسوف ، لا في الغرفة التي أعلن لها فيها عن غرامه على حين بغتة ، بل في الصالون . ومدت اليه أطراف أصابعها في دلال وحلاوة ، وكان على وجهها ضيق غير ارادي .

فأسرع بزاروف قائلاً : « ينبغي ، يا انا سيرجيفنا ، أن اطمئنك قبل كل شيء . أنك ترين أمامك جثة قد دبت فيها الحياة من جديد ، وينبغي أن يكون الآخرون قد نسوا حماقاته الأخيرة . سأرحل وأبقى بعيداً مدة طويلة ، ومن العيب ألا أظهار بالركة والحنان ، ويحزنني أن أمضى من هنا ، وأتصور أن ذكراي تولد في نفسك كراهية واشمزازاً . »

فتنفست أنا سيرجيفنا الصعداء ، كما لو كانت قد بلغت تواقفة جيل أشم ، وافتر ثغرها عن ابتسامة أحييت ملاحظها ، ومدت يدها ثانية لبزاروف ، فشد عليها وقابلته بالمثل .

وقالت : « لا توقظ الأحران عندما تكون نائمة ، انني أشعر بالندم وبتأنيب الضمير أيضاً بسبب خطأ ، أو سمه طيشاً اذا أردت ، ولي كلمة أخرى ، فلنعد أصدقاء كما كنا ، ونعتبر ما مضى حلماً ليس غير ، ومن يهتم بالأحلام ؟ »

« نعم من يتذكرها ويهتم بها ؟ ونتم فهل الحب إلا من صفات الامراء والملوك ؟ »

« حقاً إنني لسعيدة أن أسمعك تقول ذلك . »

هكذا تكلمت انا سيرجيفنا ، وهكذا تكلم بزاروف ، وتصور

كل منهما بأنه قد صار ح صاحبه ، ولكن هل توخيا الحقيقة الخالصة ؟
انهما بالذات لا يدريان ، والمؤلف أقل دراية منهما بالموضوع ، ولكن
الحديث كان ينم على أن كلا منهما قد صدق صاحبه . ومهما كان الأمر
فإن هذه المرأة وهذا الرجل قد صاغا كلماتهما بشكل يولد ثقة
متبادلة بينهما .

وعقبت ، فسألته عما صنع عند آل كيرسانوف ، فأوشك أن يقص
عليها مبارزته مع بول بروفيتش ، ولكنه امتنع خشية أن تظنه يتباهى ،
فاكتفى بأن أجابها بأنه قضى وقته في العمل .

فأردفت : « لقد استحوذ عليّ بادی ، الأمر تبرم بكل شيء ، يعلم الله
سببه ، حتى لقد أوشكت أن أرحل الى الخارج ، تأمل . ولكنه مضى
وانقضى — وشكراً لقدوم صديقك أركادي ، فعدت الى سيرتي الأولى ،
وأخذت أقوم بدوري الحقيقي من جديد . »

« وما هو هذا الدور ، اذا سمحت لي بالسؤال ؟ »

« دور العمة لأختي ، أو مربيتها ، أو أمها ، أو سم ذلك كما تشاء ،
وبهذه المناسبة ، هل تعلم بأنني قد ظلمت مدة طويلة ، وأنا لا أفهم كنه
الصداقة الوطيدة التي تربطك بأركادي ؟ لقد ألفتها تافهاً لا معنى له .
ولكنني أعرفه حق المعرفة الآن ولقد اقتنعت بأن في رأسه دماغاً يعمل ،
وفوق كل شيء ، انه شاب يافع جداً ... ليس مثلي ، ولا مثلك
يا ايفاجني فاسيليتش . »

فسأل بزاروف : « هل بقي على خجله منك ؟ »

فشرعت تقول : « هل ... » ثم أضافت بعد لحظة تفكير : « لقد أصبح مستودع أسرارى ، فنحن نثرثر أحياناً سوية . لقد كان فيما مضى يتهرب منى ، بالرغم من علمه بأننى لا أنشد صحبته ، وبهذه المناسبة أخبرك بأنه لا يكاد يفارق كتابا . »

ففكر ايفاجنى ساخراً : « المرأة تخادع دائماً وتحتال . »
وأجاب بابتسامة باردة : « تقولين انه كان يتحاشاك ، ولكننى لا أستطيع أن أقنع نفسى حتى الآن بأنك لم تنفذي الى سر غرامه . »
فصرخت دون ارادتها : « كيف ؟ هو أيضاً ؟ »
فأكد بزاروف بهزة من رأسه وقال : « أجل هو أيضاً . أيعقل أن تكونى جاهلة ذلك حتى الآن ، واننى أنا الذي يتحفك بالخبر . »
فثبتت طرفها على البلاط وأجابت : « أعتقد أنك واهم . »
« أما أنا فلا أعتقد . ولكن ربما كان عليّ أن لا أتكلم في ذلك »
واضاف لنفسه : « ان ذلك سيمنعك من أن تلعبى دور المنافق معى . »
« ولم لا ؟ ولكننى أعتقد بأنك تعير أهمية كبرى لانطباع عابر بسيط . »
اننى مبالاة الى الاعتقاد بأنك تبالغ وتغالي . »
فقال مقترحاً : « يجدر بنا أن نتكلم في أمر آخر . »

« ولأى سبب ؟ »

ولكنها قادت الحديث بنفسها الى مجرى آخر . لقد كانت غير مرتاحة اليه ، على الرغم من قولها بأن كل شيء قد غفى عليه النسيان . لقد كانت تشعر بشيء من الخوف ، حتى عندما تتبادل معه أبسط الأحاديث ،

والمزاج ، شأنها شأن المسافرين على ظهر الباخرة ، في البحر ، يضحك
غير مكترث ، كأنه على ظهر اليابسة ، ولكن ملامحه لاتلبث لأقل نائبة ،
ولاتفه حادث طارىء ، أن تشف عن قلق غريب . وهذا يدل على أنه
شاعر طول الوقت بالخطر المائل .

لم يستمر حديث بزاروف مع انا سيرجيفنا طويلاً ، فقد رجعت الى
غموضها الذي ظهر في أجوبتها المتكتمة . و انتهت بأن اقترحت عليه أن
يمضيا الى الصالة الكبيرة ، حيث يجدان كاتيا والاميرة .

وتساءلت ربة الدار : « ولكن أين أركادي نيقولا ياقتش ؟ » ولما
أجيبته بأنه لم يظهر منذ ساعة ، أرسلت من يبحث عنه . فبحثوا عنه .
ووجدوه في الحديقة حيث كان قد انفرد بنفسه ، واضعاً ذقنه بين يديه
وقد استغرقته الأفكار . كانت هذه الأفكار عميقة خطيرة ، ولكنها
لم تكن محزنة البتة . لقد علم بأن بزاروف في خلوة مع انا سيرجيفنا ،
فلم يشعر لذلك بأقل مقدار من الغيرة ، بل على العكس ، كان ينظر أمامه
مسروراً ، كأن شيئاً مفرحاً ، مفاجئاً قد مر به ، وبعثه على أن يتخذ
قراراً مهماً .

الفصل السادس والعشرون

كان المرحوم اودينتسوف لا يحب البدع ، ولكنه سمح ببعض التجديد ، على أساس حبه للفنون الجميلة ، ولهذا السبب شاد رواقاً على الطريقة اليونانية ، بالقرميد الروسي ، بين أشجار البرتقال والبركة . وفي الجدار الذي يؤلف هذا الرواق ، أو قل الممشى . اقيمت ستة قواعد لستة تماثيل ، أوصي اودينتسوف بصنعها في الخارج ، تمثل العزلة ، والصمت ، والكآبة ، والحياء ، والتفكير ، وحدة الاحساس . وجلبت احداها ، وهي آلهة الصمت ، الواضعة اصبعها على شفתיها ، ونصبت في محلها ، ولكن حدث في اليوم ذاته أن حطم الصبيان أنفها ، وبالرغم من أن جباساً مجاوراً ، صرح بأنه مستعد أن يعيد الاتق أجل مما كان عليه مرتين ، فان اودينتسوف أمر برفع التمثال فرفع ، ودحرج في زاوية ساحة معدة لدرس القمح ، حيث أصبح ، خلال سنوات طويلة ، مصدر رعب خرافي للفلاحات . وغطت الأعشاب منذ عهد بعيد ، واجهة الرواق ، بحيث لم يبق بارزاً فيه غير تيجان العواميد التي أعدت للأنصاب . وكان الجو فيه منعشاً ، حتى وقت الظهيرة . وكانت انا سيرجيفنا لا تحب

هذا المكان ، اذ رأت فيه ثعباناً في أحد الأيام ، ولكن كاتيا كانت تأتية أغلب الأحيان ، ففتتعد مصطبة حجرية ضخمة قرب هذه الأعمدة . وفي وسط هذا الظل البارد المنعش كانت تقرأ وتطرز ، أو تفرق نفسها في ذلك الاحساس الذي يعرفه كل منا ، الاحساس بالطمأنينة والسلام ، الاحساس الذي ينبعث من تأملنا ، نصف الواعي ، بمجرى الحياة في داخل نفوسنا وفي خارجها .

وغداة وصول بزاروف ، كانت كاتيا جالسة على مقعدها الأثير ، وبجانها أركادي ، وكان قد طلب منها أن تصحبه الى الرواق ، كان الوقت قبل موعد الغداء بساعتين ، وكان الصباح المبلى بالندى قد ترك مكانه لظهيرة محرقة ، وكان وجه أركادي يحمل تعابير اليوم المنصرم بذاتها . وكانت كاتيا تبدو مهمومة . فقد استدعتها أختها منذ الصباح ، وبعد شيء من التذليل والمداعبة ، وذلك ما يولد في نفس كاتيا شيئاً من الخوف دائماً ، أشارت عليها أن تكون أشد حذراً ويقظة مع أركادي ، وأن تتجنب الاختلاء به ، والتحدث اليه ، بصورة تلفت نظر عمته واهل الدار جميعاً . لقد كانت أنا على خلاف طبيعتها ، وفضلاً عن ذلك فان كاتيا كانت تشعر ببعض التبرم والضيق ، كمن يلوم نفسه على ارتكاب جرم ، وحين استجابت لرغبة أركادي ، قررت في نفسها بأن تلك الخطوة ستكون الأخيرة .

قال أركادي فجأة بشيء من الارتباك والحجل : « يا كاترين سيرجيفنا ، بما أنني قد سعدت بالعيش معك تحت سقف واحد ، مدة ، وقد تحدثنا

في أشياء كثيرة ، فان ثمة قضية واحدة جوهرية بالنسبة الي ، لم أستطع التصريح بها بعد . » وأضاف وهو يتصدى لنظرة المرأة الشابة تارة ، ويتحاشاها أخرى : « لقد قلت لي أمس بأني قد خلقت هنا من جديد ، والحقيقة هي أنني قد تغيرت في كثير من الوجوه ، انك تعلمين ذلك أكثر من أي شخص آخر ، انني مدين لك ، في الواقع ، بهذا التحول . »

« مدين لي ؟ كيف ... ؟ »

« لم أعد ذلك الشاب الطائش المغرور الذي كنته بالأمس . ولم أبلغ الثالثة والعشرين عبثاً . إنني عازم على أن أكون مفيداً ، أخدم الحقيقة بكل قواي ، ولكنني لن أنقب عن مثلي العليا حيث كنت أنقب عنها سابقاً . يخيل لي الآن أنني أكثر اقتراباً منها . ولم أستطع حتى الآن أن أفهم حقيقة نفسي ، لقد أخذت على نفسي واجبات تفوق ما أستطيع تحمله ... لقد تفتحت عيني أخيراً ، ويعود الفضل في ذلك الى شعور معين ... لست واضحاً في تفسيري كل الوضوح ، ولكن أومل أن تكوني قد فهمتي . »

فلم تجب ، ولكنها كفت عن النظر اليه .

وأردف يقول بصوت أكثر انفعالاً ، وكان فوق رأسه شحرور يغرد بين أوراق شجرة البتولا ، تغريداً ارتجالياً ، دون أن يبالي به : « انني أظن أن واجب كل رجل شريف أن يكون مخلصاً كل الاخلاص مع أولئك القريبين من قلبه ، ولهذا ... فقد عزمتم ... » ولكن بلاغته خائنه ، فارتبك وتلعثم ، ولم يكمل جملته ، اذ اضطر الى التوقف

لحظة . فلم ترفع كاتيا بصرها ، حتى ليخيل لرائيها أنها لم تفهم ما أراد أن يقول ، وأنها تنتظر تمة الحديث .

وعاد يقول بعد أن استحث قريحته : « أما اني سأبأغتك فأمر أعرفه مقدماً ، وان دهشتك ستزداد حين تعلمين بأن هذا الشعور الذي نوهت به ، يتعلق بك الى حد ما ... أجل الى حد ما . لقد لمتني أمس على عدم الاتزان كما تذكرين » . وكان يتكلم بهيئة رجل قد دخل مستنقعا ، وشعر بأنه سيزداد غوراً فيه في كل خطوة يخطوها ، ومع ذلك فهو يجد في التقدم مؤملاً أن يستل نفسه بصورة ما . واستمر يقول : « ان هذا اللوم يوجه للشبان ... للشبان عادة ، حتى ولو كانوا قد أصبحوا لا يستحقونه ... ولو كانت ثقتي بنفسي أعظم ... » ثم فكر وقد تملكه اليأس : « أعينيني . ناشدتك أن تعينيني . ولكن كاتيا لم تعرفه حتى مجرد التفاته . فقال : « لو استطعت أن أومل ... » ورن صوت انا سير جيفنا الصافي في اللحظة ذاتها قائلة : « لو استطعت أن أستيقن مما قلته لي . »

فصمت أركادي واعتري كاتيا الشحوب .

وكان وراء العوسج الذي يحجب الرواق درب تجتازه انا سير جيفنا صعبة بزاروف . فلم يرها لا كاتيا ولا أركادي ، ولكنهما سعا كل كلمة من كلماتهما ، بل وحتى حفيف ثوب انا ، وتنفسهما . وخطا المتجولان بضع خطوات ، ثم وقفا أمام الرواق تماماً ، كأنهما قد تعمدا ذلك . وعادت انا تقول : « إنا واهمان مغالطان . ألا ترى أننا قد جاوزنا

سن الشباب والغرور ، لقد عشنا طويلاً وأدركنا التعب والكلال .
و ... لماذا لا نعتزف بذلك ... لقد أصبحنا ندرك كثيراً من الأشياء .
لقد أثرت أنت اهتمامي أول الأمر ، كما أثرت اهتمامك ... فحصل تقارب
بين فضولينا ... وبعد ذلك ... »

« وبعد ذلك سئمت فضولك . »

« إنك تدري أن سبب سوء تفاهمنا غير ذلك . وأياً كان الأمر ،
فلم يكن أحدنا بحاجة الى الآخر ، وهذا هو سر القضية . لقد كان فينا
كثير من ... كيف أقول ؟ كثير من التجانس والتشابه ، ولكننا لم نفهمه
أول الأمر . أما أركادي فعلى العكس . »

فسأها بزاروف : « وهل أنت بحاجة اليه ؟ »

« حسبك يا أيفاجني فاسيليتش ، إنك تقول بأنني معنية به ، وقد
أخبرتني بأنني قد استهويته . انني ، بالنسبة له ، أصالح أن أكون عمته ،
ومع ذلك ... لا أخفي عنك ... إنني أفكر فيه كثيراً ، هذه الأيام .
ان في عواطفه كثيراً من الفتوة والطلاوة الجذابتين ... »

قال بزاروف بصوت خافت هادي ، « وتلك حالته عندما يريد أن
يسخر أشد السخرية : » (ان عبارة (الفتوة والطلاوة الساحرتين)
لتردد كثيراً في مثل هذه الحالات . لقد اصطنع الدهاء والكياسة أمس ،
فلم يحدثني ، لا عنك ، ولا عن أختك ، وتلك أعراض خطيرة . »

« انه لسكاتيا أخ ليس غير ، وهذا ما يسرني منه ، ولو أنني قد
أكون على خطأ بالسماح لهما بهذه الالفة . »

فقال بزاروف في هدوء : « إنك تتكلمين بعاطفة الأخت . »
« تماماً ... ولكن علام نحن واقفان هنا ؟ فلنكهل جولتنا ،
وما أغرب الحديث الذي كنا نخوض فيه ، أليس كذلك ؟ لم أكن
أعتقد أبداً بأن في مقدوري أن أتحدث معك على هذه الصورة . إنك
تعلم بأنني أخشاك ... ولكنني في الوقت ذاته أثق بك ، لعلمي بأنك
إنسان طيب ... »

« قبل كل شيء ، لست طيباً قطعاً ، وثانياً ، لست لك في شيء ،
بعد اليوم ، ومع ذلك فأنت تقولين بأنني طيب ... إن هذا يشبه أن
تضعي الكيليل من الأزهار على هامة ميت . »

فقالت اناسير جيغنا : « ايناجني فاسيليتش ، اننا لسنا مسؤولين ... »
ولكن هبة ريحٍ حركت الأوراق وذهبت بكلماتها .
وأتى صوت بزاروف بعد عدة لحظات : « أنت حرة طبعاً ... »
ولم يتميز بعد ذلك شيء من حديثهما ، فقد ابتعدت خطاها ... وعاد
كل شيء الى السكون .

فالتفت أركادي الى كاتيا ، وكانت ما تزال جالسة في نفس الوضع ،
سوى أن رأسها ازداد انحناءً .

قال أركادي ، ويدها مشبكتان وصوته يرتعد : « يا كاترين سير جيغنا ،
إنني أحبك حباً لا رجعة فيه ، مدى الحياة ، ولا أحب سواك في الدنيا .
لقد أردت أن أقول ذلك لك ، وأن أستطلع رأيك في الأمر ، وأن
أطلب يدك ، وأنا الآخر لست موسراً ، ولكنني مستعد لكافة

التضحيات .. مالك لا تجيبين ؟ ألا تثقين بي ؟ هل تتصورين بأنني غير جاد ؟ ولكن تذكرني هذه الأيام الأخيرة ، ألم تعلمي ، منذ وقت طويل ، أن ما عدا هذه العاطفة — هل تسمعين — أن كل ما عدا هذه العاطفة قد اختفى دون أن يترك أثراً . انظري الي . أجيبي بكلمة واحدة ... إنني أحبك ... نعم إنني أحبك ... بقي بي . »

فرفعت اليه عيني براقبين حادثين ، وبعد أن فكرت لحظة طويلة ، طافت على شفيتها ابتسامة خفيفة ، وسمعتها تقول : « نعم . »
فنهضت بقفزة واحدة وقال : « نعم ؟ أقلت نعم ؟ يا كاترين سيرجيفنا ، هل لي أن أفسر ذلك بأنك تعلمين بأنني أحبك ، وأنتك تؤمنين باخلاص كلماتي ... أو بالأحرى ... أو بالأحرى هل نعمة معنى لا أجراً على ذكره ؟ »

فقلت ثانية : « نعم . »
فلم يعد يخالجه الشك . فأمسك بيديها الكبيرتين البديعتين ، وقد خنقه الفرح ، فضمهما الى قلبه . وشعر بأن ساقه تنهاران تحته ، وأخذ يردد دون انقطاع : « كاتيا ، كاتيا » فابتسمت في حلاوة ودلال ، وسالت على وجهها دموع ، دموع بريئة . وان من لم يشاهد هذه الدموع في عيني من يحبه ، لا يعلم الى أي حد يكون الرجل سعيداً في الدنيا ، سعادة يمازجها الحجل والاعتراف بالجميل .

وفي ساعة مبكرة من غداة ذلك اليوم ، أرسلت أنا سيرجيفنا الى بزاروف ، ترجوه أن يأتي لرؤيتها في غرقها . وسلمته وهي تضحك

ضحكة مكبوتة ، ورقة مطوية . وكانت من أركادي يطلب بها يد أختها .
فسرح بزاروف نظره فيها ، وضغط على مشاعره ، ليعفي شعوراً
بفرح وتشف اضطرم في صدره بغتة .

وقال : « لم يمض أكثر من يوم منذ أخبرني بأنه يحب كاترين
سيرجيفنا حباً أخوياً . والآن مم أنت خائفة ؟ »

فأجابت ، وهي تضحك : « بم تشير علي ؟ »

فأجابها بزاروف ضاحكاً أيضاً ، ولو أنه كان بعيداً عن المرح مثلها ،
اذ لم يشعر برغبة في الضحك قط : « أعتقد أنه ينبغي عليك أن تمنحي
الصغيرين بركتك . والصفقة رابحة على كل حال ، فإن لكيسانوف ثروة
لا بأس بها ، وأركادي هو الابن الوحيد لأبيه . والأب رجل كريم ،
وسيوافق حتماً . »

فخطت أنا بضع خطوات ، وتناوب الاحمرار والشحوب على وجهها ،
ثم قالت : « هل ترى ذلك حسناً ؟ حسناً ، فليكن ، ولا مانع لدي .
لقد فرحت لهما ... وسأنتظر جواب أيه بطبيعة الحال . سوف يذهب
بنفسه ليأتي بالجواب . ألم يكن الحق معي حينما قلت لك أمس أننا قد
أصبحنا عجوزين ، أنا وأنت . ولكن كيف لم أر شيئاً بينهما ؟ ان هذا
شيء مدهش » وانفجرت ضاحكة ولكنها سرعان ما أدارت رأسها .

فقال بزاروف ضاحكاً بدوره : « ان شبيبة هذا اليوم مرده
شياطين . » وأضاف بعد لحظة من الصمت : « وداعاً ، وأتمنى لك أن
تمجزي هذا الأمر على أحسن صورة ، وسأفرح لذلك من بعيد . »

فالتفتت اليه فجأة وقالت : « لماذا لا تبقى (الآن) ؟ تلبث ... يلذنا
 أن نحادثك ... يخيل إلينا أننا نسير على حافة هوة . البداية تخيف ، ثم
 يعجب الانسان نفسه من جرأته ، حين يعتاد ذلك . ابق . »
 « أشكر لك دعوتك . وكذلك اطرائك لموهبتي في الحديث .
 ولكنني في عالم غير عالمي منذ زمن بعيد . ان الأسماك الطائرة تستطيع
 أن تحيا في الجو بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما تهبط الى الماء مرة
 أخرى ، فامحي لي بأن أغوص في عالمي ثانية وأسبح فيه . »
 فحدث وجهه المتقلص الشاحب المتعب ، ورأت ظل ابتسامة مريرة
 تطوف عليه . فقالت لنفسها : « لقد أحبني هذا الرجل » وأدركها العطف
 عليه ، فدت اليه يدها في حنان واشفاق ، ففهم كل ذلك وقال : « كلا »
 واندفع خطوة الى الوراء وأكمل : « انني فقير ، ولكنني لم أقبل
 الصدقة حتى الآن ، ولن أقبلها أبداً . وداعاً ، وأرجوك حظاً حسناً... »
 فقالت في نزوة طارئة : « انني متأكدة بأن لقاءنا هذا ليس
 الأخير . »

فأجابها بزاروف وهو ينحني مسلماً مبتسماً : « كل شيء جائز في
 هذا العالم . »

قال بزاروف وهو متربع أمام حقيبته ، يكبس فيها أمتعته : « لقد
 عزمت اذن على أن تبني لك عشاً ؟ وماذا بعد ؟ انها لفكرة حسنة .
 سوى أنك كنت مخطئاً في تجنب الصراحة . لقد كنت أظن أنك ستتنصرف
 تصرفاً آخر . ولعلك أنت الآخر قد عجبت من نفسك . »

فاجاب أركادي : « أنت مصيب ، فاكنت اقصد شيئاً من هذا عندما
 تركتك في مارينو ، ولكن لم تنكب أنت أيضاً سبل الصراحة قسمي
 عملي فكرة عظيمة ، وكأني لا أعرف رأيك في الزواج ؟ »
 « خيراً يا عزيزي ، تلك طريقي في الكلام كما تعلم ، ألا ترى
 ما أصنع ؟ لقد بقي محل فارغ في حقيقتي ، فوضعت فيه قشاً ، وهكذا
 يصنع الناس بحقيقة الحياة ، انهم يملأونها بشي ما ، لكي لا يبقى فيها
 فراغ ، ولكن لا تمتعض . لا عليك ، انك تتذكر أن رأيي كان حسناً
 دائماً في كاترين سيريغينا ، هنالك كثير من الفتيات يحسبن ذكيات لأنهن
 يستطعن التهد بعض الأحيان ، أما صاحبك فتعرف كيف تخفي هذا
 التهد ، وتبقى كاتمة سرها ، حتى تضمك تحت ابهامها ، ان ذلك شيء
 حسن لا مناص منه . » وأغلق حقيقته ونهض وقال : « والآن اكرر
 عليك قبل أن أرحل عنك بأن فراقنا سيكون أبدياً ، اذ ما جدوى أن
 يخادع أحدهنا الآخر ، ذلك ما تشعر به أنت أيضاً ... لقد تصرفت بحكمة ،
 انك لم تخلق لعيش موحش ، وحياة مقفرة قاحلة ، مثلنا ، ليس فيك
 تهور ، ولا تستطيع أن تكره ، ولكن فيك دالة الشباب ويرانه .
 وأنتم ، أيها النبلاء ، انكم لا تستطيعون الاستمرار الى ما وراء
 الاستسلام النبيل ، أو الاشمزاز الكريم ، وهذا ليس في الحقيقة شيئاً
 يذكر ، انكم لا تريدون القتال ، ومع ذلك تحسبون أنفسكم شجعاناً ،
 أما نحن فنريد أن نناضل ونصارع . ان عثير معاركنا سيملأ عيونكم ،
 وان وحول أقدامنا الراكضة ، ستلطخ ملابسكم . إنك لم تفصل على

طرازنا . إنك معجب بنفسك دون أن تشعر ، وتجد لذة في شتم نفسك ،
أما نحن ، فهذا هو مرضنا الملازم ، ونحن لا نريد سواه . نحن نريد أن
نقلب حياة الآخرين ، ونحطمهم . إنك ولدت رأسالياً ، ولكنك ستبقى
جنسلماناً وديعاً متحرراً ، كما اعتاد أن يقول والذي بالفرنسية . »

فقال أركادي في حزن : « ستركني الى الأبد . وهذا كل ما تستطيع
أن تقول لي . »

فهرش بزاروف عنقه وقال : « كلا ، يا أركادي ، كلا ، أستطيع أن
أضيف شيئاً آخر ، ولكنني أصرف النظر عنه ، اذ لا أحب العواطف
الخيالية ، فأذوب ذوبان السوائل . تزوج بأسرع ما يمكن ، وأسس
عشك ، وأنجب كثيراً من الأولاد ، وسيكون أولادك أرجح منك عقلاً ،
وأكثر اطلاعاً ، وليس ذلك إلا لأنهم سيولدون في زمن خير من زمنك ،
ومن زمني أيضاً . والآن أرى أن الجياد جاهزة ... فالى الأمام ...
هيا ماذا بقي ... العناق ؟ »

فارتدى أركادي على رقبة استاذه وصديقه القديم ، وتفجرت الدموع
من عينيه .

قال بزاروف في هدوء : « هذه هي حال الشبيبة ، ومن حسن
الحظ أن كاترين سيرجيفنا هنا ، فسوف تعرف كيف تواسيك ، وتنسيك
آلامك سريعاً . »

وأضاف قائلاً بعد أن استوى في مركبته : « وداعاً أيها الأخ »
ولفت نظره ، بإشارة من يده ، الى غرايين قد حطا فوق سطح الاصطبل ،

جنباً الى جنب . وأضاف قائلاً :

« انظر هذا درس لك ، عليك أن تحذو حذوها . »

فسأل أركادي : « ماذا تعني ؟ »

« كيف ؟ هل أنت ضعيف في علم التاريخ الطبيعي ؟ ألا تعلم أن الغراب من أشد الطيور تعلقاً بالأسرة ، واحتراماً لها ؟ هذا مثال يحتذى . وداعاً أيها السيد . » وابتعدت المركبة ، ومجلاتها تصر صريراً .

لقد نطق بزاروف بالحقيقة . فان أركادي نسي استاذة تماماً في المساء ، عندما تحدث مع كاتيا . وشرع بالخضوع لأوامرها ، وأدركت هي ذلك ، وما كان ذلك جديداً عليها . ان عليه أن يذهب الى مارينوليتداول مع أبيه . أما أنا سيرجيفنا فلم نشأ أن تضايق الشايين ، ومحافضة على آداب اللياقة فقط ، لم تدعهما وحيدين لمدة طويلة . وقد أبعدت بلطف الأميرة التي أهاجها الزواج المقبل ، حتى استدر الدموع من عينيها . وقد خشيت أنا سيرجيفنا ، في بادئ الأمر ، ألا تسر الأميرة عندما ترى الشايين سعيدين ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك ، فقد ابتهجت ، ولان فؤادها ، وهذا ما جعلها تغبظ هي أيضاً ، ولكنها اغتمت في الوقت ذاته . وفكرت : « لقد كان الحق مع بزاروف . لقد كان الأمر بيننا تطلعاً وفضولاً ، ولا نبي ، سوى التطلع والفضول ، وحب الراحة والآنانية ... »

ونادت بصوت مرتفع : « قولاً لي يا طفلي ، هل صحيح أن الحب عاطفة خيالية مصطنعة ؟ »

ولكن لم يفهم سؤالها ، لا كاتيا ولا أركادي . لقد خجلا
منها ، لقد كان يشغل فكريهما الحديث الذي سمعه دون رغبتهما ،
ولكنها أزالته مخاوفهما ، وما كان ذلك عسيراً فقد هدأت
هي نفسها أيضاً .

الفصل السابع والعشرون

أفرح وصول بزاروف المفاجي ، ، والديه العجوزين فرحاً عظيماً ،
اذ ما كانا يتوقعان قدومه . فكانت أرينا فلاسفينا تروح وتغدو في أنحاء
المنزل ، منهمكة كل الانهماك ، حتى لقد شبهها فاسيلي ايفانوفيتش بحجة ،
والواقع ان ذيل سترتها الصغيرة المرقوع أضفى عليها شهياً بالطيور .
واكتفى فاسيلي ايفانوفيتش بارسال أنعام متقطعة ، وهو يعرض على طرف
غليونه المصنوع من الكهرمان ، أو يحرك رقبتيه ويدير رأسه ليطمئن
بأنها لم تتحرك من محلها ، ثم ينفجر فجأة بضحكة مكتومة .

قال له ولده : « لقد جئت لقضاء ستة أسابيع على أقل تقدير ،
يا عجوزي ، وأؤمل ألا تضايقني . »

فأجاب أبوه : « سأجعلك تنسى حتى وجهي ، اذا كنت تعد رؤيتي
مضايقة . »

وقد برّ بوعده . فقد استقل بزاروف في مقصورته كما فعل أول مرة .
ولم يخفِ والد بزاروف نفسه فحسب ، بل انه منع زوجته من إظهار
حنانها الفياض اذ قال لها : « يا عزيزتي ، اني أعتقد بأننا قد أضجرتنا

أنيوشا عند مجيئه أول مرة ، ولكن الآن أكثر عقلاً . »

فوافقت على رأي زوجها ولكن ما ذا ربحت من ذلك ؟ ما كانت ترى ولدها إلا على الطعام ، وحتى حينذاك كانت تخشى أن توجه إليه كلمة . لقد كانت تشرع بعض الأحيان في القول : « انيوشكا . » فما يكاد يرفع بصره إليها حتى تتلعثم ، وتشد شرائط مئزرها قائلة : « لا شيء . لا شيء ... لا شيء . » ثم توجه الخطاب إلى فاسيلي ايضاً توفيتش ، فتقول له ، وقد أسندت خدها إلى راحتها : « لا أدري ما بهوى انيوشكا للغداء . أيفضل حساء الكرنوب ؟ أم لحم البقر مع الفجل ؟ » فيجيبها : « ولم لا تسأليه ؟ » فتقول : « خشية ان أضايقه . »

ولكن سرعان ما خرج بزاروف من عزلته ، بعد أن بردت حمى العمل ، فأخذ يشعر بضجر مظلم ، وبقلق أخرس . واصطبغت حركاته كلها بسأم غريب ، فتغير فيه كل شيء . حتى خطاه الثابتة المقدمة ، وترك الذهاب إلى المزرعة ، وشرع يبتعد عن الوحدة وينفد من يصطحبه . كان يتناول شايبه في الصلاة ويطوف في البستان بجانب فاسيلي ايضاً توفيتش ، ويدخن معه في سكوت بل لقد بلغ به الحال أن سأل عن أخبار الأب الكسيس ، وقد فرح فاسيلي ايضاً توفيتش بادی الأمر لهذا التحول ، ولكن فرحه لم يدم . فكان يشكو ، في صوت منخفض ، إلى زوجته قائلاً : « ان قلبي يتألم لانيوشا ، لأنه غير مرتاح ، أو لأن مزاجه سيء . — فهذا لاشيء . — بل لأنه حزين ، وهذا هو الأمر الفظيع . إنه صامت ، ولو كان يرعد

ويزجر ويتذمر لكان خيراً . إنه يضعف ويهزل ، ويفقد لونه ... »
فتنهده العجوز وتقول : « يا إلهي ، يا إلهي ، بودي أن أضع طلسماً
في عنقه ، ولكنه لا يدعني أفعّل ذلك أبداً . »

وقد حاول فاسيلي ايفانوفيتش ، عدة مرات ، وفي حذر لانهاية له ،
أن يسأل ابنه عن أعماله ، وعن صحته ، وعن أرКАДي ... ولكن
بزاروف كان يجيب بذهول وعدم اكتراث وتضايق . ولاحظ ذات يوم
أن أباه يريد أن يسحب أسرارده من أنفه — أن يستكنه سره —
خلصة ، فأجابه متبرماً : « إني أراك تدور حولي على قدميك . وهذه
الطريقة أسوأ من غيرها . » فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش بجدة : « على
رسلك ، على رسلك ، إنك تغالط نفسك . »

وهكذا لم تجد طرق الآب الدبلوماسيّة ، ولم تصب نجاحاً . وبينما
كان البحث يدور في أحد الأيام حول تحرير الفلاحين ، مدح التقديميّة ،
مؤملاً أن يجد هذا المدح صدًى عند ولده . ولكنه أجاب بعدم
اكتراث : « بينما كنت ماراً بالأمس في ساحة القرية ، اذ سمعت الصبيان ،
أولاد فلاحينا ، يزغقون بأغنية الشوارع المستذلة ، بدلاً من أغنياتهم
القديمة ، فكانوا يصبحون : (لقد طلع الفصل الذي يتفتح فيه القلب
للحب ...) هذا هو التقدم . »

كان ايفاجني يذهب الى القرية أحياناً ، وكان يهزل كعادته ، فيتحدث
مع أول فلاح يصادفه ، كأن يقول له : « تعال فاشرح لي طريقتك في
فهم الحياة ، بزعمون أنك قوة روسيا ومستقبلها ، وأنتك ستفتح عهداً

جديداً في تاريخنا ، وأنتك ستمنحنا لغتنا الأصلية وشرائعنا . ؟ »

فبصمت الفلاح أو يجيب بكلمات من هذا النوع : « إنني ... أعلم جيداً ... كما لو كنت أريد أن أقول ... ثم هنالك أشياء كثيرة ... »
ولكن بزاروف يقاطعه : « اشرح أولاً ما هو عالمك ؟ أهو قائم أيضاً على ثلاث سمكات ؟ »

فيجيب الفلاح بصوت أغن وبسذاجة ، وبما هو معروف عنه من خضوع للشعائر الكنسية : « الأرض هي التي تقوم على ثلاث سمكات . وفوقها تتحكم ارادة السيد ، إنكم أنتم آباؤنا ، وكلما اشتدت صرامة السيد ، صالحت حالة الفلاح . »

وحين يسمع بزاروف جواباً من هذا النوع ، يهز كتفيه باحتقار ، ويشيح عن الفلاح بوجهه ، ويتابع طريقه بهدوء .
وقد سأل الفلاح ، فلاح آخر متوسط السن ، عبوس الحياء ، وقد سمعه من عربته يتحدث مع بزاروف : « عم كان يحدثك ؟ أعني بقايا الديون ؟ »

فأجابه الأول : « عن البقايا ؟ هل تتصور ذلك يا صاحبي ؟ » وكان صوته الذي فقد غمسة الخضوع يفيض بالقسوة والاثمزاز ، ثم أردف : « تحدث عن لا شيء ، وتحدث لأن لسانه يأكله ان لم يتحدث . انه سيد وأنت تدري ما هو السيد . ان السادة سواء ، كلهم سواء . »
فأجاب الآخر : « أجل . » وبعد أن نفضا طاقتيهما ، وعدلا حزاميهما ، أخذوا بأطراف الحديث عن شؤونهما الخاصة .

وأأسفاه ، إن بزاروف هذا الذي يهزكتفيه باحتقار واثمراز ،
 والذي يحسن الكلام مع الفلاحين (كما كان يزهو بذلك خلال مناقشته
 مع بول بتروفيتش) بزاروف هذا الواثق كل الثقة بنفسه ، ما كان يدري
 أنه أصبح في نظر الفلاحين مهرجاً من المهرجين . وعلاوة على ذلك ، فقد
 انتهى بأن وجد ما يشغله . ففي أحد الأيام ضمد فاسيلي ايغانوفيتش
 أمامه ساق أحد الفلاحين ، وكانت يد الشيخ ترتعش . ولم يستطع شد
 العصائب ، فخنق ولده لمساعدته ، وأصبح من تلك اللحظة يعينه في عمله ،
 دون أن يكف عن السخرية بالأدوية التي يصفها هو بنفسه ، ومن أيه
 الذي يطبقها في الحال . ولكن تهكمه لم يكن ليضايق فاسيلي ايغانوفيتش ،
 بل كان على العكس يريحه ويفرحه . فكان يصغي مغتبطاً الى ايغانجي ،
 وهو ممسك بأصابعه رداءه القديم المسدل على بطنه ، مدخناً غليونه ،
 وكما ازدادت تندرات ولده شدة ، تفجرت قهقهات الشيخ فكشفت عن
 أسنانه السوداء كلها ، وازدادت سعادة ولين عريكة ، وكان يكرر تلك
 النوادر ، حتى ولو كانت ثقيلة خالية من المعنى والدوق السليم . وكان يعيد
 في كل مناسبة عبارة : « ليس هذا بالأمر المهم . » لسبب واحد ، هو
 أن ابنه استعمل هذا التعبير عندما رآه ذاهباً للصلاة ذات مساء ،
 وأسر الى زوجته قائلاً :

« حمداً لله ، لم تمد أفكاره سوداء ، ليتك تدرين كيف رفسني
 هذا اليوم . »

وفضلاً عن ذلك فإن مجرد وجود مساعد له من هذا النوع ، ملأه

زهواً وخيلاً . وقد يقول لفلاحة مسكينة ، مرتدية معطفاً بالياً ، ومعتمة
بطاقيّة ذات قرون ، وهو يعطيها قبينة من دواء سائل ، او قعباً من
مروخ نبت البابونج : « احمدي الله ، في كل لحظة ، على أن أرسل لي ولدي
الى هنا ، افقهي ذلك ، هو ذا أنت تعالجين بأحسن الطرق العلمية
الحديثة ، ان امبراطور فرنسا نفسه ، ما كان لديه طبيب خير منه »
فكانت الفلاحة ، التي أتت لتشكو من مرض اتابها ، دون أن تستطيع
تعبيراً واضحاً ، تنحني باحترام عميق ، وتتناول من حضنها أربع يعضات
ملفوفات في منشفة ، فتقدمها اجرة للعيادة .

لقد قلع بزاروف سنّاً لأحد الباعة المتجولين ، ومع أنه لم يكن في
هذه السن شيء غير اعتيادي ، فقد احتفظ بها فاسيلي ايفانوفيتش ،
كأنها شيء نادر ، وكان لا يمل من التكرار أمام الأب الكسيس :
« تأمل هذه العروق ، ما أقوى ايفاجني ، ليتك رأيت المريض وهو
يشب في الهواء ، اني أعتقد أن السنديانة نفسها لا تستطيع مقاومة
قبضته . »

فيقول الأب الكسيس في الختام ، وهو لا يدري كيف يتخلص من
هذا المهوس : « هذا أمر يستحق التقدير والاعجاب . »
وجلب أحد الفلاحين المجاورين لفاسيلي ذات يوم أخاه المصاب
بالتيفوس . وكان التاعس ميتاً ، مسجى على حزمة من القش ، تغطي
جسمه بقع كامدة . وادعى الأخ أنه قد فقد الوعي منذ مدة طويلة .
فأسف فاسيلي ايفانوفيتش لعدم الاستعانة بالطب قبل فوات الأوان ،





وصرح بأنه لم يبق ما يمكن عمله . لقد مات الفلاح في الطريق ووصل
جثة هامدة .

وبعد يومين أو ثلاثة ، دخل بزاروف على أبيه في مكتبه ، وسأله
إذا كان لديه قليل من نترات الفضة ؟

« نعم ، وما تريد أن تصنع بها ؟ »

« بي حاجة إليها . لدي جرح صغير أكويه . »

« ومن الجريح ؟ »

« أنا . »

« أنت ؟ كيف ؟ أين هذا الجرح ؟ أرنيه . »

« في يدي ، هاك فانظر . لقد ذهبت هذا الصباح الى القرية التي
جني ، منها بهذا الفلاح المصاب بالتيفوس ، وبالرغم من محاولة اخفاء الجثة ،
فقد نجحت في العثور عليها ، وما كنت قد مارست هذا العمل إلا من
فترة طويلة . »

« ثم ماذا ؟ »

« وكانت النتيجة أن جرحت نفسي ، ولما ذهبت لطبيب المركز
أطلب منه ما أبتغي ، وجدته لا يملك ما أريد . »

فشحب وجه فاسيلي ايفانوفيتش فجأة ، وهرع الى مكتبه دون أن
ينبس بكلمة ، وعاد في الحال بقطعة من نترات الفضة ، (حجر جهنم)
فأخذها بزاروف وخرج من الغرفة ، فتوصل اليه فاسيلي ايفانوفيتش
قائلاً : « أسألك بالله أن تدعني أساعدك . »

فابتسم بزاروف وقال : « ما أحب المهنة اليك ! »
« لا تمزح ، أرجوك . أرني اصبعك . ليس الجرح كبيراً . هل
أوجعتك ؟ »

« اعصر الجرح أكثر ، ولا تخف . »
فتوقف فاسيلي ايفانوفيتش وقال : « الأحسن أن نكويها بالحديد
المحمر ، ما رأيك ؟ »
« كان ينبغي اجراء ذلك قبلاً . ان الأمر الآن لا يستحق التعب ...
فاذا كنت قد أصبت ، فلا هذا ولا تترات الفضة تفيد ، اذ يكون قد
قضي الأمر ... »

فهمهم فاسيلي ايفانوفيتش : « كيف ؟ ... قضي الأمر ؟ ... »
« طبعاً ، لأنني جرحت منذ أكثر من أربع ساعات . »
وقال فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو ما يزال يطهر الجرح : « ألم يكن
لدى طبيب المركز تترات فضة اذن ؟ »
« كلا . »

« هل هذا ممكن ؟ كيف بحق السماء ، لا يكون عند الطبيب شيء ،
كهذا لا يمكن الاستغناء عنه ؟ »
فأجاب بزاروف : « لبتك رأيت مباضعه ! »
وظل فاسيلي ايفانوفيتش ذلك المساء ، وطول النهار الذي أعقبه ،
يخلق المناسبات ليجد ذريعة لدخول غرفة ولده ، وما كان يحدثه عن
جرحه ، ولا عن أي شيء ، يذكره به ، ولكنه كان يطيل النظر في عينيه

بعناد واصرار ، وكان يتفحصه بقلق عظيم ، حتى ضاق به ذرعاً ، وهدده بالرحيل . فوعده فاسيلي ايفانوفيتش ، حينئذ ، بأنه لن يقلقه ، خصوصاً وأن أرينا فلاسيفنا ، التي تجنب أن يخبرها بشي ، كانت تسأله دون انقطاع ، عما جرى له ، وما له لا ينام ؟ . وحبس نفسه في الدار خلال اليومين التاليين ، وكان وجه ابنه لا يبشر بالاطمئنان ، وكان يلاحظه خلسة . وعند الغداء ، في اليوم الثالث ، لم يستطع مغالبة نفسه لما وجد بزاروف مسبل الجفنين ، لا يأكل شيئاً .

فسأله أبوه ، هاشأباشاً : « لماذا لاتأكل شيئاً ؟ ان الأطعمة جيدة . »

« لا أستطيع ، اذ لا شهية لى للأكل . »

« أليس لك شهية ؟ » ثم أضاف باستحياء : « والرأس ؟ هل تشعر

بصداع ؟ »

« نعم ثم ماذا ؟ »

فاعتدت أرينا فلاسيفنا وأرهفت أذنيها ، وأردف فاسيلي ايفانوفيتش :

« لا تمتعض ، يا ايفاجني مما سأسألك اياه ، دعني أجس نبض رأسك . »

فنهض بزاروف وقال : « لست في حاجة الى ذلك ، حتى أعلم بأنني

مصاب بالحمى . »

« هل ترتجف ؟ »

« نعم ، وهات لي زيزفوناً ، فلعلي مصاب بالبرد . »

فقالت أرينا فلاسيفنا : « اذن فلهذا السبب سمعتك تسعل هذه الليلة ؟ »

فد بزاروف وهو يتعد : « لابد أنني قد أصبت بالبرد . »

وشرعت الام بتحضير التمام ، ومضى فاسيلي ايفانوفيتش الى الغرفة
المجاورة حيث بقي مدة طويلة ، حاملاً رأسه بين يديه ، لا يتحرك ،
ولا يتكلم .

ولزم بزاروف غرفته طوال النهار ، وأمضى الليل الطويل نصف نام
وهو في حالة مرعجة ، وفي الساعة الواحدة صباحاً فتح عينيه بجهد ،
ورأى على ضوء المصباح ، وجه أبيه الشاحب المنحني عليه ، فرجاه أن
ينسحب ، فأطاع الشيخ ، ولكنه سرعان ما عاد على أطراف أصابع
قدميه محاولاً إخفاء نفسه وراء الحزانة ، وعيناه لا تكفان عن النظر
الى وجه ابنه . أما أرينا فلا سيفنا فلم يغمض لها جفن هي الأخرى ،
وكانت تجي ، لتفتح الباب في كل لحظة باناة ورفق ، ولتنصت الى أنفاس
أنوشكا ، وتنظر الى زوجها . وما كانت تستطيع أن تميز سوى ظهره
الثابت المحدود قليلاً ، فتشعر اثر ذلك بالارتياح وتنفس عن كربها .
وفي الصباح حاول بزاروف أن ينهض ، ولكنه أصيب بدوار وتقصّد أنفه
دماً ، فتمدد مرة أخرى . وكان والده يساعده في سكون . ودخلت
أرينا الى غرفته ، وسألته عن صحته ، فأجابها بأنه « أحسن . » ثم
استدار صوب الحائط . وأشار فاسيلي ايفانوفيتش بكلتا يديه الى زوجته
أن تخرج . فصعدت بالامر وهي تمض على شفتيها لئلا تبكي . وبدأ فجأة ،
أن كل شيء في البيت يسبح في ظلام ، فقد اكتأبت الوجوه ، وخيم
سكون شامل في كل مكان ، وطرّد من البيت الى القرية ديك كثير الصياح ،
ظل يصيح مدة طويلة ، دون أن يدرك هول الفاجعة ، وظل بزاروف

مسجى في فراشه ووجهه صوب الحائط . وقد وجه فاسيلي ايفانوفيتش
اليه الكلام عدة مرات ، ولكن ذلك أتعب المريض ، فلزم العجز
جانب الصمت ، وجد في أريكته ، يترقع أصابعه بين حين وآخر . وكان
يخرج الى الحديقة أحياناً لقضاء بضع دقائق ، جامداً متوتراً ، حتى لتخاله
قد استحل الى تمثال ، من هول صدمة مفاجئة غامضة (ولم يفارق وجهه
تعبير الدهشة والبعثة) ثم يعود الى ولده منتبهاً لتجنب أسئلة زوجته .
وأفلحت هذه أخيراً بامساك ذراعه وقالت بصوت متقطع يحوي معنى التهديد
تقريباً : « ما خطبه ؟ » فأجهد نفسه محاولاً أن يتسم . وأذهله أن
يسمع انفجار قهقهات خرجت من صدره ، لقد أرسل منذ الصباح
لاحضار طبيب من المدينة ، وقال في نفسه ينبغي أن يخبر ولده لئلا يمتعض .
والتفت بزاروف الى أبيه فجأة ، وكان مسجى على الديوان ، والتقى
عليه نظرة غامضة ، وطلب شيئاً يشربه .

فقدم له فاسيلي ايفانوفيتش ماء ، واغتتمها فرصة ، فوضع يده على
جبينه ، فوجده يلهب .

قال بزاروف ببطء ، وبصوت أجش أبح : « يا شيخني ان الأمر على
أسوأ ما يرام ، ان العدوى قد وصلت اليّ ، وسوف تودعني الثرى بعد
بضعة أيام . »

فترنح فاسيلي ايفانوفيتش كما لو كانت ساقاه قد أصيبتا بضربة قاصمة ،
وتلثم وهو يقول : « صه يا ايفاجني إنها أفكار سوداء تراودك ...
لقد أصبت بالبرد ... »

ولكن ابنه قاطعه ، وقال دون تعجل : « على رسلك ، على رسلك »
ان هذا الكلام لا يقال لطبيب . انني أشعر بكل أعراض التسمم ، وأنت
تدري ذلك جيداً . »

« أعراض التسمم ... ولكن على مهلك ، يا ايفاجني . »
« اذن فما هذا ؟ » وتمر عن كم قيصه ، وأرى والده البقع الحمراء ،
وهي نذير شؤم ، تغطي جلده .

فارتعد فاسيلي ايفانوفيتش ، وأثلجه الرعب ، وقال أخيراً : « فلنسلم ...
وعلى فرض أن هذا شيء ، من هذا النوع ... من التسمم ؟ »
فقال بزاروف بشدة : « هذا المرض ، اسمه يايما »

« وما في ذلك ؟ انه نوع من المرض ، نوع من التسمم بالعدوى ؟ »
فردد ايفاجني بصوت واضح قاطع « يايما » . هل نسيت اذن
كتب الطب التي درست فيها ؟ »

« حسناً ، حسناً ، كما تشاء ... ولكننا سنشفيك ، مهما كان الأمر . »
« قل هذا لغيري . ولكن ليست القضية هي هذه . انني لم أكن
أنتظر هذا الموت المبكر . وهذا الحادث ، اذا أردت الحقيقة ، من
أسوأ الحوادث . أنت وأمي متدينان ، وها قد سنحت الفرصة لوضع
دينكما موضع اختبار . » وشرب جرعة من الماء « والآن أريد أن
أسألك أمراً ... ما دام رأسي يطاوعني . غداً أو بعد غد ، كما تعلم ،
سيبدأ دماغني يعطي اشارة التوقف عن عمله ... وكن متأكداً بأنني
سليم العقل حتى الآن . قبل لحظات رأيت كلاباً حمراء تجري حولي ،

وأنت تثيرها علي ، كما لو كنت ديكاً وحشياً ، وهذه الأخيلة تشبه أخيلة
سكران . هل تفهم ما أقول ، علي الأقل ؟ »

« ولكنك يا ايفاجني ، تنكلم بصورة اعتيادية تماماً . »
« حسن جداً ، لقد أخبرتني بأنك أرسلت تطلب طبيباً ... فليكن
ذلك ، مادام يسرك ... والآن ، امنحني سروراً مقابل ذلك ، وارسل
في طلب شخص آخر . »

فسأل الشيخ باستعجال : « أركادي نيقولا يافيتش ؟ »
فسأله بزاروف ، وقد لاح كأنه يسذل جهده ليتذكر : « أي
أركادي نيقولا يافيتش ؟ آه ، نعم ... هذا الفتى الجاهل الأحمق ، كلا ،
دعه مطمئناً ، فهو الآن غراب ، لا تفتح عينيك دهشة ، فلم يبدأ دور
الهديان حتى الآن . ابعث رسولا إلى انا سيرجيفنا اودينيتسوف ، وهي
احدى ملاكات الأراضي المجاورة ... لعلك تعرفها ؟ (فأوماً فاسيلي
ايفانوفيتش أن نعم) وليقل لها الرسول ان ايفاجني بزاروف يحبك ،
ويخبرك بأنه يحضر . هل أستطيع أن أعتد عليك ؟ »
« سينفذ أمرك . ولكن هل من الممكن أن تموت ؟ أنت ؟ »

ايفاجني ... فكر قليلاً : اذن فأين العدل السماوي ؟
« لا أعرف عن هذا العدل شيئاً ، ولكن ابعث الرسول علي الفور . »
« سأسرع بذلك هذه اللحظة ، وسأكتب الرسالة بنفسني . »

« كلا ، فهذا لا يجدي ، فليقل لها بأنني أحبها ، فهذا كافٍ . والآن ،
فلأعد الى كلابي . عجيب غريب .. اريد أن أفكر في الموت ، وليس

لدي ما أعمله ، أرى نوعاً من البقع ، وهذا كل شيء . »

واستدار في تناقل صوب الحائط ، وخرج فاسيلي ايفانوفيتش من الغرفة ، ودخل غرفة زوجته ، وركع أمام الأيقونات ، وقال بصوت منتحب : « صلي يا أرينا صلي ، ان ولدنا يحتضر . »

وصل طبيب المركز وهو الطبيب الذي لم يستطع اسعاف بزاروف بمظهر ، نفسه ، ففحص المريض ، وأشار عليه بالانتظار ، وتكلم عن الشفاء المحتمل ، كالعادة ، فسأله بزاروف : « هل سبق لك أن رأيت أناساً في مثل حالتي لم يرحلوا الى الجحيم ؟ » وقبض بغتة على إحدى قوائم مائدة ثقيلة ، كانت قريبة من الديوان ، فhezها ثم دفعها ، وقال : « نعم ، انني ما أزال محتفظاً بقوتي ، ومع ذلك فأنا أعلم بأنه لا مناص لي من أن أموت ... ان لدى الشيخ ، من الوقت الذي عاشه ، ما يكفيه للافلاخ عن عادة حب الحياة ... أما أنا ... فلاأحاول أن أكره الموت وأنكره ! » وأضاف بعد صمت قصير : « انه هو الذي ينكرني ، وهذا كل ما في الأمر ... من الباكي ؟ أهـي أمي ؟ يا للمرأة المسكينة ! لمن ستطعم الحساء المشهور ، وأنت أيضاً ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، أرى أنك تنشج أيضاً ، اذا كانت المسيحية لا تستطيع أن تمنحك عوناً ، فكن فيلسوفاً ، تذكر الرواقيين ، أظنك كنت تتباهى بكونك فيلسوفاً ؟ »

فصرخ الأب الشيخ : « أنا فيلسوف ؟ » وسالت دموع كبيرة على خديه .

كانت حالة بزاروف تسير من سيء الى أسوأ ، وكانت امارات الشر

سريعة ، كما يحدث أغلب الأحيان ، في حالات تسمم الجروح . كان
 مالكا قواه ، يفهم كل ما يقال له ، وكان ما يزال يصارع . وقد كرر
 بصوت منخفض ، وهو يشد بقبضته : « لا أريد أن أهذي فالهذيان غاية
 في الحيوانية . » وبعد لحظات ، سمع وهو يقول : « كم يساوي ثمانية
 ناقصاً عشرة ؟ » وكان فاسيلي ايفانوفيتش يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ،
 كأنه مجنون ، وهو يقترح دواءً ثم آخر ، وكان يغطي قدمي ولده في كل
 لحظة وكان يردد ، وهو طائر اللب « ... غطاء رطب ... مقيء ... لزقة
 خردل على المعدة ... فصاد ... » وكان الطبيب ، الذي التمس منه أن يبقى ،
 يستحسن كل شيء . وقد وصف للمريض شراب الليمون ، وكان يطلب
 لنفسه غليوناً ، تارة ، ومقويّاً أو مدقناً تارة أخرى ، ويعني بهذين القودكا ،
 وبقيت أرينا فلا سيفنا جالسة قرب الباب ، لا تبرحه ، إلا أحياناً ، لأجل
 أن تصلي . لقد سقطت مرآتها من يدها ، قبل بضعة أيام ، فنحطمت ،
 فاعتبرت ذلك نذير شؤم . ولم تجد انفيسوشكا ما تقوله لها لتعيد الظمأ نينة
 الى قلبها . ورحل تيموفيتش برسالة المختصر الى أنا سيرجيفنا .

كانت الليلة شراً على بزاروف ... فقد افترسته الحمى . وقبل الصباح
 شعر بأنه قد تحسن . فدعا أمه لتسريح شعره ، وقبل يدها ، وشرب
 جرعة من الشاي . وعاودت الشجاعة فاسيلي ايفانوفيتش قليلاً ، فصار
 يكرر معلناً : « الحمد لله ، لقد حلت الأزمة ... حلت الأزمة ... »

فقال بزاروف : « آه ، يا لخصائص الكلمات ، لقد قلت (حلت الأزمة)
 بها أنت فرح بذلك . وما أعجب فعل الكلمات في الناس ، اذا قيل

للإنسان انك بليد دون أن يضرب فسيؤلمه ذلك كثيراً ، فإذا ما اطريت عقله ، حتى ولو لم تعطه درهماً ، فهو سعيد . »

أعاد هذا الخطاب الصغير الى فاسيلي ايفانوفيتش ذكرى نزوات ابنه ، حينما كان في تمام صحته ، فغمره الحنان ، وملاته الرقة ، وهتف وهو يضرب يداً بيد : « مرحى ، ما أحسن ما تقول ، مرحى مرحى . »
فابتسم بزاروف ابتسامة حزينة ، وسأل أباه : « ما رأيك الحاسم في هذه القضية ، هل مضت الأزيمة ؟ أم هي قد بدأت ؟ »
فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش : « انك تشعر بتحسن في صحتك ، وهذا ما أراه فيبهجني . »

« حسناً ، حسناً جداً ، الخير كل الخير في أن يتهيج الإنسان دائماً ، ولكن هل أرسلت ... لمن تعرف ... »
« نعم بالتأكيد . »

لم يدم الخير طويلاً . وعادت التوبة سيرتها الأولى ، فما عاد فاسيلي ايفانوفيتش يفارق ولده ، وظهر أن قلقاً غريباً ، أخذ يخامر الشيخ ويعذبه ، وقد أوشك أن يتكلم عدة مرات دون جدوى ، ولكنه عزم على الكلام أخيراً فقال : « ايفاجني ، يا ولدي ، يا عزيزي ، يا ولدي الكريم . »

ففعل هذا النداء غير المنتظر فعله في بزاروف ... فأدار رأسه قليلاً ، وكان يبذل مجهوداً ظاهراً في طرح حمل ثقیل عن كاهل دماغه ، وقال : « من ؟ أبي ؟ »

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يركع بجانبه ، وثوأن بزاروف ظل
مغمض العينين لا يرى شيئاً : « ايفاجني ، ايفاجني ، انك تشعر بتحسن
في صحتك ، وعسى أن يشفيك الاله المعين ... ولكن استفد من هذه
اللحظة ، اصنع ذلك لأجل أمك ، ولأجلي-أنا ، قم بواجبك ، بوصفك
مسيحياً ، وعزيرك علي أن أحدثك أنا بهذه الصورة ، يا للفظاعة ...
ولكن الافطع من ذلك ... أن هذا سيكون آخر كلامي لك ، ف فكر
يا ايفاجني ، بأن ... » وتحطم صوت الشيخ .

وشاع رويداً رويداً على وجه الابن تعبير غريب ، وظلت عيناه
مغمضتين ، وقال أخيراً : « اذا كان ذلك يسرك فاني أوافق عليه ،
ولكن لا أرى داعياً للعجلة . انك نفسك تقول بأن صحتي في تحسن . »
« نعم ان صحتك في تحسن . ولكن من يدري ؟ ان مكر الله لا يسبر
له غور . وحينما تكون قد أتممت واجبك ... »

فقاطعه بزاروف : « سأنتظر ، انني أرى ، كما ترى ، بأن الأزيمة
قد بدأت ، فاذا ما كنا واهمين ، فبرحى لنا ! ان الانسان يمنح الغفران
للمرضى حين يفقدون وعيهم ... فكيف بالله . »

« باسم السماء ، يا ايفاجني ... »

« سنتنظر ، أما الآن فأريد أن أنام ، دعني ... » وأسند رأسه الى
الخذة مرة أخرى .

فنهض الشيخ ، وجلس على أريكة ، وذقنه في يده ، وكان يعض
على أصابعه ...

وطرقت سمعه فجأة قرقة مركبة صغيرة ، تلك القرقة التي تسمع بسهولة في الريف ، واقتربت العجلات الخفيفة ، وسمع صهيل الخيول . . . فترك فاسيلي ايفانوفيتش أريكتسه ، وأسرع الى الشباك . ودخلت الى صحن الدار مركبة ذات مقعدين ، تجرها أربعة جياد . فانطلق الى الباب ، دون أن يسأل نفسه عن القادم ، في غمرة من الفرح المفاجئ . . . وفتح البوابة خادم في بزته الخاصة ، ونزلت منها امرأة ترتدي لباساً موشى بشرائط بيضاء ، وعلى وجهها برقع أسود .

قالت : « أنا انا سيرجيفنا اودينتسوف . أما يزال ايفاجني فاسيليتش في قيد الحياة ؟ هل أنت أبوه ؟ لقد جئت بطبيب . » فهتف فاسيلي ايفانوفيتش : « بورك فيك . » وقبض على يدها ، ورفعها الى شفطيه بحركة تشنجية ، على حين خرج الدكتور من المركبة مستعجلاً ، وهو رجل قبيح ، على عينيه نظارتان ، ويستدل بالنظر الى سحنته ، بأنه ألماني . وأجاب الأب : « ما يزال حياً ، ما يزال ولدي ايفاجني حياً ، والآن سوف ينجو ، أيتها السيدة ، أيتها المرأة ، انك ملاك هبط من السماء . . . » وقالت العجوز المسكينة متلعثمة ، وهي تجري من الصالة الى غرفة الانتظار ، دون أن تفهم شيئاً : « ما الخبر ، يا الهي . » وارتمت على قدمي انا سيرجيفنا ، وشرعت في تقبيل نهاية ثوبها ، كالجنونة .

فقالت أنا سيرجيفنا محتجة : « ماذا تفعلين ، انهضي . » ولكن أرينا لم تصغ اليها ، وردد فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات : « ملاك ، ملاك . . . »

وسأل الطبيب أخيراً ، وقد عيل صبره : « أين المريض ؟ »
فأعادت هذه الكلمات فاسيلي ايفانوفيتش الى عالم الواقع فقال :
« تفضل ، واتبعني من هنا . وكرر القول بالألمانية كما اعتاد في الماضي ،
فقال الألماني وهو يتسم ابتسامة مرة : « آه . »
وأدخله فاسيلي ايفانوفيتش الى غرفة المريض ، وهمس في أذن ولده :
« هذا طبيب من قبل أنا سيرجيفنا . »

ففتح بزاروف عينيه بغتة ، وقال : « ماذا تقول ؟ »
« أقول ان أنا سيرجيفنا هنا وقد أتت بهذ الدكتور معها ليراك . »
فأجال بزاروف نظراته حوله وقال : « أهى هنا ؟ أريد أن
أراها . . . »

« سترأها يا ايفاجني ، ولكن عليك أن تتحدث الى السيد الدكتور
قليلاً ، سأقص عليه قصة المرض بكاملها ، مادام سيدور سيدوريتش (وهذا
اسم طبيب المركز) غير موجود ، وسن عقد بعد ذلك مجلساً صغيراً مشتركاً . »
فنظر بزاروف الى الألماني وقال : « حسناً ، اسرع ، ولكن
لا تتكلم باللاتينية ، لأنني أفقه ما تقول . »

فقال تلميذ (اسكولاب) الجديد بالألمانية ، وهو يلتفت الى الشيخ :
« سيدي يبدو . . . »

فقدم الشيخ : « الأفضل أن تتكلم بالروسية . »
فأجاب الآخر : « أهكذا . . . حسناً اذن . . . »
وابتدأت المداولة ، وبعد نصف ساعة دخلت أنا سيرجيفنا الغرفة

بدء رها ، صحبة فاسيلي ايفانوفيتش . فهمس الدكتور في اذنها بأن
لا أمل في الشفاء مطلقاً .

ووقفت قرب الباب ، ونظرت الى بزاروف مصعوقة مذهولة ، أمام
ذلك الوجه الملتهب ، وجه رجل على وشك الموت . كانت عيناه الزائعتان
تحدجانها ، فاعتراها خوف ثقيل مثلج ، وفكرت لحظة : « لو كنت
قد أحبيته لشعرت شعوراً آخر . »

وقال بزاروف في جهد : « شكراً ، هذا أكثر مما كنت أؤمل .
انه عمل كريم . اذن فقد التقينا ، كما تنبأت من قبل . » وتحركت الشفقة
في قلب أنا سيرجيفنا « دعنا يا أبي ... هل توافقين يا أنا سيرجيفنا ؟ انني
شخص لا يخشى منه الآن .. » وأشار ، بحركة خفيفة من رأسه ، الى
جسمه الممدد النحيل . وانسحب فاسيلي ايفانوفيتش ، وكرر بزاروف :
« شكراً . انه لجميل منك . يقال ان الملائكة يجيئون هكذا الى وسائد
المحتضرين . »

« يا ايفاجني فاسيليتش ، أؤمل ... »

« كلا يا أنا سيرجيفنا ، فلنتدبر بالشجاعة ، وننظر الى الحقيقة في
وجهها . أما بالنسبة الي فقد انقضى كل شيء . لقد سقطت تحت العجلة
فلا داعي للتفكير بالمستقبل . الموت قديم جداً ، ولكنه جديد بالنسبة
لكل انسان . انه لم يخفني الآن ... وعن قريب سأفقد وعيي ، فأقول
لك عمي مساء ، وطابت ليامتك (وحرك يده حركة ضعيفة .) ماذا
أقول لك ؟ ... أقول انني أحبيتك ؟ ولكن ما كان لذلك معنى في

السابق ، وسوف لا يكون له معنى الآن . الحب أمر شكلي ، انني
سأضمحل عن قريب ، وأتلاشى . الأحسن أن أقول لك ... بأنك
جميلة ، ما أجملك وأنت منتصبه أمامي هكذا ... » فلم تستطع أن تمنع
ارتداشة سرت في جسمها . « لا تقلقي ... اجلسي هناك ... لا تقتربي
مني ، فإن مرضي معد . »

فاخترقت الغرفة بسرعة ، وجلست على الأريكة ، قريباً من الديوان
الذي كان مسجى عليه .

فهمهم : « ما أطيبك ... قريبة مني كل القرب ، وما أسماك ...
يا فعة ، غضة طرية نقية ... في هذه الغرفة الحبيثة ... هيا وداعاً ،
عيشي طويلاً ، فالحياة ما تزال أحسن الأشياء ، تتمعي بالحياة قبل فوات
الأوان . انظري ، انظري هل هناك أقبح من دودة نصف مسحوقة ،
تنلوي وتنحوي . لقد قلت لنفسي ، سأعمل ليل نهار ، أأموت أنا ؟ ان
لي رسالة لا بد أن أؤديها ، انني عملاق ، ولكن لم يعد للعمالق في هذه
الساعة إلا أن يموت باحتشام ولياقة ، ولو أن الناس كلهم سيستخرون منه ،
اليس كذلك ؟ ... لا بأس ولن تخور عزيمتي . » وسكت ماداً يده
منحنياً متحريراً عن كأس الماء . فسقته أنا سيرجيفنا ، ولم تكن قد
نزعزت قفازيها ، وكانت تخشى أن تتنفس ، وأردف : « سوف تنسينني ،
فالأموات ليسوا في حساب الأحياء . » سيقول لك أبي : (أي رجل
فقدت روسيا بفقده !) هذا كلام باطل ، ولكن لا تنزعني من الشيخ
أوهامه . دعيه يقول ما يريد ، وكوني رؤوفة بأمي أيضاً . لن تجدي

أناساً أطيب منهما ، في دنياك العظيمة ، ولو قتشت في وضح النهار ،
ومصباحك بيدك . هل كانت روسيا ، حقيقة بحاجة الي ... يبدو أنه
لا . ان الناس يحتاجون الى نوع آخر من الرجال ، يحتاج الناس الى
أسكافي ، يحتاجون الى خياط ، يحتاجون الى قصاب ... لأنه يبيع
اللحم ... قصاب ... انتظري ، انني أهذي ... هناك غابة ... »

رفع بزاروف يده الى جبينه ، ومالت أنا سيرجيفنا عليه قائلة :
« يا ايفاجني فاسيليتش ، انني قرية منك ... »

فسحب يده واستوى فجأة ، وقال في قوة مفاجئة : « وداعاً . »
والتمت عيناه للمرة الأخيرة وهتف : « وداعاً ... اصغي ... لم أعانقك
في ذلك اليوم ... اطفئ المصباح ... تماماً ... »

ووضعت شفتيها على جبين المحتضر : « فهمس » قضي الأمر ، وها
هي الظلمات ... » وسقط رأسه على الوسادة .

فخرجت أنا سيرجيفنا بهدوء ، فسألها فاسيلي ايفانوفيتش بصوت
خفيض : « خيراً ؟ »

فأجابته متحسرة : « لقد هجع . »

أجل لن يستيقظ بزاروف بعد الآن ، لقد فقد وعيه عند المساء تماماً ،
ومات في غداة اليوم . وقام الأب الكسيس بالمراسيم الأخيرة ، وعندما
دهن صدره بالزيت فتح بزاروف إحدى عينيه ، فتصور القوم أنه عندما
رأى القسيس بلباسه الكهنوتي ، ومبخرته الداخنة ، وشموعه المتقدة ،
أمام الايقونات ، سرى في وجهه الأصفر الشاحب ما يشبه الرعدة

والنزع . وأخيراً حينما لفظ النفس الأخير ، وضع البيت بالبكاء
والنحيب ، انفجر فاسيلي ايف نوفيتش على حين فجأة ، وصرخ بصوت
أجش ، ووجهه ملتهب ، وهو يتلوى من الألم ، وقبضته مرفوعة نحو
السما : « لقد قلت له بأنني سأثور على السماء ، وها أنذا أثور ، وأثور... »
ولكن أرينا فلاسيفنا ترامت على رقبتة تباليها بالدموع . فركع
الاثنتان معاً جنباً الى جنب ، وقد روت انفيسوشكا في غرفة الخدم ،
فيما بعد : « هنالك ركعا معاً جنباً الى جنب وقد تدلى رأسها على صدريهما
كرأسي حملين وقت الظهيرة . »

.....

ولكن الظهيرة تمضي بمرها ، ويأتي المساء ، ثم يعقبه الليل بسكونه
ودعته ، فينام الناصبون والمتعبون كافة ، نوماً هنيئاً ، وادعاً .

الفصل الثامن والعشرون

واقضت ستة أشهر ، وكان الشتاء الأبيض قد عاد ، مصحوباً بسكونه الذي لا يسر له غور ، سكون الأيام الجليدية الناصعة ، العميق ، بثلجه الكثيف الذي ينهار تحت الأقدام ، وجدده الوردي على الأشجار ، وسمائه اللازوردية الشاحبة ، والدخان الذي يتلاشى فلولاً فوق المداخل ، ونفحات البخار الخارجة من الأبواب لحظة تفتح ، وأوجه العابرين الفضة الحمراء وقد قرصها البرد ، والحيل العجلى تحب وقد أخذها سعار العدو والركض . وكان الألوان كانوا الثاني ، وكان النهار قد انتهى والشمس قد غابت ، وكان قرص برد المساء قد بلغ منتهاه في ذلك الهواء الجامد الكثيف ، وكان شفق المغيب الدامي قد انطفأ في السماء .

كانت التوافد في مارينو مضاعة ، وكان بروكوفيتش يرتدي رداء رسمياً أسود وقفازين أبيضين ، وهو يعد مائدة لسبعة أنفار ، وقد بدت عليه علام الجذ و امارات الوقار أكثر من أي وقت مضى . وكان قد جرى قبل اسبوع احتفال بزيجتين في الكنيسة الصغيرة — وقد حدث ذلك بدون ضجيج ، وبلا شهود على وجه التقريب — تزوج أركادي

كاتيا ، وبني نيقولاي بتروفيتش بينجكا . أما الآن فقد أولم نيقولاي
بتروفيتش ولية وداعية لأخيه الذي أزمع السفر الى موسكو في بعض
أعماله . وأما أنا سيرجيفنا التي أغدقت على الزوجين كرمها ، فقد سافرت
هي أيضاً الى العاصمة القديمة فور انتهاء الزواج . وفي الساعة الثامنة تماماً ،
كان جميع المدعوين محيطين بالمائدة ، ومن ضمنهم ميتيا الصغير ومرييته ،
التي كانت قد عقصت شعر رأسها ، فلاح كالتاج وعليه غطاء حريري
مرصع بالذهب ، وتوسط بول بتروفيتش بين كاتيا وبينجكا ، وأخذ
الزوجان مجلسهما بجانب زوجتيهما . لقد انتاب هؤلاء جميعاً تغير خلال
هذه الأشهر القليلة ، فكأنهم قد انتعشوا ، وازدادوا نضارة ونضوجاً .
وكان بول بتروفيتش الوحيد الذي نخره الهزال ، ولكن ذلك زاد
ملاحظته ميزة على ميزاتها ، وجعل هيئته أكثر سطوة وعظمة . أما بينجكا
فقد أصبحت امرأة أخرى ، فكانت تحافظ على رصانة محترمة ، وهي في
ردائها الحريري الجديد ، وغطاء رأسها المحملي الواسع ، وسلسلتها الذهبية
حول عنقها . لقد كانت تسبغ وقاراً على نفسها ، وعلى كل من يحيط بها —
وكأنها حينها تفتت ضاحكة تقول معتذرة : « معذرة ، العفو ، ليس الذنب
ذنبى » وما كانت وحدها التي تضحك ، فقد كان الجميع يضحكون ،
وكانهم يطلبون العفو أيضاً . انهم يشعرون بشيء من الاضطراب
والحزن ، ولكنهم في الحقيقة سعداء . كان كل واحد منهم مغمماً بشعور
لطيف ، فكأنهم قد عقدوا خناصرهم على أن يمثلوا دوراً هزلياً ساذجاً .
وكانت كاتيا أكثرهم انشراقاً وصفاءً . فكانت ترمق ما حولها بهدوء

مبعثه الثقة ، وكان من السهولة بمكان أن يرى الملاحظ أن نيتقولاى
بتروفيتش كان يعبدها . وقبل الانتهاء من الطعام بقليل ، رفع كأسه ،
وتوجه الى بول بتروفيتش ، وأنشأ يقول : « انك سوف تفارقنا ...
تفارقنا أيها الأخ العزيز ، ولكن لمدة قصيرة ، ولا يسعني بالرغم من
ذلك ، إلا أن أقول لك بأني ... بأننا ... كم أنا ... كم نحن ... ان من
أشد مصائبنا أن لا نحسن الخطابة . هيا أنت يا أركادي ، هيا تسكلم . »
« أوه ، كلا يا أبي ، لست مستعداً . »

« وأنا ؟ هل أنا مستعد ؟ » والتفت الى أخيه قائلاً : « اذن سوف
أقول لك بكل بساطة ، اسمح لي بمعاتنك ، وبأن أقدم لك تمنياتي
الطيبة . وأرجوك بصورة خاصة ، أن تعود بأسرع ما يمكن . »
عائق بول بتروفيتش جميع الحاضرين دون أن ينسى ميتيا ، بطبيعة
الحال ، وقبل علاوة على ذلك يدنينجكا ، التي ما كانت تعرف حتى ذلك
الحين كيف تمد يدها ، مدأ جيداً ، للتقبيل ، وقال وهو يكرع كأسه
ويزفر زفرة عظيمة :

« أي أصدقائي ، أتمنى لكم السعادة ، ووداعاً » ولفظ كلمة وداعاً
بالانكليزية ، فمرت هذه الكلمة الانكليزية دون أن يهتم بها أحد ،
ولكنهم كانوا قد تأثروا بها جميعاً .

وهست كاتيا في اذن أركادي ، وقرعت كأسها بكأسه قائلة : « نخب
ذكرى بزاروف » فشد على يدها ، ولكنه لم يستطع أن يشرب النخب .
ويلوح لي أن القصة قد شارفت نهايتها . ولكن ربما يود بعض القراء

أن يعرف ما آل إليه أمر أبطال هذه القصة . وها أنا مستعدون لاشباع
رغبة هؤلاء .

تزوجت أنا سرجيفنا حديثاً في موسكو ، زواجاً لا عن غرام ، بل
عن تعقل وروية . تزوجت رجلاً من زعماء روسيا المقبلين ، هو مشرع
ذكي ، ذو عقلية عملية قوية ، واردة خارقة ، وبلاغة ممتازة ، ما يزال
في شرخ الشباب ، ولكنه بارد برودة الثلج . وها يعيشان في وفاق
تام ، وربما سيعرفان السعادة في المستقبل ، ومن يدري ؟ بل ربما
سيذوقان الحب نفسه .

أما الأميرة فقد قضت نحبها ، وقد عفى عليها النسيان من يوم وفاتها .
أما آل كيرسانوف الأب والابن ، فهما يقيمان في مارينو ، وقد أخذت
أعمالهما تسير على ما يرام . فأركادي يتدفق حماسة وحيوية ، وتدر عليه
المزرعة ريعاً حسناً ، وأما نيقولاى بتروفيتش فقد عين وسيطاً من أولئك
الذين انتخبوا لتنفيذ تحرير الفلاحين ، فتراه في كل أنحاء المقاطعة يخطب خطباً
طويلة (اذ من رأيه أنه يجب البرهنة للفلاح ، وبعبارة أخرى يجب أن
نكرر عليه ونعيد الأقوال ذاتها ، حتى نجعله مجنوناً بها لا يتصور غيرها)
ولكن إذا أردنا الحقيقة فانه لم يرض أحداً ، لا السادة المثقفين النبلاء
الذين يتكلمون أحياناً بنشاط وحماسة ، وأحياناً بكآبة ، عن كلمة
التحرير ، التي يلفظونها كما لو كانت كلمة فرنسية ، ولا السادة غير المثقفين
الذين لا يتحرجون عن لعن هذه الكلمة المسماة (تحريراً) وهؤلاء
وأولئك يرونه رجلاً رخواً مائعاً . وولد لكاترين سرجيفنا ولد واحد

أمته كوليا ، وها هو ميتيا يحب جذلان فرحاً من الصباح الى المساء ،
يملاً البيت بثرثرته المرحية . أما نينجكا ، أو كما صارت تسمى ، فيودوسيا
تقولاي فنا فكانت لا تحب أحداً بعد زوجها ، ابناً ، بقدر ما تحب كتبها .
وعندما تجلس هذه الى البيانو ، فانها مستعدة لأن تمكث لتسمعها نهراً
كاملاً ، وهي جالسة الى جانبها . ولنقل كلمة عن بيتر ، انه ما برح ثقيل
الظل والفهم ، بل وزاد في ذلك ، وأما أنا نيته وتباهيه بنفسه ، فقد طغيا
عليه أكثر من أي وقت مضى ، وما زال يرطن بالألفاظ الفرنسية ويفلظ
فيها . وقد تزوج هو أيضاً ، تزوج بابنة بائع مخضرات من أهل المدينة ،
وقد أته يباينة عظيمة ، ورفضت هذه العروس خاطبين آخرين لأنهما
لا يملكان ساعة يد ، على حين ان بيتر ، لا يملك هذه الساعة فحسب ،
بل لديه أحذية نظيفة ملمعة ايضاً .

وفي درسدن ، على سطح بروهل ، تصادف بين الثانية والرابعة —
في أوقات النزهة — رجلاً في العقد الخامس من عمره ، وقد ابيض
شارباه ، يظهر وكأنه يتألم من النقرس ، وما برح جميلاً ، وهو في ثياب
أنيقة ، وعليه ذلك الطابع الذي يبدو على عليه القوم وسراهم . انه
بول بتروفيتش . لقد غادر موسكو ، وذهب للاستشفاء في الخارج ، وأقام
في درسدن ، حيث يخالط الانكليز بصورة خاصة ، والروس العابرين .
أما مع الانكليز فكانت أساليبه بسيطة ، تكاد تكون متواضعة ،
ولكنها تنصف بالتعاضم والوقار ، فيعده الانكليز شخصاً مضجراً ،
ولكنهم يقدررون فيه الرجل المذهب الكامل . وهو يلوح أكثر انطلاقاً

مع الروس ، فانه يطلق العنان لنفسه على سجيته ، فيسخر ويتهم ،
وكذلك يفعل الآخرون فيسخرون ويتهمون ، ولكنها سخريه مقبولة
محبة على الدوام ، بلهجة حسنة يشوبها عدم الاكتراث . وهو يبشر
بالنظرية السلافية ، وهذا بنظر سرة المجتمع ، يعتبر شيئاً ممتازاً . ولا
يقرأ شيئاً بالروسية ، ولكنه يحتفظ على مكتبه بمنفضة فضية ، على شكل
حذاء من أحذية الفلاحين الروس الوطنية . والسواح مغرمون بملاحقته .
وها هو ماتفي ايليتش كولباجن ، وهو الآن في صفوف المعارضة ، يخف
لزيارته ، وهو أشد وقاراً من أي وقت سلف ، وهو في طريقه الى مياه
بوهيميا . وان سكان درسدن ليظهرون لبول كثير أمن الاحترام ، بالرغم
من أنه قليل الاختلاط بهم ، فهم يعلمون أنه لا يستطيع أحد أن يحصل ،
بسهولة وسرعة ، على تلك الأشياء الممتازة ، كبطاقات الشرف في الحفلات
المهمة ، سوى (هر بارون فون كيرسانوف) وهو يفعل الخير ، اذا وجد
اليه سبيلاً ، وانه ما يزال ذا أثر في المجتمع ، وما كان أسداً من اسوده ،
يوماً ما عبثاً . ولكن الحياة قد ثقلت عليه اكثر مما كان يتصور . وحسبنا
أن نراه في الكنيسة الروسية ، ينتحي ناحية ، فينفرد بنفسه ، وقد استند
الى الجدار ، موزع اللب ، طائر القواد ، مطبق الشفتين ، دون حراك ،
ولكنه قد يعود الى نفسه فجأة ، في رسم علامة الصليب التي لا تسكاد تبين .
أما مدام كوكشين ، فتعيش هي أيضاً في البلاد الأجنبية ، وهي
الآن في هيدلبرج ، لا تدرس العلوم الطبيعية ، بل الهندسة ، وتزعم أنها
قد اكتشفت قوانين جديدة . وهي مواظبة على الاختلاط بالطلاب ،

وبالكيميائيين الروس الذين تعج بهم هيدلبرج ، على الأخص ، باوئك
الذين أذهلوا الأساتذة الألمان باصابة أحكامهم ودقتها ، ثم أدهشوهم بعد
ذلك بيطالتهم المطلقة ، وكسلهم الذي لا علاج له . وأما سيتنيكوف ،
فكان يتجول مع بعض هؤلاء الكيميائيين ، من النوع الذي ليس له
قابلية تمييز الأكسجين من الآزوت ، ولكنهم ينتقدون كل شيء ، وهم
أشد ما يكونون رضاء عن أنفسهم ، وقد رافق العظيم اليسيفيتش أيضاً ،
كل ذلك في سبيل بلوغ العظمة التي لم يأس من الوصول إليها يوماً . وكان
ما يفتأ يردد بأنه سينجز ما بدأ به زاروف . ويقال أن أحدهم ضربه
في الأيام الأخيرة ، ولكنه أدرك ثأره وانتقم ، وذلك بأن كتب مقالاً
غامضاً في صحيفة قليلة الأهمية ، يدعي به أن من ضربه جيان خسيس ،
ويدعي كذلك بأنه قد سخر منه . وما زال يخجل من ذكر أيه ، ونوع
عمله . أما زوجته فتعبره أبلة مغفلاً ... ولكنها تسميه أدياً !

وفي بقعة منقطعة من روسيا مقبرة صغيرة قروية ، عليها سماء الأسى
والتعاسة ، شأنها شأن مقابرنا جميعاً ، على وجه التقريب ، قد امتلأت
الخنادق حوها بالأعشاب البالغة النمو ، حتى حجبتها ، وتفتت صلبانها
الحشبية الرمادية ، المائلة حتى الأرض ، تحت تلك السقوف المنحرفة التي
نصلت ألوانها ، أما البلاطات المنصوبة على الأرض فقد تحولت من محلاتها
كأنها قد دفعت دفعا من الوراء ، وثمة شجرتان ، أو ثلاث ، لا تمنح
إلا ظلاً غاية في الضآلة ، وترى الخراف ترعى بحرية بين القبور ...
ولكن بين هذه الرموس رمس لم تمسه يد انسان ، ولم تطأه قدم حيوان ،



حاشا العصفير التي تحط عليه ، وتغرد عند الفجر ، يحميه سياج من
الحديد ، وتضله صفصافتان قائمتان على جانبيه . هنا يرقد ايفاجني
بزاروف ، يزوره أحياناً عجوزان محطمان ، هما زوج وزوجته ، يأتيان
من القرية المجاورة ، وكل منهما يتوكأ على الآخر ، يمشيان بخطى متساوية ،
حتى يقتربا من السياج فيركعان ، ويهرقان الدموع المريرة ، ويحدقان
بأناة وصبر في البلاطة الخرساء التي تغطي ولدهما ، ويتبادلان بعض
الكلمات الكسيرة ، ثم يمسحان على البلاطة ، أو يقومان غصناً يغطيها ،
ثم يصليان على روحه ويدعوان . وكم يصعب عليهما مفارقة هذا المكان
الذي يجدان ، حين يكونان بقربه ، أنهما يكونان على أقرب ما يكون
من ولدهما ، وأشد صلة بذكره .

فهل في الامكان أن تكون دعواتهما وصلاتهما ودموعهما عبثاً بلا
طائل ؟ وهل في الامكان أن يكون ذلك الحب ، الحب النقي الخالص من
الأنانية ، غير قادر على شيء ؟ كلا والف كلا . ومهما كان القلب الذي
يهجع في اللحد ، قاسياً تائراً خاطئاً ، في الحياة ، فان الأزهار الباسمة النابتة
فوق ضريحه ، لتتطلع إلينا بعيون بريئة لا أئيمة . ان هذه الأزهار
لا تحدثنا عن الشر ، بل عن الهدوء الأبدي ، وعن الطبيعة العابثة وهي
في هدوئها وطمانينتها بوصفها صورة للوفاق الدائم ، والحياة
الأبدية الأخرى .

DATE DUE

JAFET LIB.

- 9 JAN 1992

JAFET LIB.

1 DEC 1993



891.73:T93abAa:c.1

فاضل، اكرم

الآباء والبنون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032650

AMERICAN UNIVERSITY

